من
معجزات الكون

الخلق ـ النشوء ـ الإرتقاء



أ. د/ عقيل حسين عقيل

2016

من

معجزات الكون

(الخلق ـ النشوء ـ الارتقاء)

أ. د/ عقيل حسين عقيل

2016/5/17م

الفصلُ الأوّل

الخَلقُ

الفهرسة

- تمهيد
- الفصل الأوّل الخلق
- الخلق
- المخلوق
- خلق الكون
- الانبهار العظيم
- التمدّد الكوني
- خلق الأكوان
- التمدّد الممكن والمطلق
- الانكماش الكوني
- خلق اللاشيء
- خلق الشّيء
- خلق الفراغ
- الفراغ حاضنة الأشياء
- الوجود
- العدم

- موت الموت
- الفصل الثاني النّشوء
- النّشوء
- الانفتاق الكوني العظيم
- انفتاق الأرض وهبوط آدم
- خلق الشيء ونشؤه
- أصل النّشوء البشري
- تطوّر نشوء الإنسان
- الحلقة المفقودة
- نشوء الإنسان مقوّم
- نشوء الأزواج
- نشوء التزاوج
- الخلق ثابت والنّشوء متبدّل
- التكيّف بقاء
- النّشوء بداية ونهاية
- نشوء النّهاية العدديّة
- المتعرّف عليه

ـ غير المتعرّف عليه

ـ الواحد البداية والنّهاية

ـ الواحد كمّا وصورة

ـ النّشوء حركة وفعلا

ـ الفصل الثالث الارتقاء

ـ الارتقاء

ـ ارتقاء الخلق الآدمي

ـ ارتقاء الأخلاق

ـ ارتقاء آدم

ـ ارتقاء بني آدم

ـ اعوجاج بني آدم

ـ بنو آدم بين ارتقاء ودونية

مراحل الارتقاء الإنساني

مرحلة الفطرة

مرحلة التقليد

مرحلة توليد الفكرة

مرحلة تطوير الفكرة

تطوّر الفكر جدلا وحجّة

الفكر يلد حلّا

محطّات تطوّر الفكر

الفكر الأسطوري

الفكر الفلسفي

حيرة الفكر

الفكر الفلسفي ارتقاء

تفسير الخيال أسطورية

تفسير العقل والمبدأ

مراحل الارتقاء قاعدة واستثناء

مرحلة العبودية

مرحلة الإقطاع

مرحلة رأس المال

المرحلة الشّيوعية

الفوضوية في كلّ المراحل

الارتقاء عملا

ـ قاعدة النّظرية

- المستحيل خلقا
- المعجز نشوء
- المُمكن ارتقاء

تمهيد

تأسّست النّظرية على قواعد ثلاث: خَلق كوني دونه المستحيل، ونشوء خَلق دونه الإعجاز، وارتقاء في دائرة الممكن دونه الاثنين معا، ومع ذلك؛ فالكلّ بين متحقّق ويتحقّق. والتساؤلات التي تأسّست عليها النظرية:

هل الكون خالقٌ أم مخلوق؟

هل الكون نتاج الانفجار العظيم، أم أنّه نتاج الانفتاق العظيم؟

هل الكون واحد أم أنّه متعدّد؟

هل النّشوء مستقل بذاته، أم إنّه خَلق مترتّب على خَلقٍ؟

هل الخلق ارتقاء أم الارتقاء لا يزيد عن كونه أملا؟

هل الارتقاء في دائرة الممكن أم أنّه المتجاوز لها؟

هل الارتقاء هو أمل ماضٍ أم إنّه أمل آتي؟

هل الإنسان خُلق على الارتقاء أم أنّه المتطوّر من أجله؟

فإن كان الكون خالقا؛ فالخالق يخلق غيره، وإن كان المخلوق؛ فالمخلوق كما يسبقه الخالق، يسبقه الحيزّ الذي يُظهره وجودا، وإن كان كذلك؛ فالزّمان والمكان لا يعدّان جزاء منه، بل يعدّان السّابقان عليه.

ولأنّه لا شيء قبل الخَلق إلّا الهيئة التي سيكون المخلوق عليها شكلا أو صورة؛ فالهيئة غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وهي لا

تدرك إلّا من قِبل الخالق، وهذا الأمر يشير إلى ضرورة المقدرة المُطلقة لخلق أيّ شيء، ولا شيء.

ومع إنّ البعض يرى أنّ المخلوق خُلق من اللاشيء، ولكن بعض علماء الفيزياء اثبتوا أنّ اللاشيء هو الآخر مخلوقا، أي: لو لم يكن اللاشيء مخلوقا ما تحدثنا عنه، ولأنّه أصبح بين إثبات ونفي؛ فهو لو لم يكن ما كان بينهما.

والتساؤل هنا:

إذا أصبح البحث في اللاشيء بين يدي البحاثة في علم الفلك والفيزياء؛ فهل يعدّ اللاشيء سابقا على كلّ سابق، أم أنّ هناك سابقا عليه؟ وهل السّابق عليه مخلوقا أم أنّه الخالق؟ وهل الشيء كان نشوءا من لا شيء، أمّ أنّ النّشوء لا يكون إلّا من شيء؟

ولأنَّ النّشوء لا يكون إلّا في شيء؛ فهو في ذات الوقت لا يكون إلّا منه.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء خُلق مسيّرا في أحسن تقويم، لكنّه اختيار انحدر في غفلة حتى أصبح أقل شأنا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليّة أخلاقية أخذته الصّحوة والحيرة تملأ نفسه ندما؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكن لم يتمّ ذلك إلّا بعد نفاذ الأمر وهو الهبوط به وبالأرض أرضا، ومن هنا أصبحت تلك الحياة الخَلقية، التي خُلق فيها الإنسان الأوّل (آدم) جنّة لم تفارق عقله، وظلّ يأملها؛ حتى جاءت الاستجابة حافظة لأمله في العودة إليها ارتقاء.

ولذا؛ فبعد أن كان آدم قد خُلق على الارتقاء خلقا، أصبح الارتقاء بالنّسبة له مجرّد أملٍ. ومع ذلك؛ فالأمل لا يتحقّق إلّا عملا؛ فمن عمل من أجله بلغ مأموله، ومن لم يعمل؛ فلا ارتقاء.

أمّا بالنّسبة للنّشوء؛ فهو نتاج خلق الشيء من الشيء ارتقاء، كما هو خلق الكون، ثمّ خلق الأرض فيه وجودا، ثمّ خلق الأزواج منها، كما هو شأن آدم وزوجه، اللذان خُلقا من تراب الأرض جنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماء.

ولذلك، كان الخَلق أوّلا، ثمّ جاء النّشوء مترتّب عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة؛ فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقا للإرادة والرّغبة التي تمتدّ بين شهوة عاطفية، وبين خُلقٍ وحُسن تدبّر وضبط ضمير.

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، خُلق على الارتقاء والأرض مرتقة في السّماء جنّة، ولكن بعلّة الشّهوة اختار أن يسلك سلوك المنحدرين دونية؛ فأصبح النّعت سُفليّة يلاحقه منذ تلك السّاعة التي انحدر فيها حيث لا منقذ له بعلل الاختيار انحدارا.

ومع أنّ الأمل بالنّسبة لبني آدم يرتبط بالمستقبل، ولكنّه بالنّسبة لآدم؛ فهو يرتبط بذلك الماضي الذي كانت فيه الأرض والسّماوات رتقا، ولهذا؛ فالأمل بالنّسبة لآدم هو العودة إلى تلك الجنّة التي فقدت في لحظة غفلة.

ومن هنا؛ فالأمل مع إنّه من حيث المفهوم واحد، ولكنّه من حيث الدّلالة ليس كذلك، ولذا وجب التفكير في الزّمن وضبطه بين ماضٍ

لن يعود، وبين ماضٍ يأمله آدم وبنوه الذين يعتقدوا أنّ الجنّة حقيقة على قيد الوجود؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه قبل أن تُفتق الأرض من السّماوات، ظلّت هناك في علوٍ، أمّا الأمل فظل منقطعا على الأرض التي أهبط بها ومن عليها من المختلفين والمتخالفين دنيا.

ولأن قواعد النّظرية (خلق ـ نشوء ـ ارتقاء) فهي ذات علاقة بأضلاع ثلاثة (المستحيل ـ الإعجاز ـ الممكن) ولهذا؛ فحيثما كان الخلق، كان المستحيل، وحيثما كان النّشوء، كان الإعجاز، وحيثما يكون الارتقاء، يكون الممكن.

ومع أنَّ الممكن ليس بمستحيلٍ، ولكنّ فيه من الصّعب ما فيه، وبالرّغم من ذلك يتحقّق على أيدي البعض ارتقاء، ويتحقّق على أيدي البعض الآخر دونية وسُفليّة؛ ولهذا، فالممكن فيه من الموجب، وفيه من السالب ما يساويه، وفيه من المتوقّع، وفيه من غير المتوقّع ما يساويه.

ومع أن الممكن بين متوقّع وغير متوقّع، ولكن ليس كلّ شيء ممكنا؛ فهناك المستحيل الذي لا يخرقه إلّا معجز، وهناك المعجز الذي لا يخرقه إلّا ممكن، أي: أنّ المستحيل لا يتحقّق إلّا مستحيلا كما هو حال خلق الأكوان، وفتق الأرض منها، وهبوطها والأزواج على ظهرها إلى الحيالة الدّنيا.

ولذلك؛ فالخَلق صُنع الخالق، ولا إمكانية للتمكّن منه فعلا أو عملا، أمّا النّشوء؛ فهو المُعجز الذي يخلق من الشيء أشياء، كما هو حال الأرض وخلق الكثير من الأزواج منها، ثمّ النّشوء التزاوجي

ومعجزة الخلق من النّطفة، ثمّ الإظهار على علم الغيب، وهو المعجز الذي أصبح في دائرة الممكن نبأ ورسالات بين أيدي من اصطفاهم الخالق أنبياء ورسُلا عليهم الصّلاة والسّلام.

ومن هنا، أصبح علم الغيب في دائرة المُمكن بين أيدي النّاس معجزة تبشّر بما يجب، وتنهى عمّا لا يجب، وترشد للحقّ، وتحرّض عليه.

فكان الارتقاء تطوّرا من الجهل إلى العلم، ومن محاكات الطّبيعة وحياة الفطرة والأساطير والخرافة، وحياة المحاكاة تقليد بلا حُجّة عن غير بيّنة، إلى حياة المعرفة الواعية، والفكر المستنير الذي تلاقح بالعلم المعجز من عند الله على أيدي الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام.

فأنتج عصرا جديدا، فيه تُولّد الفكرة من الفكرة، وفيه أصبحت المحاجّة بين النّاس المختلفين والمتخالفين بيّنة ودليلا، وفيه العبر والمواعظ تؤخذ من التّاريخ، وفيه الحقوق بين النّاس تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسؤوليات تُحمل عن إرادة. ومع ذلك؛ فالصّدام والخصام والاقتتال بين النّاس ظل في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع.

ولهذا؛ فالحياة البشرية لم تؤسّس على الاتفاق، بل تأسّست على الاختلاف، وسيظل النّاس على الاختلاف إلى النّهاية، إلّا من رحم ربّك، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[1] ومن ثمّ؛ فلا اتفاق بين النّاس، بل

[1] هود 118 ، 119.

الاتفاق لم يبق بينهم إلّا أملا، ولا يسعى إليه إلّا الواعون الذين لا تأخذهم الغفلة كما أخذت أبيهم (آدم) عليه السّلام في لحظة الإغواء والشهوة، عندما عصى ربّه، وأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها.

ولذلك، وجب التذكّر حتى لا تتكرر الأخطاء، ووجب التدبّر دون غفلة عن العبر وما يوعظ، ووجب التفكّر فيما يمكّن من معرفة الكيفية التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا، ومعرفة المعجز معجزا، ومعرفة الممكن ممكنا.

ولذا، لا ينبغي أن يكون التفكّر منزوياً عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة تأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول.

ومن ثمّ، يعدّ التوقّف أو الانكفاء سِمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقية في التفكير، ممّا يخلق ارتباكاً وفوضى معرفية لا تكون نتائجها محمودة؛ فالتفكّر ارتقاء لا يكون إلّا واقعاً ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له؛ فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه.

والتفكّر ارتقاء هو الذي يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل تكمن فيها معطيات النّهوض الذي يمنح النّاس حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع لكونه يرتبط بالخوف؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابية المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتاً، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبياً على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزاً مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائماً إلى وجود خروقات طبيعية وغير طبيعة، تخرج عن نطاق المتعارف أو

الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثاً على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمراً، يمنح الإنسان وعياً، ويمكّنه من الارتقاء إلى ما يجب.

اشكر الأخ الدّكتور على عبد الرزاق عبد القادر الأستاذ العراقي بجامعة كليفلاند باوهايوا الولايات المتحدة الأمريكية، الذي كان السّبب في دفعي تجاه الخوض في هذا الموضوعي، وهو من تولّى مراجعته بداية ونهاية؛ فجزاه الله عني كلّ خير.

أ. د/ عقيل حسين عقيل

2016/5/17م

الخَلقُ

الخَلقُ إيجاد مالم يكن من قبل موجودا، وهو كيفية غير مسبوقة، به تُبدع الهيئة، ويبدع المشاهد والملاحظ والمتمدّد والسّاكن؛ فالخلق فعل الخالق، وهو المقدرة المطلقة على إيجاد الشيء واللاشيء حيث لا شيء قبل الخلق إلّا الخالق.

فالخلق تكاثر زوجي: (سالب وموجب، ذكر وأنثى) مؤسّس على التضادّ، ثمّ على التنوّع والاختلاف، والتجمّع والافتراق، والتمدّد والانكماش، والحياة والموت، والبداية والنّهاية.

ولأنّه الخلق؛ فلا خلق إلا لهدف وغرض وغاية، وهذه جميعها مجرّدة؛ فلا تُخلق خلقا، بل تدركها العقول إدراكا، حيث لا المادّة ولا الرّوح تخلقها، بل تُبثّ بثّا من العليم إلى من يتعلّم.

ولأنّ الكون لم تكن له صفة العليم؛ فكيف له ببث هدف يتحقّق، أو غرضٍ يُنجز، أو غاية يتمّ بلوغها.

ولأنَّه لا هدف ولا غرض ولا غاية للكون من خلق نفسه، إذن فمن أجل من خَلق الكون نفسه؟ وإلّا هكذا خَلق نفسه عبثا؟ كون بلا غاية، لا يمكن أن يدرك ما سيلمّ به من تجمّد وانكماش وانفجار وتبعثر ونهاية؟ كون يجهل ما سيلم به، كيف له أن يكون خالقا؟ ثمّ، على أيّة قاعدة تأسّس قول البعض: (كون خُلق من لا شيء ولا خالق له)؟

ولأنّ الخالق (يَخلق ولا يُخلق)؛ فهو القادر على إظهار هيئة الشيء قبل أن يكون شيئا، ذلك لأنّ هيئة المخلوق سابقة على خلقه؛ فهيئة

الكون في علم خالق الكون هي سابقة على خلقة كونا، ولذلك؛ فالخالق هو: مُوجد هيئات الخلائق قبل أن يجعلها أشياء على الصّور والأشكال، سواء أكانت متناهية الكبر أم متناهية الصّغر(الشيء واللاشيء).

ولانَّ هيئة المخلوق تسبق خلقة شيئا؛ فهل هيئة خلق الكون كانت مسبوقة عنده قبل أن يخلق نفسه كونا من لا شيء؟

ولأنّ الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلقه غيره، إذن؛ فكيف للكون بخلق نفسه من لا شيء؟ ولأنّ الخالق له صفة الخلق؛ فهل للكون هذه الصّفة التي لا تنقطع، أم أنَّ الكون خلق نفسه من لا شيء، ومن بعدها خسر صفته؟ وهل الكون خلق نفسه بصفة الخلق؟ أم أنّه خُلق عليها؟ أم أنّه خُلق بدونها؟ أي: هل صفة الخلق هي التي خلقته أم أنّه هو الذي خلقها؟

فإن كانت صفة الخلق خالقة للكون؛ فهي: سابقة عليه، وإن كان خالقها؛ فهو السّابق عليها، وإن خُلق معها؛ فلابد من خالق لهما.

وإذا كانت صفة الخلق سابقة على الكون من لا شيء؛ فمن الذي خلقها لتكون صفة خلّاقة؟ وإذا قال البعض: إنّ صفة الخلق قد وُلدت في الكون ولادة ؟ فالسؤال:

من الذي ولدها؟

وممّا ولدت؟

وكيف ولدت؟ ومتى؟

ولأنّه لا إجابة قاطعة للشّك، إذن؛ فمقولة: (الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له) أصبحت حُجّة بلا حجّة {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}[2]، وإذا سلّمنا أنّ: (الكون خُلق من لا شيء ولا خالق له)؛ فلا بدّ أن نسلّم بأسبقيته على كلّ خالق، ولكن الخالق يقول: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[3]؛ فما الرد؟

ولأنَّ صفة الخلق سابقة على وجود الكون؛ فكيف للكون بخلق نفسه؟

ولأنّ قاعدة المنطق العلمي تنصّ على أنّ: (الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلق من غيره) إذن؛ فكيف للكون بهذه الصّفة الخلقية؟

ولأنّ الكون لا يخرج عن كونه شيئا؛ فالشيء لا يمكن أن يكون إلّا مخلوقا. ولأنّه المخلوق؛ فلا يمكن أن يكون خالقا؛ فالخالق (لا يكون شيئا، ولا يكون لا شيئا، ولا يكون شيئا آخر). بل هو الخالق، الذي يَخلق ولا يُخلق، {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[4].

ولأنَّ القاعدة الخلقية تنصّ على أنّ الخالق (يخلق ويحيي ويميت)؛ فهل الكون يحيي ويميت؟ فإن لم يحي ويميت، لا يمكن له أن يكون مخلوقا من لا شيء، ولا يمكن أن يكون من غير خالق؛ فالله تعالى لو لم يخلق الموت لكفر الجميع، ولأنّه خلق، ويخلق، وأمات، ويميت؛ فهو الخالق ولا شريك له.

---

[2] فاطر 3.
[3] الواقعة 60.
[4] النور 45.

ولكن، لو خُلق الكون من لا شيء ولا خالق له، لكان الكون على القوّة الرّاعية لبقائه؟ ولأنَّه لا يمتلك ذلك؛ فهو المعرّض للتجمّد والانكماش والتبعثر والانفجار والفناء.

ولأنّ المنطق العلمي يقول: (الخالق يبقى والمخلوق يفنى)؛ فهل للكون هذه الصّفة التي تبقيه خالقا؟

ولأنَّ الكون وفقا لأحكام علماء الفيزياء سينتهي لا محالة، إذن؛ فلا علاقة له مع صفة الخلق التي ألصقت به.

ومن ثمّ؛ فقاعدة الخلق تنصّ على أنّ: (صفات الخلق تستمدّ من الخالق، ولا تضفى عليه)، إذن؛ فلا وجود لعلاقة تربط الكون مع صفة الخلق (كونه شيئا مخلوقا).

وصفات الله تعالى تستمدّ منه، ولا يستمدّ منها، ولا يمكن لأحد أن يصفه بأيّة صفة، إلّا التي وصف بها نفسه، وهنا يكمن الإعجاز، وإلّا هل هناك من يستطيع استمداد صفة من اسم (الله).

لا أحد.

ولهذا، وصف الله نفسه، (الرّحمن الرّحيم الملك القدوس السّلام وإلى النّهاية التي لا تنهي صفات الله)..

إذن؛ فالخلق صفة الخالق، والغاية من الخلق البقاء، والقاعدة: (الحياة الدّائمة)

والاستثناء: (الموت والانتهاء)، {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[5].

وعليه: حتى وإن سلّم البعض بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء؛ فلا يمكن لهم أن يسلّموا بمقدرة الكون على خلق غيره، ولأنّه غير قادر؛ فهو قاصر لا يمتلك صفة الخلق ومقدرة الخالق؛ فالخلق كيفية غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وغير قابلة للجمع والطرح كما هو حال المخلوق القابل لكلّ ذلك؛ فالخَلق كيفي، والمخلوق كمي. ومن ثمّ؛ فالخَلق صُنع الخالق، {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[6]، ولهذا؛ فلا شيء قَبل الخَلق إلّا الخالق، ولا شيء بعد الخلق إلّا المخلوق.

المخلوق:

كلّ من وُجد على كينونة ليست باختياره؛ فهو مخلوق يشاهد ويلاحظ ويُحسّ به. أمّا ما يميّز المخلوق العاقل؛ فهو المدرك لغايته، وغير المدرك للغاية التي من وراء خلقه؛ فالغاية من خلق المخلوق لا يعلمها إلّا الخالق، ولهذا، خُلق على التسيير والتخيير.

وحتى إن اعتقد البعض إنّه بإمكانه مشاهدة الخلق من خلال مشاهدة أجنّة الأنابيب؛ فهو في هذه الحالة كمن لا يميّز بين (الخلق والمتخلّق) ذلك لأنّ ما يشاهد لم يكن (خلقا) بل هو: (المتخلّق)؛ فالخَلق، كيفية بين يدي الخالق، فيها تنتقل هيئة المخلوق من مجرد إلى ملاحظ، ثمّ إلى مشاهد. ولذلك في مرحلة الخلق لا إمكانية

---

[5] العنكبوت 64.

[6] النمل 88 .

للمشاهدة، ولكن التحاليل المعملية تثبت ملاحظة عملية الخلق التي قد بدأت، ومن ثمّ؛ فلا شيء يشاهد أثناء عملية الخلق التي تسبق عملية التخلّق القابل للمشاهدة.

ولأنَّ المخلوق لا يمكنه الدّراية بكيفية خلقه؛ فهل يمكن له أن يدري كيفية خلق من سبقه خلقا؟ وهل يمكن للمخلوق الذي يجهل كيفية خلقه، أن يعلم كيفية خلق الكون الذي لا يزال قاصرا عن معرفة خفاياه؟

وهل الحكم الذي أقرّه بعض الفيزيائيين (الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له) هو حكم مشاهد، أم حكم ملاحظ، أم أنّه حكم مفسّر؟

فإن كان الحكم نتيجة المشاهدة؛ فلا بدّ أن يكون المشاهد قد حضر زمن خلق الكون، وهذا ضرب من المستحيل، وإن كان ملاحظا؛ فلابدّ من تجربة تخضع الكون للتجربة، وهذا ضرب آخر من المستحيل، ولكن إن كان تفسيرا؛ فالتفسير دائما يرتبط برؤية المفسّر التي لا تخرج عن دائرة الممكن المملوءة بالشكوك والظّنون.

ولذلك؛ فالمخلوق مكوّن وجودي (مشاهد وملاحظ)؛ فالمشاهد منه يخضع للرّؤية، أمّا الملاحظ؛ فيخضع للإدراك، والمخلوق لا يقتصر على البشر كما يظن البعض، بل هو كلّ مخلوق، سواء أكان شيئا، أم لاشيئا (متناهٍ في الكبر أم متناهٍ في الصّغر).

فالمخلوق مهما كبر وعظم لن يكون الخالق، وبالتالي؛ فهو مستوى دنيوي، فاقد لصفة البقاء والدّيمومة.

ومع أنَّ المخلوق البشري قد تميّز بحسن التقويم، لكنّه لا يقبل التسليم والطّاعة كما قبلت به بقية الخلائق {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[7] هكذا هو الكون طائعُ يسبِّح بحمد خالقه (الله)، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[8] وفي المقابل: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[9].

خَلق الكون:

الخَلق مقدرة يمتلك الخالق أفعالها وأعمالها، بها يختص ويتّصف، وبها يَخلق ولا يُخلق (يمتلكها ولا تمتلكه)؛ إنّها الصّفة التي تسبق المخلوق وتتبع الخالق.

والتساؤل :

أيّهما أسبق وجودا، (الخلق أم الكون)؟ فإن كان الكون كما يقول بعض علماء الفيزياء هو السّابق على الخَلق (خُلق الكون من لاشيء ولا خالق له) فتساؤلنا: من أين استمدّ الكون صفة الخلق التي تملأه: (شيئا ولاشيئا)؟

لقد اتفق الفيزيائيون على أنَّ الكون قبل أن يكون كونا، كان نقطة ذرية، ثمّ انفجرت تلك النقطة المتناهية في الصّغر؛ فأصبح الكون

---

[7] الإسراء 44 .
[8] فصلت 11.
[9] الكهف 54.

من بعدها يتّسع بـ(الشيء واللاشيء)، ويتمدّد متسارعا في كلّ الاتجاهات، وهو مملوء طاقة وحيوية ومجرّات ونجوم.

ولكن بعض الفيزيائيين أصدر حكما: (إنّ الكون خُلق من لاشيء)، ومن ثمّ، يقولون: (لا خالق للكون)، وهذا الحكم يدفعنا لطرح تساؤلنا:

إذا سلّمنا افتراضا أنّ الكون خَلق نفسه من لا شيء، إذا؛ فمن الذي خلق تلك النقطة سبب وجود الكون؟ أم أنّ تلك النقطة الذّرية هي الأخرى قد خَلقت نفسها؟ وإذا كان الأمر كذلك؛ فهل تمكَّن هؤلاء الفيزيائيون علميا من معرفة تلك النقطة التي وصفوها بالذّرة قبل أن تنفجر؟ وهل هم متيقّنون علميا أنَّ تلك الذّرة لا توجد ذرات أخرى إلى جانبها؟ وإذا قبل البعض بخلق الكون لنفسه، ولا خالق له، إذا؛ فمن أين استمدّ الكون صفة الخلق التي يتحدّثون عنها؟ فهل حكمهم نتيجة إثبات حقيقية علمية، أم أنّه نتيجة تفسير لما تمكّنوا من اكتشافه وكأنّه لا اكتشاف من بعده؟

وإذا أجزنا افتراضا أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء؛ فلابدّ من تعميم هذه الصّفة على جميع مكونات الكون وأجزائه الدّقيقة بما فيها نحن بنوآدم، ذلك لأنَّ الصّفات تنقل وراثيا (سلالات وأطوار وأجيالا) إلى النّهاية.

فإذا اعتمدنا هذا الحُكم؛ فلا شكّ أنّنا قادرون على خلق أنفسنا، وفقا لصفة الخلق التي يتّصف بها جدّنا الأوّل (الكون)، الذي قالوا عنه: قد خلق نفسه من لاشيء، ولأنّنا نعرف حقيقة خلقنا ليست بأيدينا، إذا؛ فلا يمكن أن يكون الكون الذي نحن من ترابه خالقا لنفسه.

وإذا سلمنا بنظرية الانفجار العظيم هي كما هي؛ فهل هناك من مشاهد لذلك الانفجار ساعة انفجاره، حتى يصفه لنا بهذه الصّفة؟ أم أنّه قراءة أبهرت القرّاء من الفيزيائيين بما لم يكونوا له متوقّعين؟

وإذا تمسّك ذلك البعض الفيزيائي بأنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء؛ فهل يدلّ هذا الأمر على أنّ صفة الخلق الكوني تحدث مرّة واحدة ثمّ تنقطع؟ فإذا قبلوا بذلك؛ فكيف لهم بفرض الإثبات العلمي: (الصّفة الطبيعية جينات تورّث)؟

ولأنَّ الخلق صفة لخالقٍ؛ فالخالق لابدَّ أن يكون أعظم من المخلوق، ولهذا؛ فالمخلوق المدرك ينبهر بما هو عظيم كلّما اكتشفه، وبخاصّة إنْ لم يكن متوقّعا.

ولذلك؛ فعلماء الفيزياء انبهروا بما اكتشفوا كونا (طاقة وحيوية ومجرّات ونجوما وكواكب وتمدّد)، ممّا دعاهم إلى وصف ذلك المكتشف المُبهر بالكون الخالق لنفسه من لاشيء.

ومع أنّ بعض علماء الفيزياء يرى: (أن الكون خُلق من لا شيء، ولا إله له)، لكن بعض آخر يرى: (أنّ وراء كلّ مخلوق خالق، ولا شيء خالق لنفسه)، ثمّ بعض ثالث يرى: (أنّ الكون خُلق من عدم). أمّا البعض الرّابع؛ فيرى: (أكوانا أخرى خُلقت إلى جانب الكون الذي نبحث في شأنه).

ولأنَّ علماء الفيزياء يفترضون وهم يفسّرون معلوماتهم بوجود أكثر من كون؛ فهل هذه الأكوان جميعها قد خَلقت نفسها من لاشيء، أم أنَّ وراء كلّ كونٍ خالق؟ أم أن للأكوان خالقا واحدا؟

ولأنّ القاعدة المنطقية تقول: (الخالق لا مثيل له)، ذلك لأنّه الخالق، إذا؛ فالإقرار بوجود أكثر من كون، وكلّ كون خالق لنفسه من لاشيء يعدّ إقرارا بوجود أكثر من خالق، وهذه الحجّة تبطل مقولة: (الكون خلق نفسه) لأنّه لو خلق نفسه، لما كان له مثيل (كون آخر).

ولأنَّ الدلائل تشير إلى وجود أكوان أخرى؛ فكيف لنا باختراقها ونحن حتى الآن لا نستطيع اختراق حدود كوننا المتسارع في التمدّد؟

وإذا أجزنا ذلك؛ فهل هذه الأكوان هي من نتاج ذلك الانفجار العظيم (الانبهار) أم أنّ لكلِّ كونٍ انفجاره؟

ولأنَّ طبيعة الانفجار مدمّرة للأشياء؛ فلماذا وُصف الكون بهذه الصّفة التدميرية التي لا تؤدّي إلى الخلق والبناء؟ وكيف يمكن لنا التسليم بهذه الصّفة التدميرية، وفي ذات الوقت نسلّم بأنّ الكون خلق نفسه من لاشيء ولا خالق له؟

وإذا سلّمنا بأنَّ وراء هذا الكون تلك النّقطة الذّرية؛ فينبغي علينا التسليم بأنّه لو لم تكن تلك الذّرة المتناهية في الصّغير، ما كان الكون، وهذه الحجّة تبطل القول: (إنّ الكون خُلق من لاشيء) وتثبت أنّ الذي خلق تلك الذّرة المتناهية في الصّغر هو الذي خلقها على الانفجار الذي أخرج الكون منها، وبالتالي تبطل مقولة: (خلق الكون من غير خالق).

وإذا كان الكون قد خُلق من تلك الذّرة المتناهية في الصّغير، أو أنّه خُلق من انفجارها؛ فالتساؤل: ومن الذي خلق تلك الذرة؟ ومن الذي جعلها على الانفجار؟

وبالتّالي؛ فإنْ لم نتحصّل على نتيجة ذات حُجّة، يصبح من الصّعب علينا التسليم بما سلّم به بعض الفيزيائيين: (أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء). ومن أجل البحث؛ فإذا سلّمنا بالانفجار الكوني؛ فهل ذلك الانفجار حدث في مكان وزمان، أم أنَّه حدث في غير مكانٍ ولا زمانٍ؟ ولكن؛ فإن حدث في مكان وزمان، يظل الزّمان والمكان سابقين على وجوده، وإن قال قائل: إنّه حدث في غير مكان ولا زمان؛ فالتساؤل: هل يمكن في غير مكانٍ وزمان أن يكون للانفجار صفة التمدّد والانتشار؟

وإذا قبلنا بلحظة الانفجار الكوني (الانبهار العظيم)؛ فهل حدث هذا الانفجار في مكان وزمان كما سبق وأن تساءلنا؟ أم أنّ المكان والزّمان من مواليده؟ فإنْ تمّ الاستدلال بهما على ذلك الانفجار العظيم؛ يصبح استيعابهما لتلك الذّرة الصّغيرة متجاوزا لأيّ نقاش. ولكن إن لم يتمّ الاستدلال بهما، يصبح الانفجار العظيم ساعة الولادة.

ولأنَّ أمر الخلق عظيم؛ فهناك من يؤمن: (أنَّ وراء الخلق خالق)، وفي المقابل، هناك من يكفر بذلك ويقول: (الكون خُلق من لاشيء)، وبين هذا وذاك هناك من يرى أنّ الكون: (خُلق من عدم)، والله قال: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[10].

فها نحن في مجادلة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تمكّن من معرفة الكون، دون تعصّب بغير بيّنة؛

[10] الكهف 54.

ممّا يجعل البعض يطلب تحديدا لمفهوم العدم مع إظهار الحجّة المرسّخة لخلق الكون منه.

فالعدم مع أنّه أثر، يثبت وجود شيء ولكن إن سلّمنا بفرضية خلق الكون من العدم؛ فقد سلّمنا بوجود شيء سابق على وجود الكون، وبالتالي؛ يصبح الكون مخلوقا من ذلك الأثر المتناهي انعداما. وإذا سلّمنا به أيضا؛ فلا يمكن التسليم بأنّ: (الكون خُلق من لاشيء)؛ فكيف لنا بقبول ذلك وبعض الفيزيائيين يفترض خلق الكون من العدم؟

ومع أنَّ العلماء والبحاث يحتكمون بالأدلة والحُجج الموضوعية، لكن في بعض الأحيان تتدخّل الأحكام الشخصية مع بعض النتائج العلمية، ومن ثمّ؛ ينبغي التمييز بين التحليل العلمي المُمكّن من نتائج موضوعية، وبين تفسير النتائج الذي في كثير من الأحيان يتأثّر بوجهات النظر الشخصية؛ فالتفسير لا تنقطع صلته عن رؤية المفسّر (وهنا تكمن العلّة) أمّا النتائج؛ فمؤسّسة على حقائق وشواهد.

ولأنَّ العلماء يدركون حقيقة مفادها: (لا تحدث الأشياء إلّا بأسباب)؛ فالأسباب لا يمكن أن تكون منفصلة عنها لتدفعها تجاه تحقيق الأهداف.

وبناء على هذه القاعدة العلمية، هل عرف أولئك العلماء الفيزيائيون الأسباب التي دعت تلك الذّرة إلى الانفجار، لتكون من بعد انفجارها كونا خالقا لنفسه؟ وكيف لهم بهذا الحكم، وهم لا يعلمون الأسباب التي كانت من وراء خلقه؟ أي: هل يمكن أن تُحلّ مشكلة علمية، أو

اجتماعية، أو إنسانية إذا لم يتمّ التعرّف على أسباب وجودها أو ظهورها؟

وهل يمكن لنا الأخذ بهذا الحكم (الكون خُلق من لاشيء) ونحن لم نعرف الأسباب التي كانت من وراء خلقه؟

أي: هل يمكن لأيّ عالم معرفة مشكلة علمية، وهو يجهل معرفة أسباب وجودها؟

كلّ هذه التساؤلات تحمل إجاباتها في أحشائها؛ فالذي خلق تلك الذّرة التي انفجرت كونا وحده يعلم الأسباب.

وذلك المنفجر لو لم يكون من وراء انفجاره أسباب ما انفجر، وبالتالي فإنَّ العقل بالرّغم من الحيرة التي تلازمه بداية البحث العلمي، لكنّه لا يقبل التسليم بحدوث أيّ شيء ما لم يكن المشيء شاء له ذلك.

وعليه: فإنَّ المنطق العلمي يقول: إذا سلّمت بوجود شيء قابل للانفجار؛ فلابدّ أن تسلّم بوجود علل انفجاره وإن لم تعلمها.

وفي كلّا الحالتين؛ فإنْ أنكرت تلك العلل؛ فإنَّ إنكارك لها لا يلغي وجودها، وإن سلّمت بها؛ فإنّك قد سلّمت: (أنّ وراء كلّ علّه معلول، ووراء كلّ مخلوق خالق).

والمنطق العلمي يقول: (في الوقت الذي تعرف فيه شيئا منفجرا، تعرف فيه شيئا آخر قد انتهى)؛ فوجود الكون بأسباب الانفجار كان نهاية لذلك المنفجر؛ فعلى سبيل المثال: القنبلة المنفجرة أوّل ما تنتهي، تنهي وجودها ثمّ تؤثّر في محيطها تأثير مباشرا، ولذلك؛

فأيّ منفجر ما لم يكن له مكان للانفجار؛ فلا يمكن له أن ينفجر، وهذه الحجّة تثبت وجود مكان لتلك الذّرة التي انفجرت. ولأنّ تلك الذّرة قد انفجرت، قبل أن يُخلق الكون، إذا؛ فهي المزمّنة على الانفجار. ولأنّها مزمّنة للانفجار، إذا؛ فالزّمن سابق على وجود الكون. ومن ثمّ؛ فمن الذي خلقها؟ ومن الذي جعلها على الزّمن (لحظة الانفجار)؟

إنّ بعض الفيزيائيين يعترف بحدوث الانفجار في الفراغ، وفي المقابل بعضهم الآخر يرى أنَّ الانفجار كان بالفراغ، ولم يكن فيه، وفي كلا الحالتين: حدث الانفجار، ولأنَه حدث؛ فلابدّ من وجود حيّز مهيئ لانفجاره، ليسمح له بالتمدّد.

وإذا أجزنا ذلك؛ فقد اعترفنا بأسبقيّة الزّمن الذي بدونه لا يمكن أن يكون الانفجار. ولكن وإن توفّر المكان والزّمان؛ فلا انفجار إلّا بسبب، ولسببٍ.

ولأنّ بعض الفيزيائيين يقرّ بخلق الكون من لاشيء؛ فإنّهم يقرّون بنهايته لا محالة، ومن هنا أتساءل:

هل بقولهم هذا يقرّون أنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء بغاية إنهائها، وكأنّه لا شيء من وراء خلقه إلّا أن ينفجر ثانية؟

فإذا أقرّوا ذلك؛ فقد أقرّوا بعبثية خلق الكون، (كون بلا أسباب، ولا طموح، ولا غاية). ولأنّ بعض العلماء أقرّ بـالكون خُلق من لاشيء) فهم بقرارهم هذا اعترفوا بأنّه مخلوق (كونه كما قالوا خلق نفسه)، وبما أنّه مخلوق؛ فما هو الغرض من خلقه؟ نعتقد أنّه لا أحد يستطيع الادعاء بمعرفة غرض الكون، وبخاصّة أنَّ الغرض يسبقه

هدفا وتلحقه غاية، وهذه لا يعرفها إلّا عليم، والكون بلا ذاكرة، فكيف له بذلك؟

وإذا سلّم البعض بخلق الكون من لاشيء، ولا خالق له؛ فهل خَلْقُ الكون مؤسّس على قوانين؟ أم أنّه لا قوانين تحكمه؟

إذا قبلوا بخلقه على قوانين؛ فقد قبلوا بأسبقية القوانين عليه، وإذا قبلوا بذلك؛ فلن يقبلوا بخلق القوانين لنفسها، وذلك لمعرفتهم أنّ القوانين ليست مادّة، بل هي ضوابط للتوازن والاعتدال والانتظام والحركة والسّكون؛ فهي لا تكون إلّا من مدبّر أمر الخلق، والقاعدة تقول:

كلّ الخلائق خُلقت على قانون

الكون من الخلائق

إذا الكون خُلق على قانون

ولأنّ الكون خُلق على قانون. إذا؛ فمن الذي خلق القانون الذي تأسّس خلق الكون عليه؟

وإذا رجعنا إلى قول عالم الفيزياء روبرت جاسترو: "إنّ البذرة التي تَشكَّل عنها كلّ ما في الكون، كانت قد زُرعت في تلك اللحظة الأولى، وكلّ مخلوق حي في الكون جاء للوجود نتيجة الأحداث التي تمّ تعيينها في لحظة الانفجار الكوني"[11]، وبالعودة إلى قول العالم جاسترو، نعرف أنّ تلك البذرة قد زُرعت في تلك اللحظة،

[11] Dinesh D'Souza, What's So Great about Christianity,(Regnery Publishing, Inc, 2007) p118

ولكن بما أنّه قد أعترف بزراعة تلك البذرة، إذا؛ فقد اعترف بوجود البذرة قبل زراعتها، ومن هنا أتساءل:

ـ من الذي أوجد البذرة، ومن أين أوجدها؟

ـ من الذي زرعها، وأين زرعها، ومتى زرعت؟

ـ من الذي شاهدها بذرة قبل انفجارها ليصفها لنا يقينا بأنّها بذرة؟

ـ ومن الذي يعلم الأسرار العظيمة لفك اللغز؟

أقول: القول السابق على كلّ قول: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[12]، والبديع هو السّابق على كلّ سابق، وهو الذي يعلم أسرار إبداعه؛ فيعلم ما لا نعلم، {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[13].

إنَّ هذا القول الذي اقتبسناه جاء داعما لتساؤلاتنا، لأنّه القول السّابق على ما جاء به الفيزيائيون من أقوال واستنتاجات، وبذلك لو قرأ الفيزيائيون قول الله تعالى لعرفوا عمّ يتسألون، {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[14]، كلّ هذه الآيات نزلت قبل بلوغ علم الفيزياء معرفة نظرية الانفجار العظيم التي أبهرت الفيزيائيين بعظمة خلق الكون،

---

[12] البقرة 117.
[13] الحج 70.
[14] النبأ 1-12.

حتى اعتقدوا أنَّ الكون خُلق من لاشيء، فهم لو اضطلعوا على قول الله، لعرفوا أنّ الكون مخلوق وأن وراء كلّ مخلوق خالق.

وحتّى لا يأخذنا تحيّز بلا حُجّة، أتساءل:

أيّهما أسبق التوراة والإنجيل والقرآن، أم نظريات النسبية والجاذبية والانفجار العظيم؟

فمن حيث الزّمن، الفارق كبير، ومن حيث الحُجج المنزّل أعظم، إذا؛ فلماذا لا يقرأ الفيزيائيون المنزّل، ثم يبحثوا ويقارنوا بموضوعية ويكتبوا ما يتوصّلون إليه من نتائج علمية، والتي لا شكّ أنّها ستكون نتائج مبهرة عند اكتشافها. {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}[15]، السير هنا جاء بغاية الاستكشاف وزيادة المعرفة، أي: ابحثوا عن ما أعلمتكم به من غيب حتى تعرفوا الأسرار في الأرض والسّماء، وتكتشفوا قوانينها، ومن ثمّ، تتيقّنوا الحقّ، {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ}[16].

ولذلك، نزل قوله: (انظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، بدلالة التمعّن فيما تنظرون إليه من عجائب، والنّظر إلى العجائب يستوجب التفكير في الكيفية التي بها خُلقت العجائب، {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[17]، أي: يا بني آدم، لا تستوقفوا عقولكم عند المشاهد، بل مدّوا نظركم إلى الكيفية التي عليها وبها خلقت

---

[15] العنكبوت 20.
[16] الحج 54.
[17] الغاشية 17-18.

الأشياء؛ فالنّظر إلى الإبل والسّماء والجبال والأرض ضرورة، لكن الأعظم من ذلك النّظر إلى الكيفية التي بها خُلقت الإبل، والكيفية التي بها رُفعت السّماء، والكيفية التي بها نصبت الجبال، وسُطحت الأرض.

هذه الآيات أنزلت بلغة التعجّب (أفلا ينظرون) ، فلو نظر بنو آدم لعرفوا، ولو عرفوا لتدبّروا، ولأنّهم لم ينظروا؛ فلن يتذكّروا ما يعظهم، ولن يتدبّروا ما يفيد أمرهم، ولن يفكّروا فيما يجب، وهذه من الغرائب والعجائب.

الانبهار العظيم:

عَرَفَ علماء الفيزياء نظرية الانفجار العظيم التي بها تفحّصوا الكون من ذرة إلى انفجار على سرعة متزايدة في التمدّد، وفي توغُلهم بحثا وصلوا إلى نتيجة مفادها: لا خالق وراء ما خُلق، ولكن الطبيعة تخلق العجائب.

هذه النتيجة أصبحت بين أيدي البحاث تحت المراجعة والتقصّي الدّقيق بهدف معرفة نتائج تتجاوز الشكوك التي تحول بينها وبين إطلاق حكمها. ونحن فإن انطلقنا من هذه النتيجة افتراضا؛ فلا بدّ أن نكون في حاجة لكشف معطياتها أمام الفرض البحثي: (إذا كان وراء كلّ بحث علمي باحث؛ فكيف لا يكون وراء كلّ مخلوق خالق)، أي: إذا كان البحث العلمي لا ينجز ولا يتحقّق إلّا بباحث، فكيف بإيجاد خَلقٍ بلا خالق؟

ومن هنا، وجب تقصي عملية الخلق، انطلاقا من أنفسنا، لنعرف سُلالتنا وممّا خُلقت، حتى نعرف أصل الكون الذي نحن جزء منه.

لأنّنا نرنو نحو نظرية خلق ونشوء وارتقاء من القرآن؛ فليس لنا بدّ إلّا الانطلاق من مسلّمات علمية، لنبرهن على هذا الفرض إثباتا أو نفيا. والمسلّمات العلمية التي لا خلاف عليها مع الفيزيائيين هي التي لا خلاف لهم فيها مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[18].

ولذا؛ فالفرض التساؤلي (إذا كان وراء كلّ بحث علمي باحث؛ فكيف لا يكون وراء كلّ مخلوق خالق)، يستوجب كشف العلاقة بين متغيراته وبين ما جاء في الآيتين السابقتين، اللتين تثبتا خلقنا وإنشاءنا، (ثمَ أنشأناه خلقا آخر) إنّه الخلق المتغيّر داخل سلالته، وليس المتبدّل عنها، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[19]

وبتتبع سلسلة خلق الإنسان؛ فقد كان مُضغة قبل أن يكون عظاما ولحما، وقبل أن يصبح خلقا تاما في أحسن تقويم.

والمضغة هي نتاج اندماج الحيوان المنوي مع البويضة، اندماجا يشكّل خلطة الدّم في مكون واحد يجمع بين الصّفات الوراثية للأب والأم.

ولسائل أن يسأل:

ومن أين جاءت هذه الصّفات؟

---

[18] المؤمنون 12 - 14.

[19] التين 4.

جاءت من ذلك التعلّق الذي تمّ بين النّطفة والبويضة؛ فلو لم يتمّ ما كانت المضغة، ولهذا؛ فالتعلّق بين النّطفة والبويضة كوّن العلقة.

والعلقة جاءت من النّطفة الممناة في ذلك القرار المكين (المكان المناسب والمهيأ للحمل)، {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى}[20].

وكذلك النّطفة جاءت من تلك السّلالة، السّلالة التي خُلق الإنسان منها في أحسن تقويم، والإنسان هنا هو: المخلوق خلقا (الإنسان الأوّل) حيث لا سابق لأب ولا أم.

والإنسان الأوّل، هو: الإنس بنوعيه (الذّكر والأنثى) آدم وزوجه، وهو المخلوق الأوّل، وفقا للقانون الزّوجي، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[21].

وعليه: فالخلق الأوّل خلق زوجي، سلالة من طين (آدم وزوجه)، أمّا الخلق من بعده؛ فخلق تزاوجي من نطفة، (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) والسلالة هنا، تدلّ على التميّز والجودة والخصوصيّة التي خُلق عليها الإنسان الأوّل (آدم وزوجه)، وهي السّلالة التي تمتدّ إلى نسله من بعده، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[22]، ومن هنا، يترسّخ مفهوم ودلالة خلق الإنسان في أحسن تقويم.

---

[20] القيامة 37.
[21] الذاريات 49.
[22] السجدة 8.

فخلق الإنسان لم يتوقّف عند ذلك الطّين الذي منه سلالته، بل يمتدّ إلى الأرض التي منها طينته، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[23]. أي: لو لم تكن الأرض طينة خلقنا فيها، ما خُلقنا منها، ولا أنبتنا منها نباتا.

وبما أنَّ عناصر تكويننا هي عناصر أرضية، إذا، لابدّ وأن يكون للأرض مصدر لعناصر تكوينها أيضا، ولذلك؛ من أين جاءت عناصر خلق الأرض؟

يقول الفيزيائيون: إنّها من ذلك الانفجار العظيم للكون؛ فلو لم يكن الكون ما كانت وما كنّا.

أمّا القول بخلق الكون نفسه من لاشيء، فهذا الأمر لا يُدرك إلّا من خارجه، وهو الأمر المستحيل؛ فنحن بنوآدم لا شكّ أنّنا نفكّر، ولكن تفكير عقولنا دائما في دائرة الممكن، ودائرة الممكن جزء متناهٍ في الصّغر داخل الكون، ولأنّ دائرة الممكن محاطة بالكون؛ فلا يمكن لها أن تدركه وفقا للقاعدة المنطقية (المحاط لا يدرك المحيط).

ولو كان الكون خالقا لنفسه، لكان كلّ مخلوق قادرا على خلق نفسه، ولا وجود للتكاثر الزّوجي الذي به خُلقت المخلوقات وتكاثرت.

وعليه:

إذا كانت الأرض هي التي فيها طينتنا التي نبتنا منها نباتا، ثمّ أصبحت الأرض لنا مكانا، إذا؛ فالأرض لو لم يكن لها مكان سابق عليها ما ظهرت للمشاهدة كما هي في فلكها تسبح، ووفقا لهذه

[23] نوح 17.

المعطية؛ فلا يمكن للكون أن يكون لو لم يكن له مكان يتمدّد فيه ويسبح؟

ومن ثمّ، أصبح بين أيدينا تساؤلا:

هل يمكن للكون أن يتمدّد إن لم يكن له مكانا يتمدّد فيه؟

ولأنّ للكون إثبات مستمرّ في تمدّده وبسرعة هائلة، ألا يعني ذلك أنّ مكان تمدّده فسيح إلى النّهاية، أي: ألا يعني ذلك أنّ الكون بعظمته هو أصغر بكثير من عظمة المكان المتمدّد فيه؟

وإن تمّ اكتشاف ذلك، فإنّ المكتشفين سيدركون أنّ بداية الخلق بعيدة جدا، وبخاصّة إن اكتشفوا حيّزا أعظم وراء ذلك الحيّز الذي يتمدّد فيه الكون، وهذا الأمر يدعوهم إلى مزيد من التوغل حتى يبلغوا معرفةً أنَّ الأشياء المخلوقة لابدّ وأن تتولّد من بعضها البعض، وتتناسل من بعضها البعض بقوّة خارجة عنها، انطلاقا من أنّ (المخلوق لا يمكن أن يخلق نفسه) ومن ثم؛ فإنَّ تتبّع استمداد الشيء من الشيء المستمدّ منه، أو المخلوق من المخلوق منه يعدّ الطريق العلمي الممكّن من معرفة الخالق عن بيّنة وعلم تامّ.

إذا؛ فمتى ما بلغ العلماء هذه الحقيقة، بلغوا المعرفة التامّة (أنَّ وراء كلّ مخلوق خالق)، وهي التي من بعدها يدركوا أنّ: (الخالق يرى ما خلق والمخلوق لا يمكن أن يرى خالقه) ولذلك؛ فنحن بنوآدم نرى المخلوقات الظاهرة للمشاهدة، ومن بعدها نرى ما نخلقه منها (نرى كلّ ما نصنعه بأيدينا) وما نصنعه بأيدينا لا يمكن له أن يرانا؛ فهكذا نحن المخلوقين في هذه الحياة الدّنيا (نرى ما خلقنا بأيدينا ولا

يمكن لنا رؤية خالقنا) فنحن ندرك بما أنّنا مخلوقين؛ فلا بدّ أن يكون من ورائنا خالق أعظم منا.

ومن يدرك أنّه مخلوق، وبإمكانه أن يخلق شيئا ممّا خُلق؛ فهو بإمكانه أن يدرك أنّه لم يكن الخالق الأوّل؛ فالأوّل لابدّ أن يكون هوا المُبدئ، الذي لا تكون البداية به، بل البداية منه، ومن ثمّ؛ فمن تكون البداية بيده، لابدّ أنّ تكون النّهاية بيده، سواء أكانت نهاية الحياة، أم نهاية الموت، {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ}[24].

ولأنَّ علماء الفيزياء والفلك لم ينفكّوا عن البحث داخل المحيط الكوني؛ فجهودهم البحثية ستظل بين اكتشاف، وعجز، وتطوير، وتأكيد، وإبطال، وتصويب، وإضافة. ولأنّهم كذلك، فهم لا يزالون في مرحلة العلم القليل، وسيظلون هكذا بأسباب مقدرتهم العقلية التي لا يمكنها تجاوز دائرة الممكن، وبذلك لن يدركوا العلم الواسع، الذي يعلمه من جعل سعة عقولهم محدودة ولا إطلاق فيها، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[25].

ولذلك؛ فالمتعلّم أو طالب العلم علمه أقل من مؤتي العلم. ولأنّ العلم يؤتى، فلابدّ من مؤتي له، ومؤتي العلم لابدّ أن يكون عليما، والعليم علمه يحيط كلّ شيء ولا يحوطه شيء.

التمدّد الكوني:

عرف علماء الفيزياء أنّ الكون يتمدّد بأسباب الانفجار العظيم، الذي حدث قبل أربعة عشر مليارا من السّنين، ثمّ عرفوا أنّ هذه العملية

[24] البرج 13.
[25] الإسراء 85.

آخذة في التسارع، ويعزي العلماء هذا التزايد إلى المادّة المظلمة، وباستمرار التمدّد سيتحوّل الكون في النّهاية إلى جليد[26].

وبما أنّ عملية التمدّد الكوني آخذة في التّسارع، ألا يكون هذا التّسارع في اتجاه جاذبية مغرية للتمدّد؟ ثمّ، ألا يكون هذا التمدّد المتسارع هو لتمكين الكون من أكوان أخرى في علمٍ نجهله؟ أم أنّ الكون يتمدّد متسارعا في جميع الاتجاهات انطلاقا من أنّ لكلّ بداية نهاية؟

ولأنّه لا تمدّد إلّا لغاية، إذا؛ فمن الذي يعلم تلك الغاية؟

يعلمها الذي يدركها قبل بلوغها؛ فهي لم تكن هدفا مشاهدا، بل هي ذلك المجرّد الذي يدرك ولا يشاهد، والغاية من التمدّد على مستوى الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يتمّ بلوغها بعد إنجاز الأهداف وتحقيق الأغراض.

ولذا؛ فالغاية من التمدّد المطلق لا يعلمها إلا العليم المطلق؛ فمعرفة الغاية من تمدّد الكون هي متجاوزة لدائرة الممكن؛ فلا تدرك إلّا من خارجها (من قِبل من بيده العلم المطلق) الذي خلق ويخلق وسيخلق، {وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}[27] .

يفهم من هذه الآية: أنّ ما اكتشفه علماء الفيزياء من تمدّد كوني، لا مفاجئة فيه لمن يعلم أنّ صفة الخالق هي الخلق بلا انقطاع؛ فهو الذي خلق الكون (السّماء والأرض)، وهو الذي خلق الأكوان (السّماوات والأرضين)، وهو الذي خلق التمدّد الكوني بلا انقطاع

[26] كولين رونان، الكون، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ، 1980م
[27] الذاريات 47.

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) وهو الذي بيده نهاية الكون {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[28].

فعلماء الفلك والفيزياء وكذلك المؤمنون بالرّغم من خلافهم على خَلقِ الكون، لكنّهم يتّفقون على أنّه لم يعدّ بعد بلوغ الغايات إلّا النّهاية، وبخاصّة الذين أطلقوا اسم (The Dark Matter) المادّة المعتمة، وهم يفترضون أنّ المادّة المعتمة والطّاقة المعتمة تشكّل ما بين 95% إلى 99% من كتلة الكون، وبالتالي؛ فالكون سيتمدّد إلى أن يصل إلى مرحلة يبدأ عندها بالانهيار حتى ينتهي متراجعا إلى تلك الذّرة، وهي الحالة التي كان عليها قبل حدوث الانفجار العظيم[29].

ومن يقرأ نظرية الانفجار العظيم يجد نفسه في حيرة أيهما يقبل: (أنّ الكون خلق نفسه من لا شيء)، أم: (أنّ وراء الكون ذرة ومن ورائها خالق)؟

فإن قَبِل بأسبقية الذّرة على الانفجار الكوني؛ فقد قبل بوجود سابق على وجود الكون. أمّا إذا قَبِل (أنّ الكون خلق نفسه من لاشيء) فلابدّ أن يقبل بانعدام علاقة الكون مع تلك الذرة.

وبما أنّ الإجماع الفيزيائي يقرّ بأسبقية وجود الذّرة، ويقرّ بانفجارها كونا، إذا؛ فكيف للكون بخلق نفسه من لاشيء؟ أي: كيف للعقل أن

---

[28] الأنبياء 104.

[29] Universe 101: Big Bang Theory. NASA. Archived from the original on 14 May 2011

يقبل أنَّ: (أصل الكون ذرة)، وفي ذات الوقت يقبل أنّ: (الكون خُلق من لاشيء)؟

ومع أنّ الإجماع الفيزيائي قد أقرّ بأنّ: (أصل الكون ذرة)، لكنّه لا يزال يجهل أسرارها، ولأنّه يجهل أسرارها؛ فقد قرّر قطع العلاقة معها، وذلك باتخاذه قرار (خلق الكون من لاشيء).

ومع أنَّ علماء الفيزياء أقروا وجود تلك الذّرة التي تختلف عن الكون وجودا، لكنّهم عاجزون عن وصفها، وعن التوقّف عندها، كونها أصبحت في خبر كان قبل أن يشاهدوها ذرة.

ولأنّ المنطق العلمي يقول: (الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه)، إذا؛ فأين الكون من هذا المنطق؟ قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[30]. أي: حتى لا يضيع وقتكم حيرة ولا غموض؛ فالكون يا بني آدم قد خُلق خلقا. وعليكم بمعرفة الخالق، وحتى لا تضيعوا في تيهٍ: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}[31]. وقال: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[32] .

وأفاد علماء أمريكيون بأن العالم سينتهي بعد 22 مليار عام بسبب انفجار كوني يعرف بالتمزّق الكبير (Big Rip)؛ فهذه النّظرية الفيزيائية ترى أنّ الكون سيتوسّع أكثر فأكثر إلى أن يتمزّق ويختفي كلّ ما فيه، ولا يبقى شيء. وهناك نظرية تعرف بـ(التجمّد الكبير)

---

[30] الأنغام 73.
[31] يونس 3.
[32] الأنبياء 33.

ترى: إنّ الكون سيتوسّع أكثر لدرجة انتهاء كلّ الغازات التي تسمح بتكوّن النّجوم، ممّا يؤدّي إلي توقّف الزّمن وهي النّهاية[33].

ولأنّ لكلّ شيء أجلا، فلا بداية إلّا والنّهاية تلاحقها، {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى}[34]؛ فالأجل المسمّى هو: زمن خلق السّماوات والأرض، وهذا يعني: أنّ الزّمن المسمّى له بداية ونهاية أي: أنّ السّماوات والأرض كانت لها هيئات في علم الخلق قبل أن تخلق، وكذلك عمرها كان في علمه قبل أن تخلق، ثمَّ خُلقت، وستظل إلى النّهاية، وهذا يعني: أنّ معرفة أجلها عند الخالق سابق على خلقها، ممّا يجعل الأجل المسمّى هو الفترة الزّمنية المحدّدة للبقاء.

ولأنّ الأجل هو: فترة من الزّمن، إذا؛ فلابدّ أن يكون للأجل بداية معلومة، ونهاية معلومة. وهذا بالتمام ينطبق على الكون الذي هو الآخر له بداية ونهاية.

وبما أنّ خالق السّماوات والأرض (الأكوان) قال: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[35]. إذا، فنهاية الكون لم تعدّ مجهولة، ولكن متي ستكون ساعة النّهاية؟ {يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}[36] .

---

[33] Krauss, L.M.A universe from nothing: why there is something rather than nothing. Simon and Schuster, 2012.

[34] الأحقاف 3.

[35] الأنبياء 104.

[36] الأحزاب 63.

وبما أنّ للكون بداية ونهاية، إذا، فلا يمكن أن يكون الكون خارج الزّمن.

ولذا؛ فمن يعلم الزّمن السّابق للخلق، لا شكّ أنّه العليم بأجله اللّاحق (النّهاية)، وهذه طبيعة الخلق، (حياة، موت، إحياء)، ذلك لأنّ الحياة الدّنيا بعظمتها لا تزيد عن كونها دُنيا، والدّنيا في مقابل العليا (الآخرة)؛ فلا تقارن، ولأنّهما الحياتان؛ فالنّهاية تكون بينهما شاهدا. {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[37] . تحمل هذه الآية مفهوما ودلالة تساؤلية: (هل هناك من بدأ الخلق منكم أيّها الخلائق)؟ ولأنّه لا إجابة (لا حجّة) قال: (ثمّ يعيده) بمعنى: إذا لم يكن من لا يسلّم بذلك ولا يؤمن، إذا؛ فمن الذي خلق الموت الذي يميت الأحياء في هذه الدّنيا؟

ولأنّه لا إجابة، والخلق ليس بأيديكم، والموت ليس بأيديكم، فلماذا الاستغراب من بعث حياة ثانية؟ وأيّهما أهون: بداية الخلق من لا شيء، أم خلقه من شيء أنتم ستكونون من رفاقه؟

هكذا هو الوجود بداية، ثمّ الحياة، ثمّ الموت، وهكذا ستظلّ الحياة من البداية إلى النّهاية حتى ينتهي الكون الذي نحن جزء منه وبصدد التعرّف عليه، ومن ثمّ، فتقوم الحياة الآخرة بانكماش كوني، أو انفجار أكثر عظمة من الانفجار الأوّل، أو رتق عظيم.

ولذلك، كان الانفجار العظيم أو الانفتاق العظيم لكوننا بداية الوجود الحي، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[38]، وسيكون

---

[37] الروم 27.

[38] الأنبياء 30.

الانفجار العظيم نهايته، وبداية حياة أعظم، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[39].

ومن كلّ ما تقدّم، نلاحظ أنَّ الفيزيائيين وعلماء الفلك مثلما عرفوا أنّ للكون بداية، عرفوا إنّ للكون نهاية، {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[40]، ومع أنّ الإجابة قرآن أُنزِلت آياته سابقة على تفسيراتهم للكون، لكنّهم بحثوا فعرفوا، وهذه معرفة واعية، غير أنّ الإساءة للمعرفة الواعية، أنّهم لم يعوا بعد أنّه لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق، {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}[41].

ولكن إن سلّم البعض: (أنّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له)؛ فكيف خَلق الكون نفسه؟ وممّ خلقها؟

وكما يقولون: المعنى في بطن الشّاعر، فكذلك أقول: الإجابة على السؤال: كيف خَلق الكون نفسه من لاشيء؟ هي الإجابة التي لا يعلمها إلّا من خلق نفسه إن كان قد خلقها، ولكن إن لم يجب خالق نفسه؛ فمن سيكون الأولى بالإجابة؟ أم نكتفي بإجابة العالم الفيزيائي لورنس كراوس التي لا تخضع للقياس ولا التجريب، وبخاصّة أنّه يعترف بغموض تلك المادّة والطّاقة المعتمة التي لازالت بالنَسبة له مجهولة وهي تشكل 99% تقريبا من كتلة الكون؟

---

[39] العنكبوت 20.
[40] يونس 4.
[41] الأنعام 1.

أم يجب أن لا نغفل عن قوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}[42].

أمّا ممّ خَلق الكون؟ فيقول العالم لورنس: إنّه خُلق من لاشيء، ولا خالق له.

ولكن بما أنّه قال: (خُلق الكون من لاشيء) إذا، فحتى وإن خُلق افتراضا من لا شيء، فهو المخلوق. وإذا سلمنا بأنّ الكون خُلق من لا شيء؛ فهل يحقّ لنا أن نقول: الكون لاشيء؟

وإذا كان اللاشيء ضرورة لخلق الكون، ألا يكون ضرورة دائمة لخلق الأكوان؟

وهل الكون مادّة وطاقة غير المادّة والطّاقة التي نعلمها؟ أم هكذا هي الإجابة كون من لاشيء. وإذا أخذنا بهذه الإجابة افتراضا؛ فالسؤال:

ومن الذي خلق اللاشيء الذي خلق الكون نفسه منه؟ وفي المقابل إذا كانت مادّة خلق الكون مستقلة عنه؛ فكيف كان كونا بدونها؟ أي: عندما يقال الكون خلق نفسه من لاشيء، يفهم من هذا القول: كأنّ هناك شيئين: مادة صالحة لخلق الكون، وهذا شيء، وإنّ هناك مقدرة خلقية، وهذا شيء آخر، ولكن بما أنّ هناك مقدرة ومادّة صالحة للخلق، وكلاهما مستقل عن الآخر، ألا يكون هذا دليل كافٍ على وجود خالق يسبق خلقهما؟ {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[43].

---

[42] الأعراف 54.

[43] المعارج 41.

وبالرّغم من مشادّات وملاحظات علماء الفيزياء، وحكمهم على أنّ الكون خلق نفسه من لاشيء، لكنّهم في حقيقة الأمر أصدروا هذا الحكم وهم في قلب الكون وليس من خارجه، وهذا بالتمام مثل: الكائن الذي لا يعيش إلّا في وسط التراب ولم يخرج لحظة منه؛ فكيف له بوصف الأرض وهو لم يرها مطلقا؟

وتحضرني في ذلك قصّة ذلك الكتكوت الذي في بطن البيضة قبل أن تفقِسَ ويخرج، حيث، احتضنت الدّجاجة بيضها بالدّفء لتغرس في نفوس فراخها حنان الأمومة الذي يملؤها من احتضان أمّها لها في الزّمن الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدّجاجة الحاضنة بأنّ غدا ينتظرهم بخيرات كثيرة وستتنقل الكتاكيت بقوائمها في البستان تحت ظلال الأشجار نهارا وتنام على أغصانها ليلاً، فسأل أحد الكتاكيت أمّه: هل هناك كون أوسع وأفضل من الكون الذي نحن نعيش فيه؟

نعم.

وما هو؟

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى، وفي وسط الحظائر والبساتين تقدّم لكم الخدمة من أيدي البشر المفضّلين عليكم في الخلق.

إنّه من الصّعب التصديق يا أمّي أنّ المفضّلين علينا هم الذين سيقدّمون لنا الخدمة.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفّرون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء؟

ولكن يصعب علينا التصديق بما أنّنا لا نراك وإياهم.

إنّكم سترون غداً بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشّمس والقمر والنّجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويّا ومن يمشي مُكباً على وجهه، وستميّزون بين الطّائر والزّاحف كما تميّزون بين اليابسة والماء، بعدها ستعرفون أنّ ما قلته لكم هو الحقّ.

نحن لا نصدّق ما تقولين، ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدّعين بأنّه أوسع من كوننا الذي يملؤنا استقرارا كما تملؤنا الرّاحة والطمأنينة فيه.

أنتم وكونكم الذي تعتقدون باتساعه كلّكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لم أشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا الثّعلب؟

عدوي وعدوكم.

بما أنّ الأمر هكذا، إذا يبدو أنّكِ مصرّة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي، ولكن عليكم أن تعرفوا أنّ لكلّ بداية نهاية، حياتكم داخل البيض لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكلّ أسباب، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا، نحن لن نخرج حتى لا نكون تحت رحمة الثّعالب، وتكون لنا النّهاية، ونحن على يقين أنّه لا يمكن أنّ يوجد كون أوسع وأفضل من الكون الذي نعيش فيه.

سيأتي غدٌ وخروجكم سيأتي إلّا إذا وقعت لن.

وما هو سرّ لن هذه؟

أن تموتوا داخل البيض، أو أنَّ غداً لن يأتي علىّ وعليكم، أو يحدث عالم الغيب أمراً.

في الفجر صاح الدّيك كعادته؛ فاستمعت الفراخ في كونها إلى صوته؛ فتساءلت:

وما هذا الصّوت المدوي يا أمّنا؟

صوت أبيكم، يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلى الحياة العامّة، ليراكم بأمِّ عينيه تأكلون الحبَّ، وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو، وسأفرح أنا مثله.

إنّه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من الكون الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بالقوّة لا بالإرادة.

سنصرخ ونبكي.

الصّراخ والبكاء لا يوقفان قدوم المستقبل، وصراخكم هذا سيكون سبب تكسير البيض الذي يخرجكم من قلب كونكم إلى كوننا.

صراخ... صراخ.... يكسّر البيض من شدّة الصّراخ، ما هذا النّور؟

وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذا الليل الطويل؟ ومن ذا الذي يقدّم لنا الخدمة، ويسهر على راحتنا؟

صدقتي يا أمّنا صدّقنا، ولكن أين الغداء؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن، كيف يؤخذ؟

افعلوا مثل ما أفعل، اضربوا مناقيركم في الأرض؛ فأنا لا أرضع.

صدّقي يا أمّنا لا أحد منّا كان يصدّق أنْ يوجد كون أوسع من الكون الذي كنّا نعتقد أنّه الكون الواسع.

أنظروا إلى أعلى.

وما تلك يا أمّنا؟

الشّمس.

هل هي كون آخر، مثل هذا الكون الذي نحن عليه؟

لا. بل، الشّمس جزء بسيط في هذا الكون، وإذا ما قُورن حجمها بأحجامكم عندما كنتم وسط أكوانكم البيضاء لظهرت في كونها أصغر منكم بكثير.

يا إلهي، كنّا نعتقد لا كون ألّا ذلك الكون، واليوم الأكوان تتعدّد، ولكلّ بداية نهاية.

ومع إنّكم كتاكيت وقد سلّمتم بتعدّد الأكوان، وأنَّ لكلّ بداية نهاية، لكن لا تستغربوا إنْ قلت لكم: إنَّ من بين من يقدِّم لكم الغداء والرّعاية لا يزال في حيرة من أمره، وأمر الكون، وأمر البداية والنّهاية.

يا ليتهم كانوا معنا في تلك الأكوان البيضاء، قبل أن نخرج منها فراخا؛ فلو كانوا معنا، لعرفوا أنّ اتساع هذا الكون، سيكون أصغر بكثير من الكون الذي سيخرجون إليه بالقوّة، ولن ينفعهم البكاء؛ فالبكاء لن يكون منقذا.

وما هذه الظلمة المعتمة التي حلّت بنا؟

إنّه الليل، خِلفة النّهار.

ومن أين جاء هذا الليل يا أمّنا؟

نحن نقول: جاء من الخالق، وهم يقولون جاء من تلك المادّة المظلمة الغالبة على مكونات الكون.

وما الفرق بيننا (هم، ونحن)؟

الفرق يا أبنائي: هم يثقون في عقولهم؛ فكانوا أكثر شيئا جدلا، وأمّا نحن؛ فنثق في قلوبنا؛ فكنّا (مسلّمين طائعين)، ولذلك نحن نسبّح للخالق طوال اليوم، وهم لا يسبحونه إلّا قليلا، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}[44].

[44] الإسراء 44.

إذن، هم حطب جهنّم. إلّا المصلّين المسبّحين، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ}[45].

وعليه: ألا يكون تمدّد الشّيء واللاشيء داخل الكون هو مثل تمدّد الكتكوت في البيضة حتى تنكسر، أم أنّ تمدّد الكون لا يكون سببا في كسر غلافه؟

وبما أنّ الكون يتمدّد متسارعا؛ فلا بدّ أن تكون الحياة مهدّدة بالفناء، ومتى ما استقرّ الكون على التوازن الحركي، اعتدل واستقرّ على البقاء، وبالتالي سيكون هذا الاستقرار على حساب نهاية ما هو كائن؛ فالخالق الذي خلق الحياة الدّنيا على التمدّد؛ يعلم أنّ هذا التمدّد ليس أمامه إلّا النّهاية، ممّا يجعل بين أيدينا نتيجة مفادها: (إنّ البقاء هو القاعدة، أمّا الفناء؛ فهو الاستثناء).

ولأنّ الكون بما فيه سينتهي لا محالة، إذا، مهما طال زمن البقاء؛ فلابدّ من النّهاية، والنّهاية ستكون: لحظة توقّف الكون عن التمدّد، وحينها يصبح: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}[46]. بمعنى: أنّ الفناء سيلحق المخلوق، ولا يلحق الخالق، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}[47]، ويبقى وجْهُ رَبكَ (هو كما هو) الخلّاق، الذي سيبعث خلقه كما يبعث كونه.

---

[45] النور 41.
[46] القصص 88.
[47] الرحمن 26 – 28.

ولأنّ صفة الخالق (الخلق)؛ فالخالق: (خلق، ويخلق، وسيخلق)، إنّه: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[48]، ولذلك؛ فخلقه يتعدّد ويتنوّع ويتمدّد إلى النّهاية التي هي من مشيئته، وهذا ما وقف عليه علماء الفلك والفيزياء من خلال نظرية الانفجار العظيم التي تؤكّد أنّ الكون في حالة تمدّد متسارعة تؤدّي بالضّرورة للانكماش والنّهاية.

خلق الأكوان:

خُلق الكون المتسارع في تمدّده، على قوّة الثنائية الموجبة والسّالبة، فكان تمدّده المتسارع معتدلا في كلّ الاتجاهات بالرّغم من القوّة والتضاد.

ولأنّ الكون خُلق على الثنائية، إذا؛ فقد خُلق للتكاثر المشاهد والملاحظ، ولكن كيف يُخلق الكون أحاديا والثنائية تملأ أحشاءه؟

وفقا للمنطق السّلالي، هذه الزّوجية تشير إلى عدم خلقه وحيدا، ومن هنا، بدأ علماء الفيزياء يطرحون فروضهم وتساؤلاتهم العلمية لإثبات ذلك أو نفيه.

وعلى ضوء تلك الفروض والتساؤلات عثر مجموعة من علماء الفيزياء الأمريكان على تفسير مناسب لتلك النقطة المعتمة المثيرة للدّهشة؛ فحسب هؤلاء العلماء أنّ هذه البقعة عبارة عن بصمة كون آخر تضغط على جدار عالمنا. ثمّ استنتجوا وجود الأكوان المتعدّدة والمختلفة والمتوازية. ووفقاً لنظرية الأكوان المتعدّدة، فكوننا يشبه فقاعة بجانب أكوان موازية شبيهة.

---

[48] البقرة 117.

وعلى نقيض نظرية العوالم المتعدّدة، نظرية الأوتار التي تفترض أنّ هذه الأكوان يمكنها أن تكون على اتصال مع بعضها البعض، وكذلك النّظرية تقول: إنَّ الجاذبية يمكنها التدفق بين هذه الأكوان المتوازية، وحينما تتفاعل هذه الأكوان؛ فإنّه ينشأ انفجار كبير مثل الذي خلق كوننا[49].

هذه المعطيات البحثية ترسّخ تلك الحقائق التي أُنزلت قرآنا، {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[50]؛ فلو لم يقل الله، (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا)، لاتّهم المؤمنون هؤلاء الفيزيائيين بالكفر أو الشّرك، ولأنّ قول الله سابق لاكتشافهم، فلا استغراب لما جاءوا به من اكتشاف، أي: لو لم تكن السّماوات (الأكوان) مخلوقة لما اكتشفوها، وهكذا، دائما بما أنّنا نكتشف؛ فإنّنا نعترف بأسبقية الخلق المكتشف على اكتشافه.

فسبع سموات طباقا، تعني: سبعة أكوان فوق بعضها البعض، {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[51] وسبعة أكوان (في كلّ كون أرض وسماء) تملأها النّجوم والمجرّات والطّاقة؛ أكوان منبسطة مثل انبساط كوننا الذي إن تماس معها حدث الانفجار وتكون النّهاية، {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[52].

---

[49] Michio kaku, parallel Worlds: A Journey Through Creation ,Higher Dimensions, and the Future of the cosmos , Double Day ,2004

[50] نوح 15.

[51] الطلاق 12.

[52] الروم 11.

التمدّد المُمكِن والمُطلق:

التمدّد سواء أكان ممكنا أم مطلقا، هو نتاج حركة مندفعة بقوّة طاردة، أو قوّة جاذبة، ولكلّ بداية نهاية، غير أنّ التمدّد وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا يكون إلّا وفق القوّة المحدودة.

أمّا التمدّد المطلق؛ فهو بيد الخالق الذي بيده الإرادة المطلقة، وهذا التمدّد لا مستحيل أمامه، بل كلّ شيء ممكن.

أمّا الممكن في دائرة النّسبيّة؛ فمنه المتوقّع الذي (بحدوثه لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب). ومنه غير المتوقّع الذي كلّما وقع أو حدث وُضِعت عليه علامة التعجّب والاستغراب.

ولذا؛ فالمطلق، دائما يتجاوز مدركات عقولنا، ومدى فهمنا، وطاقتنا واستعداداتنا؛ فنحن وما لنا من عقول محاطون بالكون المتّسع، ومن ثم؛ فلا يمكن لنا الإحاطة بمحيط يحيطنا، ولكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقع يمكننا معرفة ما يجري في كوننا، أمّا ما يجري خارجه؛ فلا نعلمه ولا نحوطه، ذلك لأنّ ما نحوطه، نستوعبه، وما يحوطنا يستوعبنا، وفي هذا الأمر يقول المنطق العلمي: (المحيط يستوعب المحاط، والمحاط لا يستوعب المحيط حتى وإن أدركه معرفة).

ولأنَّ الخالق يحوط المخلوق؛ فالمخلوق لابدّ أن يكون قاصرا أمام محيطه. ولذلك؛ فالمحاط دائما لن يكون خارج الإحاطة التي لا منفذ لها، ولا هروب منها إلّا التسليم؛ فعلى سبيل المثال: إذا سلّمنا أنّ الكون (خلق نفسه من لاشيء) فنجد أنفسنا كمن يصف سيول الأودية من غير أودية، ولكن إنْ سلم أحد بذلك؛ فأين خلق الكون

نفسه من لا شيء؟ ومن خلق له مكان خلقه لنفسه؟ ولهذا، ضربنا مثل السيول التي تجري في الوادي، بمعنى: هل مجرى الوادي أوجد نفسه؟ أم أنّ المياه المندفعة هي التي أوجدته؟ ولهذا، كيف يمكن للكون أن يكون، لو لم يكن له محيط؟ وكيف يمكن أن تجري مياه الوادي المندفعة، لو لم يكن لها مجرى يحوطها؟

وبتحليل مضمون: (الكون خلق نفسه من لاشيء) يُفهم، أنّه المخلوق، حتى وإن خلق نفسه كما يقولون؛ لأنَّ القاعدة المنطقية تقول: (الخالق أفضل من المخلوق) إذا، فالكون أفضل مِمّن؟

وكذلك، يُفهم من قولهم: (الكون خلق نفسه من لاشيء) بمعنى، وكأنّك تقول: (الكون خلق الكون)، وفي هذه الحالة كمن يقول: الماء خلق الماء، والطّائرة خلقت الطّائرة، والأرض خلقت الأرض، ولكن كيف للماء أن يخلق الماء، وكيف للأرض أن تخلق الأرض؟ ولذلك؛ فالخالق يخلق ما دونه، ولا ينسخ نفسه.

وعليه: مهما تكررت التساؤلات: (من خَلق الخالق؟) فدائما: (الخالق يَخلق ولا يُخلق).

ولأنّ صفة الكمال صفة الخالق، وصفة النقص صفة المخلوق، إذا؛ فكيف يقبل البعض بخلق الكون (القاصر) لنفسه من لاشيء؟

ولذا؛ فتمدّد الممكن بالنّسبة للمخلوق هو غير المستحيل وإن صَعب تحقيقه على البعض، أمّا تمدّد الممكن بالنّسبة للخالق؛ فهو الذي لا يتجاوز أمره، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[53].

[53] يس 82.

ولأنّ كلّ شيء ممكن بالقوّة المطلقة، إذا؛ فالممكن بالنّسبة للخالق هو السّابق على كينونة خلق ما يشاء، ومن هنا؛ فالممكن هو: انسجام القرار المطلق مع الإرادة المطلقة.

الانكماش الكوني:

مع أنّ بعض علماء الفيزياء يرى: أنّ (الكون خُلق من لا شيء ولا خالق له)، لكنّهم قالوا: سينتهي الكون عائدا إلى تلك الذّرة التي انفجرت، وفي المقابل هناك من يرى: (أن الكون أزلي الوجود) حيث لا بداية له ولا نهاية.

ولكن إذا سلّمنا افتراضا أنّ الكون قد خُلق من لاشيء، فلابدّ أن نسلّم ببداية خلقه لنفسه؛ والتسليم بخلقه نفسه من غير شيء، يستوجب التسليم بوجود فترة سابقة على خلقه، وهذا يعني: أنّ الكون لم يكن مخلوقا من قبل، ولكنّه أصبح مخلوقا بعد أن خلق نفسه.

وإذا أقررنا بذلك؛ فإنّنا نقر بوجود سابق على وجود الكون، ولكن إذا نفينا؛ فعلى من ينفي إعطاء الدّليل.

أمّا نحن فدليلنا، قولهم: (إنّ الكون قد خلق نفسه) وهذا القول يكفي لإثبات خلق الكون في الزّمان والمكان، أي : لو لم يكن الزّمان والمكان ما استطاع خلق نفسه؟

وبما أنّه خلق نفسه، إذا فهوا المخلوق خلقاً، وهذه تتعارض مع القاعدة المنطقية: (الخالق لا يخلق نفسه ولا يخلقه أحد) فالخالق يَخلق ولا يُخلق.

وإذا قبل البعض بخلق الكون لنفسه من لاشيء، فَلِمَ لا يخلق غيره، وهذا أيسر من الخلق النفسي؟ ولكن كونه يوصف بخالق نفسه، ولا يخلق ذبابة؛ فهل هذا بخالقٍ؟

ومع أنّ معظم علماء الفيزياء والفلك يقرّون بنهاية الكون، لكنّهم لم يقدّموا حُجّة تحدّد الزّمان والكيفية التي سينتهي بها الكون، أي: أنّهم لم يقدّموا حُجّة والشّك لا يلتصق فيها. وفي المقابل الحُجة تقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً}[54].

وعليه: سواء كما يعتقد البعض بخلق الكون من لاشيء، أم كما نعتقد بأنّ وراءه خالق؛ فنحن وإن لم نتّفق على الخالق؛ فإنّنا نقرّ بخلق الكون، والإقرار بخلق الكون هو في ذاته دليل يثبت أنّ للكون بداية، ولأنّ قاعدة المنطق العلمي تقول: (إنّ لكلّ بداية نهاية)، إذا؛ فلا بدّ من نهاية تطوي صفحات الكون، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[55].

ولأنّ نظرية الانفجار العظيم (Big Bang) تتمركز على أنّ الكون كان في حالة حرارة شديدة الكثافة فتمدّد، ثمّ بدأ يبرد بما يكفي لتكوين جسيمات كالبروتونات والنيترونات والإلكترونات، وأنّ سرعة تمدّد الكون ستنخفض تدريجيا بمرور الزّمن، وتتغلّب

[54] الأعراف 187.
[55] الأنبياء 104.

قوى الجاذبية المتبادلة بين مكونات الكون على القوى الطاردة للمادّة الكونية، وتعمل على جذبها إلى الداخل لتبدأ عملية انكماش الكون حتى يعود كما بدأ نواة كونية قد تنفجر من جديد[56]. {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[57].

ومن هنا، أقول: بما أنّ الكون نتاج ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة، التي لا يزال انفجارها في حالة تمدّد إلى أن يبرد وينكمش إلى حالته الأولى، إذن؛ فتلك الذّرة التي انفجرت هي: شيء في ذاته، ولأنّها الذّرة المنفجرة بذلك المعتم (اللاشيء)؛ فكيف لنا بوصفها شيئا وفي الوقت ذاته وصف ذلك المعتم الذي يملؤها بأنّه (اللاشيء).

إنَّ هذه النتيجة تؤدّي بنا إلى استبدال تلك الفريضة القائلة: (إنّ الشيء يستمدّ من لاشيء)، بالفرضية البديلة: (إنّ الشيء يستمدّ من الشيء)، ولمعرفة قوانين استمداد الشيء من الشيء علينا أن نميّز بين الخلق والنّشوء حتى نتبيّن العلاقة بينهما، وهذا ما سيأتي لاحقا.

وتقول نظرية الانفجار العظيم (Big Bang): إنّ الكون نشأ من كتلة واحدة، ثمّ انفجرت، وتباعدت أجزاؤها وتناثرت، ثمّ بدأت العناصر تتشكّل؛ فتشكلت النّجوم والمجرّات والكواكب حتى وصل الكون إلى ما نراه اليوم متمدّدا ومتسارعا.

---

[56] Universe. Will J. Percival el al. in Monthly Notices of the Royal Astronomical Society, Vol. 327 ,No .4 ,pages 1297-1306; November 2001

[57] الروم 11.

وعليه: فأنّ بحوث وآراء علماء الفيزياء لا تزال متباينة بين كون وأكوان، وبين تمدّد وانكماش؛ فهم لا يزالون في حيرة، وبالتّالي لا يمكن أخذ أحكامهم بالمطلق، بل ينبغي أخذها وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فألبرت أينشتاين يرى أنّ الكون يمرّ في دورات، وبعد تمدّده سيعود للانكماش حتى يصطدم مع نفسه محدثا تمدّدا آخر.

فنظرية الانكماش التي أخد صداها في فترة من الزّمن، أصبح شأنها يقل بعد اكتشاف تمدّد الكون في جميع الاتجاهات بقوّة متسارعة، ومع ذلك يتمّ الاتفاق معها من حيث: إنّ لكل بداية نهاية، ولكن كيفية النّهاية الكونية التي اختلف الفيزيائيون على زمنها وكيفيتها، ستظل غيبية، والأهم من ذلك أنّ الفيزيائيين أصبحوا متيقّنين بنهاية الكون وتجدّده، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[58]. وقال: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}[59]؛ فهذه الآية تؤكّد أنّ النّجوم لن تدوم إلى الأبد، بل سينفد وقودها، وتنخفض شدّة إضاءتها تدريجياً، وتنكمش حتى تنطمس كلّياً، {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ}[60]، وعند لحظة النّهاية؛ فلا الشّمس ولا النّجوم، {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[61].

إذا، بما أنّ لكلّ بداية نهاية، إذا، فلابدّ أن تطوى صفحة ذلك التمدّد الكوني كما تطوى الصّحف بعد انبساطها، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ

---

[58] الأنبياء 104.
[59] المرسلات 8- 9.
[60] التكاثر 1-2
[61] غافر 16.

السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ}[62]، وهذا الطي هو عودة إلى الأصل، كعَود الشّجرة إلى النّواة التي كانت تكمن فيها، لأنّ كلّ شجرة منتهية، ولكن هل ستنتهي الأشجار بعد موت كلّ ما نبت منها؟ في عالم الوجود الحي ستنتهي كلّ الأشجار الموجودة على قيد الحياة، وحسب أعمارها، وفي المقابل تنمو أشّجار أخرى منكمشة في نواها، ولكن عندما ينتهي الكون ستنتهي كلّ الأشجار كما ينتهي كلّ شيء.

ولهذا، لا تمدّد إلّا من انكماش، ولا انكماش إلّا لانبساط وتمدّد؛ فعلى سبيل المثال: النّهار لا يمكن أن يتمدّد إلّا إذا انكمش الليل، وكذلك الليل لا يتمدّد إلّا إذا انكمش النّهار، وقوّة انبساط اليد لا يمكن أن تتمّ إلّا إذا انتهت قوّة انكماشها، { وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ}[63].

ومع أنّ صعوبةً ترافق البحاث أثناء رحلتهم البحثية في أعماق الكون وتمدّده، لكن الأصعب بالنّسبة لهم هو: معرفة بداية الكون ونهايته بدقة.

ومن هنا، أتساءل: ألا يكون افتراض البحاث أنّهم سيتمكّنون من معرفة بداية خلق الكون ونهايته هو افتراض مؤدّاه الوقوف عند لحظة الخلق الكوني، أو معرفة الزّمن القبلي لخلقه؟ وفي المقابل ألا يكون هذا الافتراض في اتجاه معرفة نهاية الكون سيؤدّي بهم إلى معرفة ما بعده؟

---

[62] الأنبياء 104 .

[63] البقرة 245.

في كلا الحالتين: الأمر مستحيل، ومع أنّه مستحيل لكن، إن أخذنا بذلك افتراضا، ألا يكون فرضهم (معرفة بداية ونهاية خلق الكون) يحمل في مضمونه اعترافا أنّ الكون لم يخلق نفسه. بمعنى : لو كان خالقا لنفسه؛ فلن يجدوا له بداية، وإن وجدوها، يجدوا ما هو سابق على خلقه، أو من هو وراء خلقه، وهكذا إن عرفوا النّهاية الكونية؛ فإنّهم سيعرفون ما يحيط الكون أو من يحوطه.

وإلى جانب ذلك فإنْ عرفوا متى خُلق الكون، ومتى سينتهي؛ فهل سيعرفون الكيفية التي بها أو عليها خُلق الكون، والتي بها أو عليها سينتهي؟

نقول: فإنْ رأى البعض: أنّ ذلك مستحيلا؛ فالبعض: قد يراه ممكننا، ممّا يجعل الجدل سجالا بين البعض والبعض حتى يتبيّن الجميع حقيقة الإجابة الصّعبة، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً}[64].

ومن ثمّ؛ فإنّ أمر ساعة البداية والنّهاية الكونية لا يعلمها إلّا المحيط بأمر البداية الخلقية، وأمر النّهاية الوجودية، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا}[65].

وبناء على ما تقدّم: فهناك من يرى نهاية الكون تجمّدا، وهناك من يرى نهايته منفجرا، وهناك من يرى نهايته منكمشا، وآخرون لا يرون للكون نهاية.

---

[64] الأعراف 187.

[65] النازعات 42 - 44

ونحن نقول: كل متمدّد لا بدّ وأن ينكمش سواء أكان ماديّا، أم فكريا؛ فالأفكار في أساسها منكمشة في العقول ومخفيّة في الصدور، {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}[66]، ثم تتمدّد تلك الأفكار من خلال الاتصال، بالدّعوة والتنظير، والحوار والجدل؛ فالأفكار تتمدّد وتنتشر متى ما امتلكت قوّة الحجّة، ثمّ تعود إلى الانكماش مثل الكون عندما تفقد حجتها، وهكذا لكلّ بداية نهاية.

[66] غافر 19.

خلق اللاشيء

الخلق كيفية تجعل الأشياء على هيئاتها قبل أن تُخلق، ولذلك فخلق هيئة الشيء تسبق جعله شيئا، وهيئات الأشياء تأخذ في التناهي كبرا وصغرا، فما يظهر منها للمشاهدة والملاحظة الحسيّة يعدّ شيئا، وما يختفي عنها يعدّ لا شيئا.

وخَلقُ أللاشيء يدلّ على شيءٍ مختفٍ في ذاته أو محيطه، حيث لا صفة له سوى صفة الخلق التي هُيأت له خَلقاً وجُعل على هيئتها اللاشيئا. ولا يعدّ اللاشيء شيئا إلّا بعد معرفته واكتشافه.

أمّا الشيء برغم من أنّه قابل للمشاهدة والملاحظة، لكنّه لا يقتصر عليهما؛ فهناك من الأشياء ما لا يشاهد، {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ}[67]؛ فالكتاب مع أنّه يشاهد، لكن ما يحتويه الكتاب لا يشاهد، بل يُدرك إدراكا؛ فلو قلنا: الجهل شيء، نقول: التعلّم شيء آخر، وإذا قلنا: الحقّ شيء؛ فالباطل شيء آخر. وسيظل الجهل لاشيء حتى يتحقّق، وسيظل التعلّم لاشيء حتى يتحقّق. {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}[68]؛ فالساعة علم تحقّق كونها تعني شيء معلوم، وفي المقابل، لحظة قيامها تعني: لا شيء معلوم.

ولأنّ اللاشيء المتناهي في الدّقة يملأ الكون؛ فإن قورن مع الشّيء من حيث المساحات التي يشغلها من الكون، يصبح الشيء لا شيئا أمامه، ويكون اللاشيء هو الشيء العظيم، ولكن إن كانت المقارنة من حيث حجم المفردات الشيئية واللاشيئية؛ فلا شكّ تكون الغلبة

---

[67] النحل 89.

[68] لقمان 34.

للمفردات الشيئة الظاهرة حجما كالكواكب والنّجوم، وهكذا كلّ شيء في دائرة المقارنة النسبية يتبدّل ويتغيّر بين متوقّع وغير متوقّع.

فاللاشيء الذي يملأ الكون وجودا يعدّ مادّة خلق الأشياء؛ فتلك الأجسام المتناهية في الصّغر، لو جمّعت بقوّة الطّاقة والحركة الكونية، لكوّنت شيئا عظيم يمكن أن يكون بحجم نجم أو كوكب. ومن هنا، نستطيع القول: إنّ هذا الشيء المتولّد بالطّاقة الكونية، أصبح بإرادة المشيء له، شيئا، بعد إن كان لاشيئا.

ولذلك؛ فأللاشيء هو المهيأ لوجود الشيء، وفقا للهيئة التي هيأها له الخالق. ومن ثمّ؛ فوجود اللاشيء سابق على وجود الشيء.

ولأنَّ وراء كلّ مخلوق خالق، والشيء مخلوق، إذن؛ فمن ورائه خالق، وإلّا هل هناك من يظن كما ظنّ لورانس كراوس أنّ اللاشيء خُلق هو الآخر من لا شيء؟

أقول: بما أنّنا نصفه باللا شيء، إذن؛ فلا يمكن أن يكون خالقا؟ أي: لا بدّ أن يكون مخلوقا، وبما أنّ الشيء مخلوق من اللاشيء، واللاشيء من ورائه خالق، إذن لا بدّ أن يكون الشيء مخلوقا ومن ورائه خالق لم يسبقه خالق. {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[69].

إذن، اللاشيء لو لم يكن موجودا ما تحدثنا عنه، ولأنّه موجود؛ فهو قابل للنّفي والإثبات. وإلّا هل هناك من ينفي وجود شيء أو يثبته لو لم يعرفه ويعرف وجوده من عدمه؟

---

[69] الواقعة 60.

وبما أنّنا نتحدث عن اللاشيء؛ إذن، نتحدث عن شيء حتى وإن لم نتمكّن من رؤيته، ولكن ما الفرق بين اللاشيء والشيء؟

اللاشيء هو الذي بالرّغم من وجوده نجهله، وبتناهيه في الصّغر لا يخضع للمشاهدة العينية، ولكن إن حال بينه وبين معرفته جدار عاتم يمنع مرور الضّوء عبره لا يخفيه عن خالقه، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[70]. وفي المقابل الشيء نعلمه ونشاهده ونلاحظه وندركه.

ولأنّ اللاشيء لا يتولّد إلّا في دائرة المجهول؛ فسيظل هناك لاشيء، حتى لحظة اكتشافه التي من بعدها يصبح شيئا وإنْ كان متناه في الصّغر والدّقة.

فاللاشيء هو على غير صفة، فلو كان على صفة، لكان له مسمى، ولأنّه يفتقدها؛ فهو لا شيء. أمّا الشيء فله صفة ومسمى، مثل الأرض والشّمس والقمر، ومثل الكائنات والأدوات المشاهدة وغيرها من المتنوّع والمتعدّد.

وكما يتمدّد اللاشيء في دائرة المجهول نكرة؛ فكذلك الشيء يتمدّدا نكرة حتى يتمّ تمييزه، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ}[71]؛ فشيئا هنا ، تعني: المجهول والمعلوم حيث لا تحديد لشيء بعينه.

---

[70] آل عمران 5.

[71] البقرة 216.

أمّا اللاشيء، فيعدّ مادّة خلق الشيء أو طينته؛ الذي لو لم يكن مخلوقا، ما خُلق الشيء منه. {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[72]. فالإنسان كونه شيئا، كان لا شيئا، سوى وجود عناصر خلقه مبعثرة في تراب الأرض جنّة (عندما كانت مرتقة في السماء)، واللاشيء مثله مثل الشيء، لا بدّ وأن يشغل حيّزا، وإن كان الحيّز متناهٍ في الدّقة والصّغر ومبعثرا في التراب.

وعليه: وجب علينا تبيان ما يدلّ عليه مفهوم اللا شيء حتى لا يؤخذ عنّا ما أُخذ عن تنظيرات العالم الفيزيائي لورنس كراوس الذي قال: "إنّ الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له"[73]، أي: لاشيء يمكن أن يشار إليه بالشيء قبل خلق الكون من لاشيء.

أمّا نحن فأسّسنا تنظيراتنا وفقا لقانون الخلق: (لا مخلوق إلّا ومن ورائه خالق) حيث لاشيء إلّا ومن ورائه مشيء له، ممّا يجعل المشيئة سابقة على المشاء. ولذلك؛ فالمشيئة قرار مسبق على خلق شيء لم يسبق له أن كان شيئا.

غير أنّ العالم الفيزيائي كراوس يحاول أن يرسّخ نظريته (كون من لاشيء) بمفهوم: (خَلقُ الكون بلا خالق)، معتبرا أنّ الكون قد خُلق من لاشيء، ثمّ يرى من زاوية أخرى إنّ الكون كان نتيجة انفجار تلك الذرة المتناهية في الصّغر[74].

---

[72] مريم 9.

[73] A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012.

[74] المصدر السابق.

وإن سلّمنا بخلق الكون من لاشيء؛ فهل الكون خلق نفسه من لاشيء لحظة الانفجار، أم أنّ خلقه من لا شيء كان مترتّبا على ذلك الانفجار، أم أنّ خلقه من لاشيء كان مرتبطا بذلك المنفجر؟

وإذا سلمنا أنّ (الكون خُلق من لاشيء)؟ فهل خلق نفسه عن تدبّر أم هكذا عبثا؟ وإذا كان الانفجار سبب خلق الكون من لاشيء، فكيف يخلق من لاشيء، والانفجار شيء في ذاته؟ وهل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم تتوفّر أسبابه؟ وكذلك، هل يمكن أن يحدث الانفجار لو لم يتوفّر له مكان وزمان؟ وكيف يُقبل إنّ الكون قد خُلق من لاشيء وفي ذات الوقت يقال: إنّه المنفجر من شيء سابق عليه يسمي الذّرة؟

وإذا سلمنا أنّ ذلك المنفجر هو ما وُصِف بالذّرة أو النّقطة الصّغيرة؛ فكيف يصحُّ لبعض الفيزيائيين وصفها ذرّة وهم لم يتمكّنوا من معرفةٍ تمكّنهم من الوقوف عند اثرها، وبخاصّة أنّ لحظة الانفجار لا بدّ أن تكون فاصلة بين المنفجر وانفجاره وما سيترتّب عليه لاحقا؟

وبالرّغم من هذه التساؤلات والافتراضات لكن اكتشافات العالم الفيزيائي كراوس قد أحدثت نُقلة في علم الفيزياء وبخاصّة تعريفه لأللاشيء الذي لم يعدّ لا شيئا، كونه كما قال: "يعج بالجسيمات الافتراضية، التي تظهر وتختفي من الوجود في فترات زمنية غاية في الصّغر، لدرجة أنّه لا يمكن مشاهدتها"[75].

[75] المصدر السابق.

إنَّ قول كراوس: إنَّ اللاشيء لم يعدّ لا شيئا هو بحقّ إضافة معرفية لمعارفنا، لأنّ اللاشيء لو لم يكن شيئا، ما تحدثنا أو تساءلنا عنه، وإلّا هل يمكن لنا الحديث عن شيء لو لم يكن موجودا؟ بمعنى: لو لم يكن اللا شيء موجودا ما نفينا وجوده، ولهذا، فالقاعدة العلمية تقول: (نفي اللاشيء يثبت وجوده شيئا).

ومع ذلك؛ فأللاشيء يُعدّ المجهول المحيّر الذي تتوفّر معطيات وجوده وهو لا يتوفّر إلّا أثرا، ممّا يُحفّز البحاثة على صياغة فروض أو تساؤلات علمية تستند على ما يتوفّر من معلومات بهدف البحث عن الجزء المفقود منها؛ فالعالم كراوس انطلق من المشاهد الكوني إلى ما لم يكن مشاهدا؛ حتى اكتشف أشياء متناهية الصّغر والدّقة، ولا يمكن رؤيتها بالمشاهدة العينية، وعندما تقارن بالأشياء الظّاهرة للمشاهدة توصف بأنّها لاشيء.

فاللاشيء، لا يعدّ غير موجودٍ، بل يعدّ غير مكتشف، وغير مصنّف، ومع ذلك؛ فنحن مهما بلغنا من العلم نظل في حاجة للمزيد المعرفي حتى ندرك لا شيئا، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[76]،

وبما أنّنا لم نؤتَ من العلم إلّا قليلا، إذن؛ فما نجهله هو الأكثر؛ فيجب البحث والتقصي العلمي المُمكِّن من معرفة ما نجهله حتى يظهر اللا شيء للوجود شيئا معلوما.

إنَّ معرفة أللاشيء، لا يقتصر على ما يمكن مشاهدته بالمناظير الدّقيقة، بل يمتدّ إلى ما يكتشف أثره حتى وإن لم يخضع للمشاهدة، وفي هذا الأمر يقول كراوس: "بالرّغم من أنّنا لا نستطيع رصد

[76] الإسراء 85.

الجسيمات الافتراضية مباشرة، إلا أنّنا نستطيع قياس آثارها بشكل غير مباشر"[77].

ومن ثمّ؛ فاللاشيء، بالرّغم من وجوده؛ فهو المجهول معرفةً، ويوصف اللاشيء بهذه الصّفة اللاشيئية، لأنّه غير المميّز بخاصيّة منفردة، ممّا يجعل الشيء واللاشيء في موقع النكّرة حيث انتفاء أو غموض الصّفة والخاصيّة والنّوع.

ولأنَّ الاختلاف من أجل المعرفة الواعية ظاهرة موضوعية؛ أصدر العالم لورانس كرواس حُكما مطلقا بأنّ (الكون خُلق من لا شيء)، ولكن بهذا الحكم اختلف البعض معه، والبعض خالفه فيه مخالفة تامّة، وفي اعتقادنا الاختلاف والخلاف على الشيء لا يلغيه، بل يُثبته شيئا.

ولأنَّ اللا شيء يمثل 99% من كتلة الكون؛ فهل هذا اللاشيء هو مادّة خلق الكون التي خلق نفسه منها؟ أمّ أنّ اللاشيء هو ذلك الذي ليس له وجود؟

وحتى لا يعلق في الأذهان شكّ أو ظنّ فإنَّ ما يقصده لورانس كراوس، بقوله: (الكون خلق من لاشيء وبدون خالق) هو أنّ الكون قد أوجد نفسه من غير وجود سابق عليه.

ومع أنّ كراوس قد أصدر نظريته (كون من لاشيء)، لكن، كيف جاء هذا الكون العظيم من لاشيء؟ في الوقت الذي يقول فيه: "إنّنا نعيش في كون يسيطر عليه "اللاشيء". وأكبر طاقة في الكون،

[77] 'A Universe from Nothing: Why There Is Something Rather than Nothing' by Lawrence Krauss (Free Press; January 10, 2012

تشكل 70% من الطاقة الكونية، التي هي موجودة في الفضاء الخالي، ونحن لا نمتلك أيّة فكرة عن سبب وجودها هناك"[78].

ومن هنا، وجب فكّ اللبس والغموض الذي تثيره نظرية العالم الفيزيائي لورنس كراوس بقوله: "(إنّنا نعيش في كون يسيطر عليه اللاشيء)، وفي ذات الوقت يقول: (خُلق الكون من لا شيء)، ثمّ يقول: (لا يَعدّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لا شيئا)"[79].

إذا كان اللاشيء يسيطر على الكون؛ واللاشيء هنا هو المكتشف الذي تعرّف عليه كراوس، والذي قال عنه: (لا يَعدّ في علم الفيزياء اللاشيء بعد الآن لاشيئا) فكيف لنا بقبول ذلك، وهو قد أسّس نظريته على قاعدة: (كون من لا شيء)؟

فالكون إذا خُلق من لا شيء، لا يمكن أن يسيطر عليه اللاشيء، وفي هذا الأمر كمن يقول: خُلق الإنسان من تراب والتراب يسيطر عليه؛ فالإنسان لو سيطر عليه التراب لكان الإنسان جدارا.

ومع أنّ نظرية كراوس تأسّست على: (كون من لاشيء) لكنّها تتحدث عن الشيءِ (الكون) المملوء بالأشياء (دقيقها وعظيمها)، وهي التي لا ترى خالق للكون.

فإذا سلّمنا بهذه المقولات المتناقضة؛ فإنّنا كمن يقول: خُلقت تلك الذّرة من تلك الذّرة، وخُلقت الأرض من الأرض، وخُلقت السّماء من السّماء، وخُلق الماء من الماء، وخُلق الإنسان من الإنسان!

---

[78] المصدر السابق.

[79] المصدر السابق.

إنّ خلق الكون من لاشيء وفقا لتعريف كراوس؛ يعني: أنّه خُلق من شيء متناهٍ في الدّقة، وقد ترك أثرا. ولكن إذا أجزنا هذا؛ فمن أين جاء ذلك اللاشيء المتناهي في الدّقة؟ أي: فمن أين خُلق ذلك الشيء السّابق على خلق الكون والذي يملأه لاشيئا؟

فنقول: يعدّ اللاشيء ما نجهله ونسعى لمعرفته، واكتشاف أسراره، وسيظل أمره محيّرا للباحثين حتى يتمّ اكتشافه، وتقصّي الحقائق المخفيّة وراءه، ومعرفتها عن بيّنة. من أجل إضافة شيءٍ جديدٍ لمعرفة اللاشيء الذي يملأ الكون ظلمة وعتمة.

أمّا قول كراوس: "إنّ معرفة الجواب لا تعني شيئاً، ولكن اختبار المعرفة يعني كلّ شيء"[80]. فأمره جدلي، كونه لا يرتبط بمسلّمة علمية؛ فبتحليل مفهوم المقولة: (معرفة الجواب لا تعني شيئا) نعرف أنّ المفهوم المقابل لها هو: (عدم معرفة الجواب تعني شيء)، ونحن نرى أنّ الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر، ذلك لأنّ الجواب يتمدّد في دائرة الممكن في الحيّز (من..... إلى) ممّا يجعل (من) الطّرف المرسل للإجابة وهو: الذي يعرفها، ويجعل من الطّرف (إلى) اتجاه الهدف أو الطّرف المستقبل للإجابة وهو: الذي يجهلها، وفي كلا الحالتين: الجواب شيء، ومعرفته شيء آخر، ولكن من حيث الأهمية: الذي تتوفّر لديه معرفة الإجابة مسبقا، فلن يضاف إليه شيء لكونه مصدر المعرفة، وفي المقابل الذي عرف الإجابة بعد أن كان يجهلها؛ فقد عرف شيئا جديدا. وبالتّالي فالطّرف الذي يعرف الإجابة، لن يعرف شيئا جديدا، ممّا يجعل

[80] المصدر السابق.

محصّلته (لاشيء)؛ أمّا الذي لم يكن يعرفها ثمّ تحصّل عليها فقد عرف شيئا.

وفي كلا الحالتين السابقتين، التوقّف عند حدّ معرفة الجواب؛ يعني: (اللاشيء)، ولكن الذي يعني شيء هو: معرفة الشيء في ذاته، وكيف خُلق ذلك الشيء، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[81]، يفهم من هذه الآيات عدم وجوبية التوقّف عند حدّ خلق الأشياء التي منها: (الإبل والسّماء والجبال والأرض)، فمع أنّ هذه المخلوقات أشياء عظيمة، لكن الشيء الأعظم، هو: معرفة الكيفية التي عليها خُلقت الإبل، والكيفية التي بها رفعت السّماء، والكيفية التي بها نصبت الجبال، والكيفية التي بها سُطحت الأرض؛ فهذه الكيفيات الخلقية تستوجب الانتقال معرفيا من الشيء المشاهد (الصورة) إلى الكيفية التي بها وعليها خُلقت الأشياء. ومن ثمّ، تصبح معرفة الشيء أيسر بكثير من معرفة الكيفية (اللاشيء).

ومع أنّ معرفة اللاشيء عظيمة، لكن معرفة الشيء ضرورة ذات أهمية عالية، لأنّنا لو لم نعرف الشيء عن بينة واختبار ما اكتشفنا اللاشيئا؛ فالمعرفة شيء، واختبارها شيء آخر، ولكلٍّ أهميته، أمّا القول: (اختبار المعرفة يعني كلّ شيء) فلا يؤخذ بالمطلق، ولكن في دائرة النّسبية ما يبدو لك مهما قد لا يبدو لغيرك.

وإذا أجزنا مقولة العالم الفيزيائي كراوس (اختبار المعرفة يعني كلّ شيء) فلا بدّ أن نُخضع ما قاله عن خلق الكون من لا شيء إلى

---

[81] الغاشية 17 - 20.

الاختبار والتجربة، قبل أن نأخذ بمقولته، ولكن هذا ضرب من المستحيل. حيث لا إمكانية لإخضاع الكون للاختبار والتجريب. فهذا الأمر يتعارض مع القاعدة الخلقية: (المحاط لا يحوط محيطه)؛ فعلى سبيل المثال: الزّجاجة المملؤة ماء، تظل محيطة للماء الذي يملأها، ولكن أن فرّغت منه وترك أمره حرّا؛ فلا إمكانية للماء أن يحوطها، وهكذا، (كلّ شيء) أو (لا شيء) محاط لا يمكنه إحاطة ما يحوطه.

وبما أنَّ الكون كما يراه الفيزيائيون يبدو مُسطّحا؛ ويتمدّد متسارعا في كلّ الاتجاهات، إذن؛ فلن يرسم بعد هيكل واضح للهيئة التي ينبغي أن يكون عليها كونا.

وكذلك، إذا كان الكون غير مكوّر؛ فلا يمكن لأحدٍ أن ينظر أمامه ليرى مؤخرة رأسه؛ فهذه لا تتمّ إلّا على سطح الأرض المكوّرة، لكن الكون حتّى وإن افترضناه مكوّرا؛ ونحن في قلبه؛ فلا إمكانية لرؤية ما على سطحه، حتى وإن كانت مؤخرات رؤوسنا.

ولأنَّ علماء الفيزياء يتحدّثون عن كونٍ منفجر ومتمدّدٍ، فهم يتحدّثون عن شيء معلوم الدّلالة، وغير معلوم الكيفيّة، فهو معلوم الدّلالة من حيث خضوع كثير من مفرداته إلى المشاهدة والملاحظة، أمّا كونه غير معلوم الكيفية؛ فهو من حيث لا أحد يعلم كيفية خلقه، ولا لحظتها. بل أصبح علماء الفيزياء يقرّون بوجود أكوان غير الكون الذي نعيش في قلبه، ممّا يدعو إلى القول: بأنّ كوننا بما فيه من شيء ولا شيء؛ فهو شيء عظيم يدلّ وجوده على وجود أكوان أخرى نحن لا نعلم كيفيتها، حيث لا شيء يشاهد.

ولكن إن تمكّن عقل الإنسان من اكتشافها؛ فسنرى شيئا أعظم. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[82]؛ فماذا تعني: (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)؟ تعني: سبعة أكوان، {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[83]، هذه الآية تؤكّد أنّ السّبعة أكوان هي أطباق فوق بعضها متوازية الوجود حيث لا تماس، ولا اصطدام، كلّ في فلكه بين متمدّدٍ ويتمدّد.

ولأنّ الأكوان خُلقت (سماوات وأراضي)؛ فسيظل اكتشافها في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع، ولهذا، أصبحت المؤشرات بين أيدي علماء الفيزياء تدلّ على وجود أكوان خارج نطاق كوننا.

ومع أنّ عالم الفيزياء كراوس لم يتمكّن من معرفة أيّ نوع من الأكوان هو كوننا، لكنّه أصدر حكما بأنّ الكون قد خلق نفسه من لاشيء، وهنا، أتساءل:

كيف يمكن له أن يحكم على الكون بأنّه مخلوق من لاشيء، وفي ذات الوقت لا يعرف ما يميّز الكون الذي يعيش فيه عن بقية أنواع الأكوان الأخرى؟

ولأنّ لورنس قال: (خُلق الكون من لاشيء)؛ فهو يرى لا ضرورة لوجود إله يخلقه، ولكن إن سلّم البعض بذلك؛ فالسؤال:

هل كلّ كون قد خُلق من لا شيء كما هو حال الكون الذي نظّر له كراوس؟ أم أنّ كوننا فقط هو الذي خُلق من لاشيء، وبقية الأكوان من ورائها خالق؟

---

[82] الطلاق 12.

[83] نوح 15.

وكيف لنا قبول ذلك، والعالم الفيزيائي يقرّ في نظريته (كون من لاشيء) لا استطاعة لرؤية الانفجار العظيم، حيث وجود جدار عاتم يمنع مرور الضوء عبره؟[84].

ومن ثمّ، ألا يكون هناك تناقض كبير بين قوله: (كون من لاشيء)، وبين قوله: (لا إمكانية لمعرفة بداية خلق الكون من لاشيء)؟ وإذا لم يتمكّن من بلوغ نقطة بداية خلق الكون؛ فكيف لنا بحكم قاطع يقرّ خلق الكون من لاشيء؟

أي: كيف لنا أن نقرّ بخلق الكون من لاشيء، ونحن متيقنين بأنّه لا إمكانية لبلوغ نقطة البداية، التي قد تُمكّن من معرفة ما إذا كان الكون قد خُلق من لا شيء، أم أنّه قد خُلق من شيءٍ؟

ومع ذلك، يقول العالم كراوس: "نحن نعلم بدقة، 1%، أنّ الكون مسطّح، ولديه طاقة كلية تساوي الصّفر، ولذلك يمكن للكون أن يوجد من لاشيء، ومن تلقاء ذاته "[85].

عالم لا يمتلك من الحجّة إلّا 1% وبها يحكم حكما مطلقا على أنّ الكون خُلق من لاشيء؛ فهل يمكن أن تُجاز هذه الحُجّة وهي تفتقد 99% من الحقيقة؟

وفقا لهذه النّسبة العالية التي تجيز عظمة اللاشيء أمام الشيء، يقول كراوس: "لو أزلنا من الكون كلّ شيء يُرى من نجوم

---

[84] New Mystery of Invisible Matter Generated by Cosmic Collision, www.space.com, 17 August 2007.

[85] المصدر السابق.

ومجرّات وحشود مجرية؛ فالكون لن يتأثر عملياً[86] يدلّ هذا النصّ: على أنّ اللاشيء هو الصّفة الغالبة على وجود الكون. وبخاصّة أنّ كلّ الكون المرئي يمثل 1% في كون يحوي على 29% مادة معتمة، 70% طاقة معتمة، وبذلك ليست لنا قيمة على الإطلاق[87].

عالم يرى قيمة الإنسان مادّة، لا بدّ له أن يحكم بانعدام قيمته، ولكن لو قَلبَ الإنسان الصفحة في أيّ اتجاه من اتجاهات القراءة السليمة ليقرأ قوله: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[88]. لأمكن له أن يتذكّر، ويتدبّر، ويفكّر، ومن ثمّ، لأمكن له الأخذ بما يجب والانتهاء عمّا يجب، وهنا، تكمن قيمة الإنسان وعظمة الخالق.

[86] المصدر السابق.
[87] المصدر السابق.
[88] النمل 88.

خَلقُ الشيء

الشيء دلالة وجودية تشير إلى المشاهد والملاحظ والمدرَك، ويعدُّ نكرة حتى يصنّف، ولا يكون شيئا، إلّا بفعل المشيء.

وهو لا يكون البداية، ولا ساعتها، ولا كيفيتها؛ فمثله مثل اللاشيء، حيث لا شيء إلّا من مشيء، ولذلك؛ فالكون لو لم تكن من ورائه مشيئة ما كان شيئا.

ولأنّ الكينونة هيئة خلقية؛ فهي كما تسبق خلق اللاشيء، تسبق خلق الشيء. ولا شكل ولا صورة للأشياء إلّا بعد أن يهيئها الخالق في علمه لتكون أشياء مفعولة. ومن ثمّ؛ فلا شيء إلّا والمشيء سابق عليه، ولا شيء إلّا على كينونة (هيئة) يرتضيها المشيء.

ولأنّه لا شيء إلّا على هيئة؛ فكيف تهيأ الشيء كونا قبل أن يكون شيئا من لاشيءٍ؟

التهيؤ لا يكون إلّا عن علمٍ وإبداع، وهذه لم تكن من مكوّنات الشيء، بل من مسببات وجوده، فلو لم تكن سابقة عليه، ما تهيأ الشيء شيئا. ومع ذلك علينا أن نميّز بين هيئة، ومهيئ، ومتهيء؛ فالهيئة صورة ما يكون عليه الشيء قبل أن يكون شيئا، والمهيئ هو من يعلم أمر الهيئة ويجعل لها صورة قبل أنْ تصير شيئا مفعولا، والمتهيئ هو اللاشيء (طينة التخلّق) التي منها يُخلق الشيء، وبها يُميّز حتى يصبح على الشّكل والصّورة.

وعليه: فقاعدة خلق الشيء: (لا شيء إلّا على مشيئة، ولا مشيئة إلّا من مشيء). {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}[89].{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[90]؛ فهذه من مشيئة الخالق الذي يعلم ما لا نعلم.

ولهذا؛ فالهيئة تصوّر تام للكينونة التي سيكون الشيء عليها قبل أن يكون شيئا، والقاعدة: (المهيئ يسبق الهيئة).

وبما أنّ الهيئة هي التي يُصوّر الشيء عليها؛ فهي لا تصوّر إلّا بفعل المهيئ، والقاعدة: (الهيئة تسبق المهيأ).

ولأنَّ الشيء لا يكون شيئا إلّا على هيئة تسبقه؛ فالقاعدة: (الشيء يُفعل ولا يَفعل). فالشيء لو كان يَفعل لخلق نفسه من لاشيء قبل أن يكون شيئا، وهذا ما يراه كراوس، ونحن نرى لاشيء إلّا بفعلٍ، ولا فعل إلّا من فاعل، ولأنّ الشيء يفتقد قوّة الفعل وإرادته؛ إذن؛ فكيف له بخلق نفسه؟

وحتى لا يكون حوارنا سفسطائي؛ فهل يمكن أن يوجد الكون (الشيء) بغير إرادة؟ أي: هل يُخلق شيء أو يُصنع عن غير دراية؟ وهل يمكن أن يُخلق شيء أو يصنع عن غير هيئة؟ ثمّ، هل يُخلق شيء من غير مادة لخلقه؟ وهل يُخلق شيء في غير مكان وزمان؟ وهل المكان والزمان من مكوّنات الكون (الشيء) أمّ أنّهما المحتويان وجوده؟

---

[89] البقرة 105.

[90] هود 118 - 119.

وبما أنَّ الشيء يفتقد لكلّ هذا؛ فهو بلا شكّ لا يمتلك صفة الخلق؛ ولأنّه يفتقدها؛ فلا يكون إلّا ومن ورائه خالق (وراء كلّ مخلوق خالق).

ولو أخذنا خلق الإنسان كمثال: فهل الإنسان خَلق نفسه؟

لا خلاف على أنّه لم يخلق نفسه. وبما أنّ الإنسان لم يخلق نفسه حتى من شيء؛ فكيف للبعض أن يقبل بخلق الكون نفسه من لاشيء؟

وحتى لا نذهب بعيدا، ويتمّ التمسّك بخلق الكون من لاشيء؛ فالأرض التي هي أقرب وجودا من وجودنا، ممّ خُلقت؟

لا شكّ أنّ الإنسان قد خُلق من الأرض؛ وهذا يعني: أنّه خُلقَ من شيءٍ، ولأنّ الأرض قد خُلقت بعد الانفجار العظيم بآلاف السّنين؛ فكيف خلقت؟ وما الذي كان وراء خلقها؟

فهل كانت الرّغبة هي التي وراء خلقها؟ أم الضّرورة؟ أم المشيئة؟ أم ماذا؟ وإن خُلقت هي الأخرى من لاشيء؛ فما هو ذلك اللاشيء الذي خلقت منه؟ وهل هو بالتمام مثل ذلك الشيء الذي خُلق الكون منه، أم أنّه اللاشيء آخر؟ وإن كان الآخر؛ فما العلاقة بينه وبين ذلك اللا شيء الذي تفجّر معه، أو تفجّر قبله؟

وإذا عرفنا كيف جاء اللاشيء الذي خُلقت الأرض منه؛ فهل لنا بمعرفة كيف جاء اللاشيء السّابق عليه؟ ثمّ، هل يمكن أن نقف على اللاشيء إنْ لم يكن هناك لا شيء؟

كلّ هذه الأسئلة ستكون متّصلة إلى النّهاية، ولكن من الذي أوجد النّهاية؟

ستكون الإجابة بالطبع الذي أوجد البداية. وهنا، تكمن الإجابة، وهي: لكلّ شيء بداية ونهاية، ومن ثمّ؛ فلا بداية لشيء إلّا مشيئة الخالق، ولا نهاية لشيء إلّا مشيئة الخالق. {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}[91]، وهو الفعّال لما يريد، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[92].

وإذا كان الكون قد خُلق من لاشيء، فهل كان ذلك اللاشيء وجودا، أم أنّه لا وجودا؟ فإن كان وجودا؛ فمن الذي أوجده؟ وإنّ لم يكن وجودا، إذا؛ فكيف خَلَقَ الكون وجوده عن غير وجود؟

إنّ الشيء لو لم يكن وجودا ما تساءلنا عنه، ولأنّنا نتساءل عن وجودٍ؛ فالوجود لا يكون إلّا بفعل فاعل (بخلق خالق) وخالق الشيء لا يمكن أن يكون شيئا، ولا يكون لا شيء، ولا يكون شيئا آخر؛ فخالق المادّة لا يمكن أن يكون مادّة، وخالق الرّوح لا يمكن أن يكون روحا؛ فالخالق لا يكون إلّا خالقا، (الخالق يَخلق ولا يُخلق)، يَبدع ولا يُبدِعُ، {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[93].

الشيء وإن كان نكرة، لكن لكلّ شيء صفة تميّزه؛ ومتى ما تمّ التعرّف عليها أصبح الشيء المنكّر معرفة؛ فالشيء يُطلق على أيّ

---

[91] الحديد 3.
[92] الأنبياء 104.
[93] البقرة 117.

شيء مادّي أو غير مادّي، ولكن عندما يحدّد الشيء مثل السّماء يصبح اسم السّماء يدلّ على شيء دون غيره وحينها لا تكون السّماء نكرة.

وهكذا، فأيّ حديث عن أيّ شيء غير موصوف هو حديث منكّر، ولكن بتحديد المكان والزّمان والدّلالة والمعنى للشيء، يصبح الشيء غير منكّر. ونأمل أن لا يفهم البعض أنَّ الشيء لا يرتبط إلّا بالمشاهد والمحسوس، بل دلالة الشيء تمتدّ من المفهوم والمعنى إلى الفعل والهيئة والشّكل والصّورة. {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}[94]، وكلّ شيء خُلِق يحاط ولا يحيط، {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[95].

وعليه: فالقاعدة المنطقية تقول:

كلّ شيء مخلوق

الكون شيء

إذا الكون مخلوق.

وبما أنَّ الكون شيء؛ فالشيء لا يكون إلّا مخلوقا، ولا يكون إلّا في حيزٍّ، ولا يكون إلّا محدودا حتّى وإن تناهى في الصّغر أو الكبر، والشيء حتى وإن أحاط بشيء آخر؛ لا يكون إلّا محاطا. {وَسِعَ

[94] الأنعام 101.
[95] البقرة 255.

كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[96].

فوسِع كرسيه؛ وسِعت إحاطته، أي: وسِعت إحاطة الخالق الأكوان (سماوات وأرضين). والكرسي هنا، هو كرسي السّعة والإحاطة الاستيعابية، وليس كرسي الجلوس؛ فهو، يدّل على خلق محيط لإحاطة الأكوان جميعها. وهذا يشير إلى أنّ الأرض جزء من كوننا، وكوننا جزء من الأكوان المحاطة بالكرسي، وهو المخلوق لاحتواء الأكوان، {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[97].

وكما سبق تبيانه في تعدّد الأكوان، وما توفّر من دلائل علمية لدى علماء الفيزياء والفلك، فإنّ بيّنة الخالق تدلّ على وجودها يقينا، {لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[98]؛ فالسّبعة الطرائق، هي: الأكوان التي فوق الكون الذي نحن جزء منه، (وسبعة أكوان فوقكم)، تشير إلى علو الأكوان السّبعة المرتّبة طباقا فوق بعضها البعض، وهي فوق الكون الذي نحن جزء منه، ولكن العلو لا يقتصر على علو المكان أو الحيّز، بل يدلُّ على علو المكانة أيضا.

ولهذا، جاءت الطرائق بمعنى الخصوصية والتميّز في كلّ كون من الأكوان السّبعة التي تعلو كوننا الذي هو الآخر يتميّز بخصوصيته. {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[99]؛ تؤكّد هذه الآية أنّ السماوات السّبع هي الأكوان التي فوق كوننا، وكلّ كون منها منفصل عن

---

[96] البقرة 255.
[97] النمل 88.
[98] المؤمنون 17.
[99] الملك 3.

غيره، ولا يتجاوز الطبق الذي خلق فيه، ولذا؛ فكلمة طباق تدل على العناية والرّعاية والتنظيم المصنّف لكلّ كون. وهذا ما لم يتمكّن علماء الفيزياء والفلك من بلوغه، بالرّغم من أنّهم أصبحوا متيقّنين من تعدّد الأكوان (Multiverse) وما كوننا إلّا أحدها، والأكوان المتعدّدة تسمى أحياناً بالأكوان المتوازية (Parallel Universes)[100].

وعليه فالقاعدة المنطقية تقول:

كلّ شيء محاط لا يحيط بمحيطه

الكون شيء محاط

إذن الكون لا يحوط محيطه

وكذلك القاعدة المنطقية تقول:

كل محاط مخلوق

الكون محاط

إذن الكون مخلوق

وعليه: بما أنّ للكون محيطا، فهو شيء، ولأنّه المحاط؛ فمحيطه شيء آخر.

[100] Have cosmologists lost their minds in the multiverse? May 13, 2014 by Luke Barnes, The Conversation

ولأنّ الكون شيء، ومحيطه شيء آخر، إذن؛ فكيف (خُلق الكون من لاشيء)؟

وكذلك؛ فإذا كان ذلك الانفجار هو شيء عظيم، ألا يكون المنفجر شيء أكثر عظمة؟ وإذا كان الانفجار شيء والمنفجر شيء آخر؛ فكيف يمكن لنا أن نقول: (خُلق الكون من لاشيء)؟

وهل ذلك الشيء المنفجر ـ لو لم تُخلق فيه معطيات الانفجار ـ أكان ينفجر؟ وهل الانفجار لو لم يزمّن له وقت، يمكن أن يبلغ لحظة انفجاره؟ أي: هل ينفجر المنفجر لو لم يكن مؤقتا؟ وهل يمكن أن ينفجر شيء في غير مكان وزمان؟

وبما أنّه قد انفجر، ألا يعني ذلك أنّ انفجاره بفعل الفعّال؟

ولأنّه لا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، ألا يكون المشيء أعلم بأمر المنفجر من الذي عَلّمهُ؟ {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}[101].

ومن ثمّ؛ فالقاعدة المنطقية تقول:

وراء كلّ شيء مشيء،

الانفجار الكوني شيء

إذن وراء الانفجار الكوني مشيء.

ولأنَّ وراء ذلك الانفجار الكوني مشيء، إذا، لو لم يشأه المشيء كونا ما كان انفجاره لحظة الولادة.

---

[101] يوسف 76.

ولأنّ الانفجار الكوني وُصِفَ بأنّه عظيم؛ فهل يمكن أن يكون انفجارا عظيما لو لم يؤسّس على قانون؟ وهل يمكن أن يكون القانون لو لم يسبقه مقنّن، {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[102].

[102] المعارج 41.

خلق الفراغ

الفراغ جزء كوني عظيم، يشكل إطارا من الطّاقة الواقية للأشياء من الاحتكاك، ويجعل الفراغات بينها مجالا للتمدّد والحركة، ويعدّ الفسحة المستوعبة لحركة الكواكب والنّجوم والمجرات والأجسام والطّاقة.

فالفراغ وجود لا يعطي مدلولات مادّية وإن ملأته الأجسام الدّقيقة، بل يعطي حيّزا متعاظما (ضيقا واتساعا)، ويضم آلاف الأنواع من الجسيمات التي تتكون وتتّحد وتتفاعل وتختفي في محيط لا يعرف الهدوء أو السّكون؛ فطاقة الفراغ تملأ الكون؛ فلو لم تكن لانهار الكون.

والفراغ لا يعّد عدماً كما يظنه بعض الفيزيائيين، بل وجودا في ذاته؛ فلو لم يكن وجودا، لكانت الأشياء جميعها كتلة واحدة، تجمّدا أو تصخّرا، حيث لا مجال للحركة والمكان والزّمان، وهذا يعني: اللاوجود.

إنَّ علاقة الفراغ بالحركة مثل علاقة الانحدار بالمتحرك على سطحه، فكلما زاد الانحدار زاد المتحرّك تسارعا في تمدّده؛ فهكذا هو الفراغ يجذب المتحركات إليه جذبا.

والفراغ مع أنّه من مكوّنات الكون، لكن الكون وإن عظم لا يكون إلّا محاطا بالفراغ، وإلّا كيف يمكن أن يكون كونا متسارعا في التمدّد ولا فراغ يسمح بذلك؟

وهذا الأمر، يدلّ على وجود أكوان محاطة بالفراغ، مثلما تحاط به النّجوم والكواكب، داخل إطار الكون الذي نحن جزء منه، وإلّا هل يمكن للكون أن يكون كونا محصورا في وسطٍ صخري، أو محيطٍ متجمّد؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[103]. تدلّ هذه الآية على الخلق الأوّل للسّماوات والأرض (الأكوان) التي كانت وكأنّها وحدة واحدة (رَتْقًا) حيث لا انفصال، ثمّ فُصلت (فَفَتَقْنَاهُمَا) بالفراغ الذي أحاط كلّا منها كما أحاط كلّ شيء فيها. فأصبحت سماوات وأراضين (أكوان) مفتوقة تسبح في الفراغ، دون تماس ولا احتكاك ولا تصادم كلّ في فلكه يسبح؛ فالسّماوات بعد أن كانت ملتحمة وكأنّها سماء واحدة، والأراضين ملتحمة، وكأنّها أرض واحدة، وكذلك، كانت السّماوات والأرضين مرتقا (كونا واحدا) فأصبحت بالفراغ أكوانا منفصلة، أي فتقت السّماء والأرض، ثمّ فتقت السّماء سماوات وفتقت الأرض أراضين.

ولذلك؛ فالفراغ يعدُّ:

- حيّز وجود.
- حيويّة حركة.
- مجال امتداد.

ولكن إذا أخذنا بالقول الفيزيائي: إنّ الكون نتاج الانفجار العظيم، فأيّ كون هو نتاج ذلك؟ هل هو الكون الأوّل المرتق سماوات

[103] الأنبياء 30.

وأراضين؟ أم أنّه الانفجار الذي نتج عن انفتاق السّماوات والأرضين (الأكوان)؟

ولذلك؛ فنحن نقرّ بانفجار كوننا مقذوفا كغيره من الأكوان لحظة الانفتاق العظيم، ذلك لأنَّ الأكوان لحظة الانفتاق العظيم دُفعت بالقوّة الطاردة تجاه الجاذبات (الفراغات) الخاصّة بكلّ كونٍ، حتّى لا يتجاوز كون منها حيّزه الفراغي المهيأ له. ولأنّه انفتاق الأكوان؛ فلا شكّ أنّه عظيم.

وتطفو الأكوان في الفراغ مثل الماء بالنّسبة للسّفن التي تطفو دون غرق وفقا لقانون الطفو (إذا طفا جسم واستقر فوق سطح سائل فإنّ قوّة دفع السّائل على الجزء المغمور من الجسم تعادل وزن الجسم الطافي كلّه)، وهكذا هو الفراغ يحمل الأكوان طفوا.

إذا؛ فالانفتاق العظيم، جعل الفراغ بين الأكوان طرائق، حيث لا تماس لهيئة أو كيان كوني. {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[104]، الطرائق طبقات أكوان فوق بعضها البعض، وبين كلّ طابق وآخر فراغ محيط.

ومع أنَّ الفراغ فاصل بين الأكوان، لكنّه المهيأ لكلّ كون، وإلّا هل يمكن أن يحلّ كونٌ محلّه لو لم يكن مهيأ له فراغ؟ أي: لو لم توجد للأكوان أماكن فارغة لتحلّ فيها وتطفو؛ فهل يمكن أن تكون الأكوان كما هي عليه أكوان؟

[104] المؤمنون 17.

ولأنّه الانفتاق العظيم، فهل كان هذا الانفتاق من لا شيء؟ أم أنّه كان من شيء؟ أم أنّه من غير ذلك كلّه؟

الكون لو لم يكن شيئا مخلوقا ما تحدثنا عنه، ولأنّه المخلوق وإن أُختُلِفَ على خَلقه من لاشيء أو خَلقه من شيء؛ فهو الكون المخلوق. لكن الاختلاف أصبح بين من يره مخلوقا من لا شيء، بأسباب انفجار عظيم لا يمكن إثباته، وبين من يره كونا من أكوان الانفتاق العظيم، استنادا على الوحي الموحى، الذي أنزل حُجّة قبل أن يجتهد مجتهد في علم الفيزياء والفلك، ليقول: خُلق الكون من لاشيء.

إنّ ذلك الانفتاق العظيم ما كان له أن يكون لو لم يكن الفراغ طاقة فاصلة بين تلك (المرتقات) سماوات وأراضين، ولهذا؛ فكوننا هو كون من الانفتاق العظيم، ومن ورائه خالق، وليس بكونٍ من لاشيء.

الفراغ المكاني:

الفراغ قوّة إحاطة وجذب، تحفّز المتحرك على الحركة والتسارع، وهو حيّز لحركة الأجسام المشاهدة والملاحظة، فلو لم يكن الفراغ سابقا على الأشياء، ما كانت أشياء؛ فالأرض افتراضا: لو أخرجت من الحيّز الذي تشغله، ألا يكون مكانها مصدر جذب لأشياء أخرى تشغله؟ وفي المقابل، لو كان مكان الأرض مشغولا بشيء آخر؛ فهل يمكن أن تكون الأرض إن لم يكن لها مكان تشغله؟

فالحيّز مكان للامتداد والحركة المتناهية؛ فلو لم يكن المكان قابلا للانشغال أمام الشيء المتحرك تجاهه، ما كانت الحركة، وإلّا هل

يُعتقد أن تكون الحركة لو لم تكن الفراغات محيطة بكلّ متحرك؟ وهل يمكن أن نمشي على أقدامنا لو خليت الدّنيا من الفراغات غير المشاهدة؟ وهل يمكن أن تطير الطّائرة لو كانت السّماء عبارة عن أجسام متّصلة؟ وهل يمكن أن تكون للمدفع فوهة لو لم يكن للفراغ وجود؟

وعليه: فكلما زادت كثافة الأجسام وقلت الفراغات ـ قلت الحركة، وكلما زادت الفراغات ـ كانت الحركة أكثر تيسيرا.

وقد يتساءل البعض: هل للفراغ مكان، أم أنّه مكان بذاته؟

إذا كان الفراغ مكوّنا طبيعيا؛ فلا بدّ أن يكون له مكان، وإذا كان مكونا ميتافيزيقيا؛ فهو المجرّد من المكان، وبالتّالي فلا مشاهد. ولكن بما أنّنا نتحدث عن الفراغ؛ فإنّنا لا شكّ نتحدث عن وجودٍ حتى وإن وصف باللاشيء، وبما أنّه موجود بيننا، إذا؛ فبالضّرورة يشغل حيّزا، وبما أنّه فراغ، إذا؛ فهو المحصور بين محيطٍ متماسك، ويشغل حيّزا حتى وإن كان متناهيا في الصّغر. ولذلك؛ فالفراغ يحيط بكلّ شيء، كما أنّه يشغلها حيّزات.

والفراغ يمكن أن يكون تامّا غير مناسب للحياة، ويمكن أن يكون خلاء طبيعيا ممهدا للحركة والتمدّد؛ فالفراغ غير التّام ميسّر للحركة، أمّا الفراغ التّام فمعسّر لها.

ولذلك؛ فالفراغ المكاني يعدّ حيزا تشغله الأجسام ويمكن ملاحظته؛ فالمكان الفراغي سابق على الشيء الذي يمكن أن يشغله، كأسبقية القالب على ما يُقولب فيه من مادّة، ولذلك؛ فالفراغ المكاني إطار

عام لاحتواء الشيء واللاشيء، ومع أنّ الأرض مكان لنا، لكن لو لم يكن لها مكان فارغ لتكون فيه ما كانت.

ومن ثمّ؛ فمكان الكواكب والنّجوم والأشياء دائما يساوي أحجامها، ولا يمكن أن تشغلها إلّا بعد طرد فراغاتها والإحلال محلها، ولا يبقى الفراغ إلّا محيطا عظيما يحفظها في أفلاكها وأماكنها، ويتيح لها إمكانية الحركة.

ولكن، هل محيط الأشياء يلاحظ، أم يشاهد؟

الأشياء المادية تشاهد لأنّها تشغل الحيزات بالمادّة، ولكن بالرّغم من أنّها في حالة حركة؛ فحركتها لا تشاهد، ولذلك؛ فنحن لا يمكننا رؤية الحركة، ولكننا نرى المتحرك؛ فالحركة تلاحظ، والمتحرك يشاهد، ومن ثمّ؛ فمحيط الأرض لا يمكن مشاهدته لأنّه مجال التمدّد وفسحة الحركة، أمّا المتحرك كوكبا أو نجما أو أيّ شيء فيشاهد.

فالمتحرك يشاهد لأنّه شيء (شكلا وصورة)، أمّا الحركة؛ فلا شيء، حيث (لا شكل ولا صورة). لذلك؛ فكل الأشكال الهندسية لا يمكن أن تكوِّن أشكالا إلا ولها فراغ مكاني. ومن ثمّ؛ فمحيط الأرض ليس مادّة مشاهدة، ولكنّه يلاحظ.

الفراغ حاضنة الأشياء:

الفراغ سِعة مهيأة لاستيعاب الأشياء كبرت أم صغرت، يحتوي كلّ شيء حتّى وإن تمّ احتواء شيء منه، إنّه حاضنة الأكوان، حيث لا شيء يكون إلّا في فراغ، ومن ثمّ؛ فالقاعدة:

(الفراغ حاضنة الأشياء).

والحاضنة هي المهيأة للوجود الحي، لتمدّه بما هو في حاجة ماسّة إليه من أجل البقاء. وكلّ شيء يمكن أن يحاط، إلّا الفراغ مهما أحطنا منه من شيء، فسيظل محيط لكلّ شيء يحاط.

والكون الذي يشكل الفراغ 90% من كتلته (مجمل الطّاقة المظلمة والمادّة المظلمة)[105]. محاط بفراغ يفصله عن الأكوان الأخرى. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[106].

فالفراغ هيئة مكانية حاضنة لكلّ شيء في الكون، وفي ذات الوقت حاضنة الكون بأسره. وإلّا هل يمكن أن يكون الكون متسارعا في تمدّده لو لم يكن الفراغ بساطه ومحيطه؟ وكيف يمكن للكون أن يكون كونا مع أكوانا أخرى لو لم يكن الفراغ حاضنة لكلّ كونٍ؟

ولأنّ الفراغ هيئة بلا صورة؛ فهو المتهيأ لاحتضان الأشياء، والممهّد لحركتها، ومع أنّه الفراغ، لكنّه مليء بالأجسام الدّقيقة غير المعسّرة للحركة، ولذلك ففراغ الكون لا يعدّ فارغا.

وكلّما كانت نسبة الفراغ واسعة، طال البقاء، وكلّما ضاقت هذه النّسبة اقتربت النّهاية؛ فالكون الذي يملأه الفراغ بنسبة 90% لو امتلأت هذه النّسبة مادّة صلبة؛ فهل يمكن للحياة أن تجد مكانا؟

لا شكّ إذا امتلأ الكون فراغا حتى أصبح لا فراغ، سيحدث الانفجار، وتصبح المادّة المنفجرة أشياء متناثرة في كون عظيم.

---

[105] https://hyperstage.net/wp-content/uploads/2014/08/a-universe-from-nothing.png

[106] الطلاق 12.

ولكن لماذا الكون يتمدّد؟

يتمدّد الكون انبساطا بقوّة الفراغ الجاذبة، وقوّة الفراغ الدّافعة، فذلك الانفجار العظيم بأسباب قوّة الانفتاق دُفع انبساطا في كلّ الاتجاهات، كما دُفع غيره من الأكوان المنفتقة (سماوات وأراضين)، وفي المقابل الجاذبية كلما اقترب المتمدّد من مركزها ازداد تسارعا. ولذلك؛ فالقاعدة العلمية: (لا تمدّد إلّا في فراغ)، أي: إذا انعدم الفراغ استحال التمدّد.

والقاعدة المنطقية ترى:

كلّ تمدّدا في الفراغ

الانفجار تمدّدا

إذن، الانفجار تمدّدا في الفراغ

ولأنّه لا انفجار إلّا في الفراغ، إذا؛ فذلك الانفجار العظيم لو لم يسبقه فراغ ما انفجر كونا عظيما. وكذلك حال الانفتاق لا يمكن أن يكون لو لم يتوفّر حيّز لتمدّد الأكوان المنفتقة.

فالفراغ حيّز استيعابي تتمدّد الأشياء فيه وتتكاثر، وإن سحبت الأشياء منه لا يتأثر "فلو أزلنا من الكون كلّ ما يمكننا رؤيته من نجوم ومجرات وحشود مجرية، كلّ شيء تماماً، فالكون لن يتأثر عملياً"[107].

[107] https://hyperstage.net/wp-content/uploads/2014/08/a-universe-from-nothing.png

ومع ذلك؛ فعلينا أن نميّز بين الفراغ والخلاء؛ فالفراغ حيّز تمدّد الأشياء، والخلاء مكان يفتقر للإعمار أو الامتلاء؛ فالفراغ حيث لا يتواجد الشيء، والخلاء حيث يتواجد الشيء. فعلى ظهر الأرض تشاهد الخلاء، أمّا الفراغ فيحيطها ويتخلّلها. وهكذا ترى الزجاجة الخالية من السائل، مملوءة فراغا.

ولأنّ الفراغ يمثل الجزء الأعظم من الكون؛ فلا أحد يتساءل ممّ خلق الفراغ؟ ولذلك فسبب وجود الكون هو السّبب في وجود الفراغ، والقاعدة الخلقية تقول:

كلّ مخلوق من ورائه خالق

الفراغ مخلوق

إذن فمن ورائه خالق.

ومع أنّ الفراغ يحتوي الأكوان، لكنّه يشكّل الجزء الأكبر منها؛ فالأكوان محمولة بحيويّة الفراغ، وكأنّها بالونات هوائية، وهي لا شيء بالنّسبة للهواء الذي يحوطها.

الوجود

مع أنّ دلالة الوجود وماهيته واحدة، لكن مقاصد الباحثين في ميادينه تختلف باختلاف الثقافات والمعارف والانتماءات العقدية؛ فما يره البعض وجودا قد لا يره البعض كذلك (فلاسفة وعلماء)، وبين هذا وذاك؛ فالوجود لا يكون حيث لا وجود، فهو يشغل حيّزا وإن كان متناه في الصّغر (ماديّا أو معنويا).

فالوجود إثبات لا يكون في حاجة لمثبت؛ فالصّمت الذي هو امتناع عن الكلام بإرادة يعدّ إثبات وجود، وفي المقابل الجبال تعبّر عن وجود راسي على الأرض المتحرّكة وجودا، وهكذا، الحقّ وجود في مقابل وجود الباطل، وكلّ شيء نعترف به أو ننكره نثبت وجوده. وإلّا هل يمكن لنا التحدّث عن شيء (إثباتا أو نفيا) لو لم يكن موجودا (وجودا) مشاهدا أو مدركا وملاحظا؟

فالكون العظيم خُلق وجودا مرتقا، ثمّ فُتق أكوانا نعلم وجودها ولا نعلم سرّها سوى شيء من كوننا الذي يرشد إليها وجودا.

ومع أنّ الفيلسوف سارتر قد ميّز بين الوجود وأسبقيته، وبين الماهية وألحقيتها، لكنّ رؤيته الفكرية ربطت الوجود بالفاعلية والحرّية، وكأنَّ من لا يدركهما لا وجود له.

وهنا أتساءل:

هل يحقّ لنا أن لا نحسب وجودا للكون المرتق الذي وجدت منه الأكوان المفتقة والأرض التي دحّيت منه وما فيها وما عليها من أنهار وجبال وكائنات كونها لا تمتلك مدركات الحرّية؟

وبما أنَّ الوجود يشغل حيّزا، إذا؛ فلا إمكانية لإنكار ما يشاهد أو يلاحظ وجودا (وجود حياة، أو وجود أثر)؛ فالوجود: يحتوي على الدّلالة كما يحتوي على الكينونة (الماهيّة) حيث لا ماهية إلّا لوجودٍ. أي: لو لم يكن الوجود بفعل فاعلٍ ما كانت الماهية بإرادة المفعول المخيّر في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

فالوجود لا يكون إلّا عن قوّة وإرادة فعّالة، ممّا يجعل مشيئة الوجود بيد الموجد بالقوّة، والقوّة الفعّالة يمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون نسبية ممكنة؛ فالخالق يخلق بالقوّة المطلقة، والصّانع يصنع بالقوّة النسبيّة، ومن هنا؛ فالإنسان يمتلك القوّة التي تستوجب حُسن تصرّف؛ فإن كان التصرّف عن إرادة حرّة، كان الإنسان مسئولا عن تصرفاته سلبا وإيجابا، ومن ثمّ؛ فالتسيير مطلقا بالقوّة، والتخيير نسبيا بالإرادة وفقا للمقدرة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

إنّ الوجود شيء لا يخفى وإن قصر البعض عن إدراكه؛ فهو عظيم في تناهيهِ كبرا وصغرا وتوازنا، وسيظل الوجود نكرة إلى أن يُدرك ويعرّف صفة وخاصيّة ومفهوما ومعنا.

فالوجود خَلقٌ بفعل الخالق؛ فلو لم يكن الخالق ما كان للوجود وجود، وأوّل وجود نعلمه، هو: وجود الكون المرتق، ثمّ الانفتاق العظيم الذي جعل من الكون المرتق أكوانا مفتقة، بُعثت فيها الحياة وجودا متكاثرا بغاية خلقية لا يدركها إلّا الخالق، ولكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لكلّ متدبّر وجودا يدركه في دائرة (السلبية والإيجابية) وخير المتدبّرين الذين يمتلكون الحرّية ويتصرّفون عن إرادة بلا مكاره.

ومن ثمّ؛ فالوجود نشوء يتولّد خلقا بعضه من البعض، كتولّد الأكوان من الكون المرتق، وتولّد الأرض من كوننا الذي يملأه الوجود بالقوّة الخلقية، ثمّ نشوءنا من الأرض وإنباتنا منها نباتا.

والوجود ارتقاء إنساني (ثقافة، وفكر، وعلم، وخُلق، وذوق) به يتميّز الإنسان (قيمة في ذاته) عن بقية الوجود الواسع، سواء أكان مدركا لما حوله عن إرادة حرّة، أم أنّه يجهل أمره؛ فهو في كلا الحالتين هو الإنسان الذي خُلق وجودا في أحسن تقويم، ومن هنا، وجبت رعاية القصّر والمعاقين والعجزة والمرضى، كما وجب الإصلاح والتغيير للأفضل من أجل من خُلق في أحسن تقويم.

وعليه:

فالوجود الإنساني في أساسه وجود منتج متطوّر ارتقاء، ولكن بعلل القصور وأسبابه المختلفة جاء الاستهلاك وفقا للحاجات المتطوّرة استثناء. ولهذا؛ فالوجود الإنساني ينبغي أن يكون دائما في حالة ارتقاء، من خلال تطوّر الحاجات وتنوّعها وضروراتها التي تستوجب التدبّر تفاديا للانحدار والهلاك.

ومع أنَّ الوجودية كما يرها سارتر تنادي بمبدأ أسبقية الوجود existence على الماهية essence، لكنّنا نقول: لا الدّجاجة اسبق على البيضة، ولا البيضة أسبق على الدّجاجة؛ فالوجود والماهية شيئان في شيء واحد، فلو لم يكن الوجود ما كانت الماهية، ولو لم تكن الماهية ما كان خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ فماهية الإنسان لو لم تكن معطياتها قد خُلقت وجودا، ما كان للإنسان رُقيّ، ولكن الإنسان وإن ارتقى إلى ما يمكن بلوغه ارتقاء؛

فسيظل قاصرا وفقا لقدراته المحدودة التي لا تمكّنه من أن يكون الله كما اعتقد الفيلسوف سارتر بقوله: "أن أكون إنسانًا، هذا يعني أن أنحو لكي أكون الله"[108].

ولأنّ القاعدة المنطقية تقول: (لا معلول إلّا ومن ورائه علّة، ولا سبب إلّا ومن ورائه مسبّب)؛ فالاختلاف إذا وجب مع قول الفيلسوف سارتر: "كل موجود يولد بلا سبب، ويستطيل به العمر عن ضعف منه، ويموت بمحض المصادفة"[109]. ولكن لا أدري كيف يموت الموجود بمحض المصادفة وهو لا يمتلك قرار موته، وبخاصّة أنّ سارتر قد ربط الوجود الإنساني بالحرّية، وكأنّ من لا حرّية له لا وجود له!

ولأنَّ الكمال لله وحده كان التناقض في شيء من تنظيرات الفيلسوف سارتر الذي قال: "عندما الأغنياء يخوضون حروبا مع بعضهم البعض، الفقراء هم الذين يموتون" أي: أنّ سارتر قد اعترف بسبب من أسباب الموت وهو الاقتتال والحروب التي تدور رحاها من أجل المكاسب والمغانم أو الحرّية، التي هي السّبب في موت الفقراء بقرار من الأغنياء، وهنا لا موت بمحض المصادفة، بل الموت بسبب من ورائه مسبب[110]. أي: أنَّ الموت لم يكن مطلبا، بل هو وجود لا يمكن إنكاره؛ فمتى ما شاءه المّميت كان

---

[108] جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، (ترجمة عبد الرحمن بدوي) دار الآداب، بيروت، 1953، ص 218.

[109] المصدر السابق، ص 126.

[110] سارتر، جان پول، الغثيان، (ترجمة فارس ضاهر، عدنان منافيخي) ط 2، 2006.، ص 74.

وجودا شاهدا على نهاية الحياة؛ فالموت لو لم يكن وجودا فاعلا، ما كان له أثر مشاهد ومحسوس وملاحظ.

وعليه:

فالوجود لا يقتصر على من يمتلك زمام أمره عن حريّة كما يره سارتر، بل يمتدّ ليشمل كلّ شيء يمكن أن يتمّ التحدّث عنه، سواء أكان ماديّا أم معنويّا (مشاهدا أو ملاحظا أو مدركا)؛ أي: سواء أكان مكانا أم زمانا (حركة وسكونا) وسواء أكان هيئة أم تهيؤا، أم أنّه كان قرارا وإرادة ومسؤولية.

ولأنَّ وراء كلّ معلول علّة، ووراء كلّ سبب مسبّب، إذا، فلا موجود إلّا ومن ورائه واجد له، أي: لا موجود إلّا ومن ورائه من أوجده على قيد الحياة والممات (بداية ونهاية)؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم يكن من ورائه خالق ما كان وجودا، ولهذا؛ فالخرافة الضارة أن يؤخذ بقول الفيلسوف سارتر: "إنّ الله خرافة ضارة"[111]، وبخاصّة أنّه يعلم أنّه لم يَخلُق نفسه، أي: لو لم يكن من ورائه خالق عظيم ما كان شيئا مذكورا، {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[112].

ومع أنّ سارتر يعلم أنّه لم يخلق نفسه، لكنّه ظنّ أنَّه لا إله يسبقه، ولهذا؛ فهو لا يعلم الحكم المسبق عليه قبل أن يُخلق: (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)؛ فها هو سارتر لم يكن شاكرا، وهذه من سُنن الخلق

---

[111] المصدر السابق.

[112] الإنسان 2 ، 3.

البشري حيث البعض قد اغترّ بالخالق، الذي خلقهم على التسيير والتخيير الحر، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[113].

أي: إنّ الذي غفل عنه سارتر هو: أنّه لو لم يكن قد خُلق على فرصة التخيير ما كان له أن يكون كافرا. ولأنّه خُلق مخيّرا فيما يشاءه عن إرادة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فهو لا يرى وجودا لمن لم يكن حرّا. وفي هذا الشأن قد غفل عن الوجود المسيّر، وهو: ما لم يكن داخل دائرة النسبية؛ فالوجود كلّه وجود تسيير وتخيير؛ فالتسيير حيث لا إمكانية للتبديل أو أخذ الأمر والرأي وإن صدر أو قيل من قبل القائلين، ولذلك؛ فاليوم لا يتبدّل والنّهار لا يتبدّل، وخلق الأجناس لا يتبدّل وإن تغيّرت الأنواع جينيّا.

ومن ثمّ؛ فالتسيير لا تبديل فيه، والتخيير فيه التبدّل؛ فالوجود الإنساني ثابت حيث لا تخيير، وفي المقابل جوهره (ماهيته) تتغيّر تخييرا، وفقا للقدرة والاستطاعة، والرّغبة والحاجة المتطوّرة. ولذلك؛ فسارتر لو لم يكن وجوده على التخيير ما كان له أن يقول: (إنّ الله خرافة ضارة)، ولأنّه قالها؛ فهو قد أثبت غفلته عن حقيقة خلقه (تسييرا وتخييرا). أي: لو علم سارتر بخلقه مخيّرا لآمن أنّ من وراء وجوده خالق.

ومع أنّ سارتر لم يغفل عن الوجود والماهية، لكنّه قد غفل عن الهيئة التي تسبق الوجود؛ فالوجود (أيّ وجود) لا يكون إلّا على

---

[113] الانفطار 6 - 8.

هيئة تسبقه بفعل فاعل يسبقها. فلو لم تكن الهيئة وجودا سابقا على الوجود ما هُيّء الوجود على هيئاتها وجودا مشاهدا وملاحظا ومدركا.

وعليه: فالهيئة في علم المهيّء، لها الأسبيقيّة على وجود المتهيأ عليها، والمتهيّأ عليها يسبق ماهية من أصبحت له هيئة خاصّة به، وهي التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخصوصية ومهنة وحرفة وتجربة وخبرة.

ومع أنّ الوجود مؤسّس على ماهية سابقة، وهيئة لاحقة، ولكنّ لا مفرّ له من العدم؛ فالعدم بعد الموت يلاحق الأموات بمختلف أنواع الخلائق التي تملأ كوننا.

العدم

العدم أثر وجود شيء، وليس الوجود في ذاته، سواء أكان ذلك الأثر يدلّ على أثر الأحياء، أم أنّه يدلّ على أثر الأموات والأشياء المنتهية.

والعدم لم يكن الموت، ولم يكن النّهاية؛ فالموت فعل بيد الخالق، والنّهاية توقّف الفعل أو المقدرة، وليس بالضّرورة توقّف الحياة.

فبصمات الأحياء وصورهم وعيّنات دمائهم لا تزيد عن كونها أثر (عدم) يدلّ على شيء، وليس الشيء ذاته. وكذلك الرّفات البالي لأيّ شيء هو أثر (عدم) لشيء كان موجودا على قيد الحياة.

والعدم لم يكن مصدر خلق الأحياء كما يره البعض، بل هو ما يؤول إليه مصيرهم. وهو الفعل المتحقّق أثرا؛ فالعدم لم يكن فعل الموت، ولا فعل الإنهاء، ولا يكون الوجود منه. بل على العكس من ذلك لا يكون العدم إلّا من وجودٍ. فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ فالعدم هو الفعل المترتّب على الوجود الذي لا بدّ من نهايته أو موته وعدمه.

ولأنّ لكلّ بداية نهاية؛ فالوجود ليس له بدّ إلّا النّهاية، وبعد النّهاية يصبح الزّمن كفيل بجعله عدما. وإلّا هل هناك من باقٍ غير الباقي الذي يجعل من الوجود عدما؟

ولأنّ العدم يستظلّ بظلّ الوجود، فهو يلاحق الموجودات تحت ظلّه لحظة انتهائها من المشاهدة المباشرة، ومع ذلك؛ فالوجود هو: القاعدة، والعدم هو: الاستثناء. {قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[114]. فتلك العظام التي كانت وجودا على قيد الحياة، أصبحت رميما باليا لا علاقة له بالحياة إلّا البعث.

فالوجود كونه قاعدة، لأنّ صفته البقاء، والعدم كونه استثناء لأنّ صفته الانتهاء، {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[115].

ومع أنَّ الوجود الأوّل خُلق من لا شيء، بفعل الخالق، لكن من بعده كثير من المخلوقات خلقت من أشياء كما هو حال الإنسان وغيره كثير، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[116]، ثمّ كثير من الوجود خُلق تكاثرا، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[117].

وعليه: فلا (حياة) إلّا عن خَلق، ولا (إحياء) إلّا من عدم، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[118]. ولذلك؛ فالوجود سابق على العدم، والحياة سابقة على الإحياء.

ومع أنّ مفهوم العدم يختلف عن مفهوم الوجود، لكن هناك علاقة وثيقة بينهما؛ فالعدم الذي يلاحق الوجود الحي ليجعله رميما باليا، لا بدّ أن يكون فعله على قيد الحياة موجودا، وإلّا كيف له بجعله عدما؟

---

[114] يس 78 ، 79.
[115] العنكبوت 64.
[116] يس 36.
[117] الروم 20.
[118] الروم 27.

ولأنَّ العدم على قيد الحياة وجود، فلا يمكن أن يكون نقيضا للوجود بأسره، ولذلك؛ فالوجود مفهوم مطلق يحتوي كلّ شيء على قيد الحياة، بما فيها العدم، ومن هنا، فالعدم ليس نقيض الوجود، بل هو جزء منه. وإلّا هل هناك من يرى لا وجود للعدم؟

ولأنَّ للعدم أثرا، إذا؛ فهو موجود، وإلّا هل هناك من يرى أنَّ وجود الأثر لا يدل على وجودٍ؟

ولأنّ العدم موجود؛ فلا يمكن أن يكون ذا مفهوم مضادٍّ لما هو عليه (الوجود). ولتبيان ذلك، أتساءل:

ما هو دليل إثبات الوجود؟

ما هو دليل إثبات العدم؟

الوجود والعدم لا مادّة حيث لا يشاهدان؛ ولأنّهما كذلك؛ فهل يظنّ البعض أنّهما غير موجودين؟ ولكن إن اعترفنا بوجودهما؛ فماذا يعني؟ وإن اعترفنا بوجود أحدهما، وليكن الوجود، فأين الآخر (العدم)؟ أي: هل انتهى العدم من الوجود، ولن نخشاه بعد اليوم أبدا؟ أم أنّه باقٍ يلاحق الأحياء أينما حلّوا؟

أقول: كيف نقبل بأنّ للحياة الدّنيا ركائز رئيسة وعلى رأسها الوجود والعدم، ثمّ نأتي لنقول: العدم عكس الوجود؟

فإن قبلنا بذلك؛ فإنّنا كمن يقول لا وجود (لا حياة). بمعنى: وكأنّه أينما وُجد وجود عُدِم.

ولأنّ لكلٍّ من الوجود والعدم أثره، إذا، فكلاهما موجود؛ فكما خَلق الخالق الوجود خلق العدم، ولكلّ فعله، وبما أنّهما مخلوقان، إذا؛ فهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة.

وماذا يعني: أنّهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة؟

يعني: أنّ وجودهما في الحياة الدّنيا مؤقّت، ذلك لأنَّ الحياة برمّتها زائلة، {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[119]. ولأنّها الزائلة وهما جزاء منها إذن، لا شكّ أنّهما الزائلان.

ولأنّ لكلّ منهما أثره على قيد الحياة، حيث أثر الوجود البقاء (بقاء المخلوقات)، وأثر العدم الفناء (رفات الفانيات). إذا، لا شكّ أنَّ لكلّ منهما وجودا.

وقد يتساءل البعض:

ألا يعني ذلك كمن يقول: العدم أصبح وجودا؟

لا شكّ أنّ العدم وجود دالّ على وجود الفانيات، ولكنّه لم يكن الوجود بأسره، بل هو جزء منه. ولذلك؛ فالوجود عكسه الفناء وليس العدم. أي: أنَّ أثر الوجود بأسره هو الخلائق، أمّا العدم فهو أثر رفات تلك الخلائق وما تتركه من بصمة.

ولأنّ العدم لو لم يكن موجودا ما ترك أثرا، إذا؛ فالقاعدة المنطقية:

كلّ أثر موجود

---

[119] الرّعد 26.

العدم أثر

إذن، العدم موجود

ولكن ماذا يعني: أنّه موجود؟

يعني: أنّ العدم فعل من أفعال الوجود؛ فلو لم يكن الوجود ما كان العدم، ولذلك؛ فالعدم مرتبط بالوجود ولا ينفصل عنه، فحيث ما حلّ الوجود حلّ. أي: لو لم يكن الوجود، هل يمكن أن يكون العدم؟ ولهذا؛ فالعدم وجود، ولكنّه لم يكن الوجود.

فالعدم مع أنَّ وجوده متحقّق في الحياة الدّنيا، لكنّه لن يكون كذلك في الحياة الباقية؛ ممّا يجعل بقاء الوجود في تلك الحياة بلا عدم.

ولأنّ الحياة الدّنيا مؤسّسة على البداية والنّهاية؛ فهي زائلة، ولأنّها زائلة؛ فلا وجود ولا عدم.

وعليه:

فالوجود والعدم حقيقة لا فارق فيها، فحيث ما حلّ الوجود حلّ العدم، وكذلك حينما ينتهي الوجود ينتهي العدم، وفقا للقاعدة العلمية: (لكل بداية نهاية).

ولذا؛ فلو لم يكن للعدم وجود ما كان للحياة نهاية، وبما أنّ العدم موجود وله نهاية، إذا، لا يمكن أن يكون هو النّهاية، بل النّهاية عدم العدم، الذي من بعده تستمرّ الحياة.

ولذلك؛ فالوجود لم يُخلق من العدم، وكذلك العدم لم يُخلق من الوجود، ولكن كليهما مخلوقٌ لأداء مهمّة الحياة المؤسّسة على البقاء

الفاني. ولو لم يكن الوجود ما كان للعدم شأن، ولو لم يكن العدم ما كان للوجود شأن. ومن ثمّ؛ فحيثما كان الوجود بالقوّة، كان العدم بالضّرورة.

الوجود والعدم خُلقا على القوّة، ولم يكونا موضع اختيار؛ فمتى ما حان وقت الخلق يصبح المخلوق وجودا، ومتى ما وجب وقت انعدامه؛ فلا يكون إلّا عدما.

ولأنّ الوجود عن غير طلب ولا رغبة؛ فكذلك العدم يتحقّق بالقوّة عن غير طلب ولا رغبة.

ولذلك؛ فالقاعدة:

كلّ وجود يلازمه عدم

الكون وجود

إذن الكون يلازمه عدم

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا ليست وجودا مجرّدا، بل وجودا وعدما، ولهذا؛ فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنّنا نعلم ذلك؛ فعلينا أن نفكّر في كلّ شيء أكثر من مرّة، قبل أن نقدم على فعل شيء، ولأنّنا مخلوقون؛ فعلينا أن نفكّر وجودا وعدما، ولا نبقى على غير صفاتنا التي بها تميّزنا خلقا، {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[120].

[120] التين 4.

ولأنّنا على قيد الوجود أحياء؛ فإنّنا لن نكون في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فإن كنّا في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فغيرنا لن يعدّنا إلّا عدما. ولذلك لا ينبغي أن نكون كما تنصّ عليه مقولة الفيلسوف ديكارت (أنا أفكر، إذا أنا موجود)[121]. بل ينبغي أن تكون مقولتنا: (أنا موجود، إذن أنا افكر)، وبمقارنة المقولتين نتبيّن الفارق بينهما؛ فالمقولة الأولى (أنا أفكر، إذا أنا موجود) تضع التفكير شرطا للجود، وكأنّ الذي لا يفكر غير موجودٍ؛ فالكون والوجود والعدم والأنهار والمحيطات بالرّغم من وجودها لكنّها لا تفكّر؛ فهل عدم مقدرتها على التفكير يلغي وجودها؟

أمّا المقولة الثانية (أنا موجود، إذا أنا أفكر) تضع الوجود شرط للتفكير. أي: لو لم يكن ديكارت موجودا ما فكّر فيما يفكّر فيه، ولذا؛ فمن يكون موجودا ولا يفكّر فلا يعدّ عقله إلّا عدما.

أمّا قوله: (أنا أكون، أنا موجود I am, I exist)؛ فهو كمن يقول: لا أشكّ في وجودي، وهذه المقولة مع أنّها جاءت سابقة على قوله: (أنا موجود، إذا أنا أفكر)، لكنّها أكثر وثوقا؛ فالموجود لو لم يكن موجودا ما سُئل عن وجوده؛ ممّا يدعو الموجود إلى عدم الإجابة، ليكون امتناعه عنها أكبر دليل على وجوده، ومن ثمّ، يعوّض الوقت الذي أضاعه زمن استماعه لذلك السؤال، ويصبح الوقت بالنسبة له لم يعد صفرا.

---

[121] ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ص 190

موت الموت:

الموت إنهاء حياة ووجود عدم، أمّا موت الموت؛ فهو إنهاء الحياة والوجود، ولذا؛ فالموت فعل تحقيق العدم وجودا.

ومع أنّ الموت يواجه الحياة، لكنّه لا يواجه الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من ينكر وجود الموت على قيد الحياة وجودا؟

ولأنّها الحياة الدّنيا؛ فهي (حياة وموت) وهذا يعني: (أنّ نصف الحياة موت)، ولو كانت الحياة الدنيا طلبا؛ فمن يطلبها؛ سواء أكان يدري أم لا يدري؛ فهو يطلب الموت، حيث لا حياة إلّا والموت يرافقها.

فالموت والحياة كفّتا الوجود، والوجود على مستوى الشيء واللاشيء يمكن أن يكون أحياء، ويمكن أن يكون معدومين؛ فوجود الأحياء وجود خلق، ووجود العدم وجود موت، ولذلك فالخلق أثره وجود الأحياء من كلّ نوع، والعدم أثره وجود الأموات من كلّ الأنواع.

وسيبقى الموت حيّا ما بقيت الحياة، وسيبقى الأموات أثرا ما بقي العدم، إلّا الموت عندما يموت لا يترك أثرا، ذلك لأنّ الموت لم يكن أثرا إلّا على الأحياء؛ في حين أنّ العدم لا يكون أثرا إلّا على الأموات؛ فكما أنَّ النّهاية مصير الحياة الدّنيا التي تشكّل 50% من الوجود؛ فكذلك النّهاية مصير الموت الذي يشكّل نصف الوجود الآخر.

فعندما تكون الحياة الدنيا تساوي 50% من الوجود، يكون الموت مساويا 50% منه، وعندما يصبح العدم 100% وجودا، تكون الحياة مساوية صفرا. وفي المقابل عندما تكون الحياة الآخرة 100% وجودا يصبح العدم صفرا حيث لا موت.

ومن ثمّ؛ فالموت لا يخيف حيث لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئاً أكثر ممّا يفعله، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودا ولا موت.

ولأنّ الحياة الدنيا لا تساوي إلّا 50% من البقاء، في مقابل 50% موت، إذا؛ فالحياة الدنيا، جاءت منقوصة (فاقدة لمعطيات البقاء). ولأنّها المنقوصة فسميّت (الدُّنيا) أي: الحياة السُفلى، {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[122].

ولذا؛ القاعدة المنطقية تقول:

كل مخلوق فانٍ

الموت مخلوق

إذن الموت فانٍ

والتساؤل:

إذا الموت قضى على الحياة؛ فمن الذي سيقضي على الموت؟

[122] الأعلى 17.

لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق، والخالق هو الذي: {يُحْيِي وَيُمِيتُ}[123].

ولأنَّ الحياة مخلوقة والموت مخلوق، وأنّ لكل مخلوق بداية ونهاية، إذن؛ فلا مفرّ للموت من الموت، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[124].

وعليه:

فالخَلق فعل تسبقه هيئة لصورة لم تكن؛ فأصبحت قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهو وجود ما لم يكن موجودا، سواء أكان كونا بأسره، أم شيئا منه، (حيّزا أم فراغا أم حيويّة أم مجرات أم طاقة أم كواكب ونجوما، أم أنّه خَلق من هذه الأجزاء كما هو حال الأزواج التي منها آدم وزوجه).

ولأنَّ الخلق فعل الخالق؛ فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كن)، ولكن للصّيررة وجود أيضا؛ فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

أمّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن

---

[123] البقرة 258.

[124] الرحمن 26 ، 27.

يتخلّى عن القيم والفضائل إلى الانحدار والدّونية، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

ولذلك، ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا، التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا، أصبح الصّعود للقمّة مطلبا وأملا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[125]. فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهما اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه. ومع ذلك؛ فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

فبنو آدم بعد أن هدأت أنفسهم بالأنباء والرّسالات بدأوا يتذكّرون ما يؤلم ويعملون على تفاديه اتعاظا، ويتدبّرون أمورهم تحدِّيا للعوز والحاجة، ويفكّرون فيما يجب ارتقاء ويسعون إليه عملا؛ فنظروا إلى الخَلق وهم يتأمّلون فيه كيف خُلق، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[126]. حتى عرفوا أنّ الخَلق لم يكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فاستطاعوا أن يميّزوا بين الصّعب

[125] الكهف 29.
[126] الغاشية 17.

والمستحيل؛ فالصّعب قبلوا بتحدّيه ساعة بساعة، أمّا المستحيل؛ فهو ما يحول بينهم وبين إمكانية فعله.

ولأنّه كذلك؛ فلا يُفعل إلّا فعلا حيث لا إمكانية لعمله؛ فالعمل في دائرة الممكن يتطلّب جهدا لينجز، أمّا الفعل؛ فلا يكون إلّا بالأمر النّافذ، والأمر النّافذ لا يكون إلّا من الفعّال له، ومن هنا، يصبح المستحيل مستحيلا.

إنَّ العلاقة بين الخَلق والمستحيل هي: علاقة وجود الشيء من لاشيء، ثمّ وجود المستحيل خلقا من الشيء المستحيل (خَلق الشيء من الشيء) كما هو خلق الأرض، وخلق الأزواج منها، ثمّ خلق التكاثر من التزاوج (شيء مستحيل من شيء مستحيل) حيث لا إمكانية لخلق ما يُخلق.

ولهذا؛ فلا خَلق إلّا ومن ورائه خالق، والخالق لا يُمكنه أن يَخلقَ نفسه؛ فلو قبلنا بخلقه لنفسه؛ فلا استغراب أن يخلق غيره؛ فالكون الذي قال البعض عنه: إنّه خَلق نفسه، ولا خالق من ورائه؛ فلو كان كذلك، لكان على المقدرة التي تجعله يخلق غيره.

ومن ثمّ؛ فالخالق يَخلق ولا يُخلق. ومن يُخلق، سيظل جاهلا بقواعد الخلق التي خُلق عليها، ذلك لأنّ قواعد خلق المخلوق تسبقه؛ فلو لم تكن ما كان، وهي التي لا تكون إلّا بيد الخالق؛ فالمخلوق بإمكانه أن يفكّر في نفسه وفي غيره، ولكن التفكير في النّفس والغير لا يزيد عن كونه تفكيرا داخل دائرة الممكن، التي إن تمكّن منها الإنسان تمكّن من معرفة المستحيل إعجازا. ومع ذلك؛ فآفاق

المعرفة مفتّحة، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[127]. أي: لا ينبغي أن يتوقّف التفكير الإنساني عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)، بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفية التي خُلقت عليها؛ فعليهم أن يفكّروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل؛ فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل هو ما لا يتمكّن المخلوق من خلقه. ذلك لأنّ المستحيل لا يُخلق إلّا فعلا (حيث لا جهد يبذل)، أمّا الممكن فيُخلق عملا (حيث الجهد يبذل).

فقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام انكاري، بمعنى ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الابل؟)، أي: لِمَ لا تنظرون إلى الكيفية التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تقفوا عاجزين، وحينها تتيقّنون بأنّه لا إمكانية أن يخلق المخلوق نفسه.

ولذلك؛ فأوّل ما يجب أن يفكّر فيه العاقل، هو: النّظر إلى الخَلق والتأمّل فيه بلا حدود، حتى تُدرك الكيفيّة التي عليها المخلوقات لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرّد (الكيفيّة)، ولذلك؛ فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني؛ فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكنّ الله جعله

[127] الغاشية 17.

على التخيير؛ فلا إكراه، بل يجب أن يمكّن الإنسان من المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك، فإن اختار ما يسيء لخَلقه؛ فالعيب لا يلحق إلّا من لم يضع البيّنة بين يديه بيّنة.

ومع أنّ معرفة الكيفيّة الخَلقيّة، أمر مستحيل، ولكن النّظر إليها بأعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد، الذي يحفّز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرا.

ولأنّ النّظر إلى الكيفيّة الخلقية يُمكّن من معرفة المستحيل؛ فكذلك النّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت السّماء يدفع إلى كلّ ما يمكّن من الارتقاء، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[128].
ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقي هي:

علاقة خَلق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذا؛ فالنّظر إلى الشيء ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبّر الإنسان أمره عن معرفة وبيّنة، ولهذا، وجب النّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت السّماء؛ فالنّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت يمكّن الإنسان من معرفة المزيد استكشافا؛ فمعرفة الكيفيّة متى ما ألمّ بها الإنسان تمكّن من الصّعود وبلوغ المزيد من الارتقاء حيث لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة، أي: بما أنّ بني آدم يمتلكون المقدرة؛ فليرتقوا إلى السّماء بلا تردّد، ومتى ما عرفوا كيفيّة الارتقاء عرفوا إمكانية المزيد منه حتى يبلغوا معطيات ذلك الانفتاق العظيم، ومعطيات كيفيّة رتقه من جديد. وحينها سيكتشفون ما لم يسبق لهم اكتشافه؛

[128] الغاشية 17 - 20.

فلينظروا إلى السّماء، ثمّ ينظروا إلى الكيفيّة التي بها خُلقت وارتقت إلى هناك بعيدا عن الأرض التي فتقت منها. فالنّظر إلى الكيفية التي بها رُفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي بها فُتقت السّماوات والأراضين أكوانا، والتي عندما يتمّ التعرّف عليها يصبح الارتقاء قمّة متجاوزا لإحداث النُقلة المأمولة.

ومن ثمّ؛ فلا داعي للتأخّر؛ بل ينبغي الإسراع بلا تسرّع، والنّظر في الكيفيّة التي رَفعت السّماء الدّنيا عن الأرض الدّنيا، كما رفعت بقية السّماوات والأراضين طباقا؛ فلا ينبغي أن يغفل الإنسان عن معرفة الكيفية التي عليها الخَلق (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) ولا يغفل عن النّظر إلى الكيفيّة التي بها تمّ الارتفاع (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)، أي: لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من الارتفاع عن كلّ دونية، ذلك لأنَّ التفكير فيما يؤدّي إلى الارتفاع يمكّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

إنَّ النّظر إلى الكيفيّة التي رَفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي بها يتمّ تجاوز الجاذبيات جاذبية بعد جاذبية؛ فهي لم تكن شيئا مستحيلا، حتى وإن كانت على الصّعوبة، ولذلك فالنّظر إلى الكيفيّة يُمكّن من تحدّي الصّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري؛ أي: لو لم تكن الصّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوى حيوانيا، لا يفكّر إلّا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصّعاب ما كان التذكّر واعظا، ولا التدبّر موقظا، ولا التفكّر مرشدا.

ولأنّ العقل الإنساني يمكّن من الفُسحة في كيفية الخَلق والنّشوء والارتقاء؛ فهو المُمكّن من معرفة ما يؤسّس للعمل أو ينشئه عملا،

ولكن يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا جاء الخَلق مشاهدا وملاحظا حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقّف عنده وكأنّه النّهاية، بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفّزا على ما يمكّن من تجاوزه بناء وإعمارا، ولهذا؛ فالنّظر إلى كيفية خلق الإبل يمكّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلّا بفعل الخالق، والنّظر إلى كيفية رفع السّماء يمكّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه من آفاقٍ أمام العقل البشري إن أراد ارتقاء، وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصّعب والمستحيل؛ فالمستحيل (ما لم يتمّ بلوغه) بالرّغم من فسح كلّ شيء أمام العقل البشري، أمّا الصّعب؛ فهو الممكن بالرّغم من صعوبته المحفّزة على قبول التحدّي. ولذلك؛ فالنّظر إلى السّماء كيف رُفعت، نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)، ولهذا، بدأ الإنسان مؤخّرا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء.

أمّا النّظر إلى كيف نُصبت الجبال (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) فيُمكّن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمال، أي: يُمكّن من علم الهندسة في التصميم والعمران؛ فقوله دلالة: أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟ هو قول يُمكِّن من التدبّر، أي: وكأنّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيّة التي عليها أنشأت الجبال؛ فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاؤون؛ فالنّشوء في دائرة الممكن وإن كان صعبا؛ فهو ليس بمستحيل؛ فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالا من الأبراج إن استطعتم. وفوق ذلك، لا ينبغي الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السّماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السّماء، بل يجب التفكّر فيها، وكيف خُلقت

ورُفعت ونُصبت؟ ثمّ التفكير في الكيفية التي بها سُطحت الأرض، (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) حتى تعرفوا كيف تعمروها وتستخلفوا فيها علما وحضارة وارتقاء؟ وكيف تنشئون فيها حياة تمهّد لعلاقات إنسانية مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتجا يمكّن من إحداث النُقلة.

إنَّ النّظر في أيّة كيفية هو نظر تفحّص من أجل التبيّن الذي به تتمّ المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير المُمكّن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد. ولذلك؛ فمعرفة كيف سُطِحت الأرض معرفة علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهمية القيم في تحقيق كرامة الإنسان.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفية التي بها سُطِحت الأرض، عرف الكيفيّة التي بها يتمكّن من العمل، الذي لا مستحيل أمامه سوى المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازا، حيث لا خَلق إلّا بفعل الخالق.

ولأنّ الخَلق يُفعل؛ فهو الذي يُفعل بغير جهدٍ، ولذلك؛ فالخالق يفعل ما يشاء كيفما يشاء أمرا، أمّا المفعول؛ فهو الذي لا رأي له حتى في وجوده. ولذلك؛ فلا وجود لشيء إلا بفعل ليس بيده.

ولأنّ لكلّ شيء صفة؛ فصفة الخَالق لا يمكن أن تكون صفة المخلوق، ولهذا؛ فلا يمكن أن يكون المخلوق خَالقا، ذلك لأنَّ الخَلق ليس من صفاته، والخالق لا يُخلق لأنّ صفة الخَلق لا تكون إلّا

بأمره، ومن يرى غير ذلك اجتهادا؛ فَلِمَ لم يكن خالقا لنفسه؟ ولِمَ لا يخلق غيره؟

ولأنّ لكلّ مخلوق صفة خُلق عليها، وتميّز بها؛ فلا شكّ أنّه سيظل عليها متميّزا عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخاصيّة؛ ولهذا سيظل للكون الدّنيوي صفة تختلف عن صفات الأكوان الأخرى التي تعلوه طباقا، بمعنى: سيظل كوننا على صفته وإن حدثت فيه تغيّرات أنقصت من حجم ظلمته أم زادتها اتساعا، أو أنقصت من عدد مجراته أم زادتها عددا، وهكذا يمكن أن يصبح الفراغ بين تمدّد وانكماش ولكلّ وظيفته وجود.

ولأنَّ لكلّ مخلوق هيئة، ولا هيئة للخالق؛ فكان الكون على هيئته يتمدّد متسارعا، حتى يُرسم شكله وفقا لما هيأ عليه كونا، أي: لو بلغ الكون حدود وجوده كونا، لرُسِم له الشكل الذي لا يكون إلّا على هيئته، ولهذا؛ فهيئة الخلق علم الخالق، أمّا هيئة ما يره المخلوق؛ فهي في ذِهنه هيئة وستظل هيئة حتى تأخذ شكلا أو صورة بها تُدرك من قبل الغير.

والخالق لا يمكن أن يُخلق من عدم؛ فالعدم لا يكون إلّا وجودا حتى وإن كان رفاتا، فالمعدوم مفعول، والمفعول يفعله الفاعل، ولذلك؛ فالمعدوم هو: من لم يكن على قيد الحياة وجودا، ولكنّه على قيد الوجود عدم. وهذا يدلّ على وجوده السّابق قبل أن يصبح عدما بفعل الموت الذي لاحقه حتى النّهاية.

ومن هنا؛ لا يمكن أن يكون الخَلق من عدمٍ، بل الخَلق من لا شيء يذكر، أي: وجود ما لم يكن موجودا، سواءً أكان مادّة أم ليس بمادّة،

ولهذا؛ فالخَلق كيفية تظهر الهيئة في صورةٍ أو شكلٍ؛ فتلفت المخلوق العاقل لنفسه ثمّ لغيره ليأخذ بأسرار الخَلق في صناعة ما يمكن أن ييسّر له الحياة ارتقاء.

وبالنّظر لخلق الكون وفقا لِما تمّ اكتشافه وتيسّر للمعرفة؛ فهو المخلوق الذي لا سيطرة له على نفسه؛ فهو كون متمدّد في تسارعه من أجل بلوغ النّهاية التي لم تكن من مكوّنات وجوده؛ فالكون لو كان خالقا لنفسه ما كان يتمدّد متسارعا تجاه نهايته.

إنَّ الكون الذي نحن فيه خُلق مع غيرنا من الخلائق، لو كان خالقا لما كانت له البداية تمدّدا والنّهاية انكماشا، أو فتقا ورتقا، أو كما يقولون انفجارا وتجمّدا، وحتى إن اختلفت الرؤى؛ فقد اتفق أصحابها من مفكّرين ومفسّرين وعلماء فيزياء وفلك على أنّ للكون بداية ونهاية، ولهذا، نقول: خالق البداية والنّهاية سابق على خلقهما، ومن يكون بينهما خلقا؛ فلا يمكن له أن يكون خالقا، وهذا بالتّمام حال الكون الذي لو لم يكن من ورائه خالق ما كان بين البداية تمدّدا والنّهاية انكماشا.

ولأنَّ الكون لم يكن خالقا لنفسه؛ فهو على علاقة بأكوان أخرى، أي: لو كان خالقا لنفسه ما وجدت أكوان إلى جانبه، وهي التي فُتقت منه وفُتق منها، أكوان تعدّدت والخالق واحد لا يتعدّد، إنّه الواحد الذي يُعد ولا يتعدّد، ذلك لأنّ الواحد (الخالق) لا سابق عليه، أمّا الواحد المتعدّد؛ فلا يكون إلّا والصّفر نقطة شروعه ارتقاء، أو لحظة فنائه انحدارا (بداية ونهاية). ولذلك؛ فلحظة الصّفر قبل كوننا

كانت الرتق، ومن بعده ستكون لحظة الصّفر رتقا من جديد، ممّا يجعل لحظة الفتق بداية وجود متمدّد ولحظة الرّتق وجودا منكمشا.

ومن هنا، يتّضح جمال كوننا تمدّدا وانكماشا، فكلّ شيء فيه نراه كمالا نراه بعد نظرة لا يزيد عن كونه نقصا؛ ذلك لأنّ النّظر في الكيفية يختلف عن النّظر إلى الشّكل والصّورة؛ فمهما عظم شكل الكون أو صورته؛ فلا يؤتمن جانبه؛ فهو المملوء براكين وصواعق وزلازل وشهب ومجرات ونار وظلمة وماء وسماء، إلى جانب شياطين الإنس والجنّ، مع وافر القلق والألم والوجع والخوف، ثمّ الموت.

ولهذا؛ فالحياة فيه يملؤها الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل واليأس، ومع ذلك؛ فهو المهدّد بالزّوال الذي لا يكون إلّا فجأة. {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}[129]. ولأنّه كذلك؛ فلا كمال فيه، ولهذا، مهما تحقّقت فيه من آمال؛ فهي ستكون منكسرة ما لم ترتقِ بأصحابها إلى رتق السّماوات والأرض، لتكون الحياة عيشا رَغِدا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة.

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا مع أنّها مملوءة بثروات ونعم، ولكنّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل، ولهذا، بُعثَ الأنبياء والرّسل جميعهم من أجل العمل الصّالح، {وَقُلِ اعْمَلُوا}[130]، ومع ذلك؛ فالحياة الدّنيا بداية ونهاية، هي حياة ألم (ألم الولادة وألم الموت). وسيظل الألم مستمرّا

---

[129] الأنعام 31.

[130] التوبة 105.

ومتسارعا مع استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

ولذلك سيظل الكون متمدّدا حتى النّهاية التي يقف عندها الألم صفرا، وهي لا تكون إلّا بعلّة أو سبب، ولأنّها لا تكون إلّا بها؛ فهي متى ما حدثت وفّرت لنا حُكما بأنّ الكون لم يَخلق نفسه، بل خلقه الذي جعل له بداية صفريّة ونهاية صفريّة، وهي التي من بعدها ينكمش بملامسة ما يُعيده لرشده من حيث انفتق وتمدّد.

ولأنّ الكون لا يتوقّف أو ينكمش عن تمدّده إلّا بعد بلوغه نقطة الصّفر التي متى ما استشعرها أو لامسها انكمش حتما، إذا؛ فليس له بدّ إلّا التوقّف أو الانكماش إلى حيث نقطة البداية التي تعيده إلى الاستقرار بلا مخاوف، ومن ثمّ؛ عندما يبدأ انكماش الكون؛ فانكماشه سيزيح فراغا من خلفه، وفي المقابل سيترك فراغا من أمامه، ممّا يجعل ذات الحركة مؤثرة على بقية الأكوان انكماشا، حتى تعود إلى نقاط رتقها التي انفتقت منها أكوانا، والتي من بعدها سيصبح الكون المرتق كونا عظيما. {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[131].

ولأنّ الوجود لم يُخلق كلّه من لا شيء كما هو خَلق هيئة الكون؛ فهناك على الكثرة أشياء خُلقت نشوءا من الكون كما هو نشوء الأرض مكوّرة، ونشوء آدم وزوجه منها نباتا، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ

[131] الأنبياء 104.

الْأَرْضِ نَبَاتًا}[132]، ثمّ نشوء التكاثر تزاوجا، وكلّ هذه المخلوقات سواء أكانت من لا شيء أم من شيء قد أوجدت ثلاث دعائم تمكّن من معرفة الكيفية التي كان عليها المستحيل خَلقا (خلق الوجود من لا وجود)، والتي كان عليها الإعجاز نشوءا (خلق الشيء من الشيء)، والتي يكون عليها الممكن ارتقاء (بين كينونة وصيرورة)، فهذه الدّعائم تُمكّن من ربط العلاقة بين الخالق والمخلوق بما هو (مستحيل ومعجز وممكن).

ولأنَّ المستحيل هو خَلق بلا سابق (وجود لم يسبقه وجود)؛ فينبغي النّظر إليه حتى بلوغه مستحيلا، وكذلك المعجز وهو خلق الشيء من الشيء ينبغي النّظر إليه حتى بلوغه شيئا معجزا، أمّا الممكن؛ فهو مَكمن الخوارق؛ فمن بلغه عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع؛ فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

[132] نوح 17.

الفصل الثاني

النشوء

النشوء

إنَّ عملية إيجاد الشيء من الشيء تعدّ نشوءا حتّى وإن كان الشيء متناهيا في صغره لا شيئا.

فإذا سلّمنا أنَّ الانفجار العظيم من تلك الذّرة؛ فلا بدّ أن نسلّم بخلق الذّرة، ونشوء الانفجار منها، وإذا سلّمنا بخلق اللاشيء؛ فلا بدّ أن نسلّم بنشوء الشيء منه، وإذا سلّمنا بخلق الأرض؛ فلا بدّ أن نسلّم بنشوئنا منها، {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}[133].

فالنّشوء لم يكن خَلق البذرة، ولا حتّى زرعها، بل ضرب جذورها في الأرض ونموّها لتكون وجودا مشاهدا بداية ونهاية، ونشوء النبتة يمرّ بمراحل نموّ من بذرة تُبذر، إلى بذرة تُجنى، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[134].

أمّا كيف وُجدت البذرة الأولى؛ فلا أحد يعلم، ولا أحد يدّعي إيجادها، بل نبتت من الأرض مثلما نبت الإنسان منها، غير أنّ النبتة جذورها ضاربة في الأرض، أمّا الإنسان فقدميه ثابتة على ظهرها وفقا لقانون الجاذبية.

فالبذرة لا أحد يظنّ أنّها الخالقة لنفسها كما ظنّ البعض بخلق الكون نفسه من لا شيء، ولكن من يسلّم أنّ البذرة لم تَخلق نفسها؛ فعليه بتصحيح تلك المعلومة الخاطئة التي كُتبت عن خلق الكون من غير خالق بمعلومة صائبة تؤكّد أنّ: (وراء كلّ مخلوق خالق).

---

[133] هود 61.

[134] الأنبياء 104.

فالنّشوء الخلقي، نشوء تكاثر، وهو خلق الشيء من الشيء؛ فالخلق البشري الذي نشأ من آدم وزوجه، أصبح كمّاً بشريّاً هائلاً يزيد تعداده عن الستّ مليارات من البشر، أمّا تضاعف البذرة النباتية؛ فلا يحصى بيسرٍ، {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ}[135].

ولأنَّ النّشوء تكاثر؛ فالإنسان الأوّل (الزّوجان) أصبح بعد نشوئه كمّا هائلا {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا}[136]. أي: ألا يتذكّر الإنسان أنّه قبل أن يُخلق كان لا شيئا، ثمَّ خُلق؛ فأصبح شيئا من زوجين، ثمّ تزاوج؛ فتكاثر؟ إلّا يكفي هذا دليل على وجود خالق لكلّ شيء؟

وعليه: إنَّ النّشوء مؤسّس على خلق الحياة، ثمّ نشوء الأحياء، أي: لو لم تُخلق الحياة ما خُلق الأحياء، ولذلك؛ فكلّ من تُكتب له الحياة، يُخلق على الهيئة التي تميّزه جنسا ونوعا، ومن ثمّ؛ ينشأ كلّ مخلوقٍ وفقا لسلالته التي لا يمكنه الخروج عنها؛ فآدم وزوجه كونهما المخلوقان من تراب؛ فسلالتهما من طين، أمّا بنيهم؛ فسلالتهم من نطفة، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[137]. ولذلك؛ فمن أين جاءت الصّلة بالقرود، آدم وزوجه ثمّ أبناؤهما (بشرا سويّا)؛ فلا إمكانية لعلاقة سلالية بين البشر والقرود.

فالنّشوء لا يكون إلّا من شيءٍ، فلو لم تكن الأرض ما كان نشوؤنا منها، ولو لم يكن اللاشيء، ما كانت الأرض شيئا منه، ولو لم يكن

---

[135] البقرة 261.
[136] الإنسان 1.
[137] السجدة 8.

الانفجار العظيم ما كان اللا شيء، شيئا، ولو لم تكن تلك الذّرة، ما كان ذلك الانفجار العظيم، ولو لم يكن الخالق ما خُلق شيء. {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[138].

ومع أنَّ الله خلق كلّ شيء وهو الخلّاق لما يشاء، متى ما يشاء، كيفما يشاء، وأين ما يشاء، ولكنَّ البشر لا يعلمون كلّ ما خُلق؛ فهناك ما يعلمونه خبرا، وهناك ما يأخذونه أمرا ونهيا، وهناك ما يدركونه عقلا، وهناك ما يرونه مشاهدة؛ فالبشر كما يسلّمون يقينا بما يعلمونه؛ فهم يسلّمون يقينا بما يجهلونه؛ فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بالسّاعة، ولكنّهم يجهلون ساعتها، ويعلمون بالنّعيم ويجهلون نعمه، ويعلمون أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقا، ويجهلون كيفية فتقها.

ومع أنّهم لم يكونوا شهودا لحدوث الانفتاق العظيم، لكنّهم واثقون من حدوثه، {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[139]، أي: أنّه الحقّ في ذاته، حيث لا شكوك، {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}[140]، إنّه العلم البيّن الذي أبلغ عنه ولم يتحقّق بعد، وهو سيتحقّق لا محالة، {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[141]، حيث لا شكّ أنّ المستقبل آتٍ وسترون بأمهات عيونكم كلّ ما أعلمتم به قبل أن تروه؛ وهكذا ستعلمون الحقائق، سواء أكانت معلومة، أم مجهولة.

---

[138] المائدة 17.
[139] الواقعة 95.
[140] التكاثر 5.
[141] التكاثر 7.

ولأنَّ الخالق خلق الشّيء واللاشيء؛ فخلق السّماوات والأرض أشياء، وخلق ما بينها اللاشيئا، (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)؛ فما بينهما: هو ذلك الفراغ المملوء أشياء متناهية في الصّغر، وبتناهي صغرها توصف لاشيء.

ومع أنّ الخلق والنّشوء من مشيئة الخالق، لكن الخلق سابق على النّشوء حيث لا شيء قبله، أمّا النّشوء؛ فلا يكون إلّا من شيء مخلوقٍ، فينشأ منه خلق آخر، مثل خلق الإنسان من الأرض، وكأنّه لم يكن منها. وهكذا حال الأزواج المخلوقة إنشاء. {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[142].

ومع أنّ النّشوء مترتّب وجودا على ما خلق، لكنّه لا يكون إلّا وفقا للمشيئة، التي هي دائما سابقة على الشيء، أي: لا شيء ينشأ ويُخلق إلّا من مشيئة الخالق.

ومشيئة المُشيء إرادة خَلقية، خَلقت تلك الذّرة، وفجّرتها خلقا آخر، {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[143].

ولذلك؛ فَخَلق الشيء من الشيء وجَعلهِ على الهيئة والصّفة يعدّ نشوءا من مشيئة الخالق.

والنّشوء تكوين بنائي يُخلق على الهيئة والصّورة بغاية وظيفية؛ فالأرض التي خُلقت بناء مكوّرا، هيأت لوظيفة الإنبات والتكاثر

---

[142] يس 36.
[143] البقرة 117.

والنّشوء والارتقاء، {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[144].

فالإنبات في الأرض إضافة خلائق، ونشوء حياة، ولفت انتباه إلى ما يشبع الحاجات المتنوّعة والمتطوّرة، بغاية بقاء الحياة إلى النّهاية دون حاجة.

فالنّشوء لا يكون إلّا من شيء؛ أمّا الخَلق؛ فليس بالضرورة، أي: أنَّ الخلق الأوّل لم يسبقه خلق (خلق من لا وجود)، أمّا الخلق المترتّب عليه؛ فهو النّشوء (نشوء الشيء من الشيء). ولذلك؛ فالنّشوء يتعدّد من الخلق الواحد أجناس وأنواع؛ فذلك الكون المرتق خلقا، أصبح أكوانا منشأة انفتاقا، وهكذا الأرض التي خُلقت خلقا مرتقا؛ فقد كان النّشوء منها متنوّعا ومتعدّدا (زوجين) من كلّ شيء.

وبما أنّ المخلوق قبل أن يُخلق لم يكن شيئا (لا وجودا) إذا؛ فمن الذي جعله شيئا؟ وهل يمكن الحديث عن شيء لو لم يكن موجودا؟ وبما أنّه موجود، إذا؛ فمن الذي جعله شيئا؟ أي: لو لم يكن الشيء موجودا؛ فهل يمكن أن يقال عنه قد خَلق نفسه من لا شيء؟ ولماذا لا يرتقي التفكير العقلي إلى معرفة من خلقه شيئا (وجودا)، ولماذا خلقه شيئا؟ بمعنى: لماذا لا يرتقي التفكير من المخلوق المشاهد إلى معرفة الخالق الذي لا يشاهد؟

ولذلك؛ فالعقل المتأمّل في الوجود الخلقي يدرك إنّ وراء كلّ شيء مشيء له؛ فلو لم يشئه ما كان شيئا، وبما أنّه أصبح شيئا؛ فهو لم يكن إلّا وفق مشيئة، وهذه تستوجب: مقدرة خلقية، وخالق يهيئ

[144] الشعراء 7.

المخلوق للخلق قبل أن يخلقه، ومن ثمّ؛ فلاشيء إلّا من مشيء، {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}[145].

ولأنَّ خلق الشيءُ من الشيءٍ يعدّ نشوءا، إذا؛ فلا نشوء إلّا والحياة تملأه؛ فالأرض لو لم تكن على الحياة، ما كان ترابها صالحا لخلق الإنسان، وإنباته مثل النبات نباتا. إنّه النّبات الذي من بعده لا تخلق الكائنات من الكائنات إلّا تزاوجا. أمّا نشوء الأكوان؛ فلم يكن إلّا انفتاقا.

الانفتاق الكوني العظيم:

الانفتاق العظيم نشوء طرأ على الوجود الكوني الملتحم سماوات وأرض، والانفتاق لم يكن علّة خلق الكون، بل سبب تعدّده، فلو لم يكن الرّتق (الالتصاق) ما كان الانفتاق العظيم، ولهذا؛ فالوجود الكوني سابق على نشوء الأكوان؛ فالكون الذي كان مرتقا (ملتحما) في وحدة وجود، فُتق انفجارا عظيما؛ فانفصل وتمدّد سماوات وأراضين؛ حتى أصبح أكوانا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[146].

ولأنَّ أساس الخلق وجود أوّل؛ فالنّشوء مترتّب عليه خلقا، وهنا، يكمن الخلاف بين من يرى تلك الذّرة وقد انفجرت كونا بلا خالق، وبين من يرى وجود كون مرتق (ملتحم)، وقد انفتق انفجارا عظيما، حيث استقل كلّ كون بذاته، بدفعٍ شديد من ضغط الانفتاق

---

[145] الأنعام 30.

[146] الأنبياء 30.

العظيم؛ فأصبح كلّ كون على بعد شاسع عن غيره في اتجاه العلو سماوات، وفي اتجاه الدّنوِّ أراضين.

أكوان وقد فُتقت فراغا تملأه الطّاقة والمادّة حياة مثل ما تملأ معظم كوننا الدّنيوي، الذي أصبح بانفتاقه محاطا بفراغ عظيم كغيره من الأكوان الأخرى؛ والفراغ كما يشكّل الحيّز الأكبر في كوننا يشكّل حاضنة لكلّ كون، حيث لا احتكاك، ولا تماس، ولا اصطدام، والحركة والتمدّد لا عوائق.

وكما أنّ تعدّد الأكوان معلوم قرآنا (سماوات وأراضين)؛ فهو قد أصبح معلوما لدى كثير من علماء الفيزياء، ومع إنّنا نعلم أنّ الأكوان هي سماوات شداد، غير أنّنا نجهل ما هي عليه إذا ما استثنينا كوننا الدّنيوي الذي لا نعلم منه إلّا شيئا قليلا، {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[147]، أي: بُنيت فوق الأرض الدّنيا سبع سماوات مُحكمات. ولذلك؛ فالبناء الذي حدث فوق الكون الدّنيوي هو بفعل الانفتاق العظيم الذي زلزل الكون المرتق وجودا؛ فجعله أكوانا.

ولأنّ السّماوات السّبع تعلو الأرض التي نعيش عليها حياتنا الدّنيا، فهي أكوان طباق، أوّلها كوننا الدّنيوي، وفوقه ستّة أكوانا؛ ممّا جعل أرضنا الدّنيا وسماءها كونا منفصلا (مفتقا) عن الأكوان الستة التي تعلوه.

فقوله: (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) يدلّ على الأرض الدّنيا وما فوقها من سماوات، ممّا يجعل الكون الأوّل الذي نحن جزء فيه هو (السّماء والأرض معا) وإذا أردنا أن نعدّ السّماوات السّبع؛ فهي لا

[147] النبأ 12.

تعدّ إلّا أكوانا (أرض وسماء)، فالكون الأوّل (أرض دنيا وسماء دنيا)، وفوقهما الكون الثاني (أرض وسماء)، ثمّ تأتي الأرض والسّماء الثالثة (كون ثالث)، وهكذا تتعدّد الأكوان من الكون الأوّل إلى الكون السّابع سماوات وأراضين، {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}[148].

ولذا؛ فعندما يوجّه القول لأهل الأرض تذكر السّماوات السّبع، ولكن عندما يوجّه القول لأهل الكون الدّنيوي (السّماء والأرض الدّنيا)، تصبح السّماوات من فوقهم ستّ سماوات (أكوان) {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}[149]. والسّبعة طرائق هي (السّبع الشدادا) أي: السّماوات السّبع، ومن ثمّ؛ فينبغي أن يؤخذ المعني مفهوما وليس لغة.

ومن هنا؛ فقوله: (خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) الخطاب موجّه لأهل الأرض الدّنيا، الذين لا فواصل بينهم وبين السّماء الدّنيا، التي تفصلهم عن الكون الثّاني (أرض وسماء)، والذي هو الآخر ينفصل عن الكون الثّالث أرضا وسماء، وهكذا هي الطرائق سبعة أكوان.

والأكوان السّبعة بأسباب الانفتاق العظيم نشأت مرتّبة طبقا فوق طبق، من السّماء الدّنيا إلى السّماء السّابعة، ولا اختلاف في طوابقها المملوءة فراغا واسعا طاقة وحيويّة، {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

[148] الطلاق 12.
[149] المؤمنون 17.

سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[150]؛ فالذي خلق سبع سماوات (أكوان) خلقها من لا شيء، حيث لا شيء يكون إلّا مخلوقا.

وعليه:

فالسّماوات الطّباق (أكوان) كانت مُرتقة (مُطبِقة) بعضها على بعض، ولا فواصل فراغية بينها، ومع أنّها مُرتقة، لكنّها تعدّ وجودا هائلا؛ فالكون المرتق (الملتحم) كما يتمدّد شدّة حرارة، وشدّة برودة؛ فكذلك يتمدّد بينهما اعتدالا مناسبا للحياة؛ فخلقت الأزواج من تلك البيئة المعتدلة، وهي التي أصبحت أرضا دنيا بعد هبوطها وهبوط آدم وزوجه خليفة فيها. {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[151]. أي: بعد الانفتاق العظيم هبطت الأرض، وهبط على ظهرها الخلق الأوّل (أجناسا وأنواعا)، وفي المقابل ارتفعت السّماء الدّنيا، ومن فوقها ارتفعت بقية السّماوات السّبع الطّباق؛ فكانت أكوانا محاطة بالفراغ العظيم الذي هيّأ الحركة، ومهّد سبل التمدّد الكوني بين نهاية وما لا نهاية. {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[152].

ومع أنّ علماء الفيزياء يرون خَلق الكون من انفجار تلك الذّرة التي وصفوها بتناهي صغرها، لكن لا أحد منهم ولا من غيرهم شاهد تلك الذّرة المشار إليها بالانفجار قبل أن تنفجر؛ فهم فقط اكتشفوا اثر الانفجار، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟ لا أحد يعرف.

---

[150] الملك 3.

[151] البقرة 30.

[152] الذاريات 47 - 49.

ولأنَّه لا إجابة، إذا؛ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع كلّ شيء ممكن.

ولهذا؛ فنحن نرى: انفجار الأكوان (سماوات وأراضين) حدث من الكون المفتق انفجارا؛ فكان التمدّد متسارعا من أجل الوجود بداية ونهاية.

وحتى لا يأخذ أحد عنوان الانفجار العظيم تحت أيّ علّة، ليسوّقه وكأنّ الشكّ لا يلاحقه؛ فليقارن بين وجود ما وُصف بالذّرة المتناهية في الصّغر، وهي لم تُر من أحد على الإطلاق، وبين وجود كون ملتحم أخبر عن وجوده قرآنا، ثمّ انفتق انفجارا؛ فإيّهما أقرب للعقل: شيء لم يشاهد ويقال عنه قد انفجر، أم شيء أخبر عن وجوده، ثمّ انفتق حقيقة؟ {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[153].

ولأنّ قاعدة المنطق العلمي تقول:

وراء كلّ مفعول فاعل

والانفجار العظيم مفعول

إذن وراء الانفجار العظيم فاعل

ولأنَّ وراء الانفجار العظيم فاعل؛ فكيف للكون بخلق نفسه من لا شيء، ومن وراء انفجاره فاعل؟ ثمّ كيف يصدّق قول من يصف تلك الذّرة التي لم يرها، ولا يصدّق قول من أوجد الكون مرتقا، ثمّ

[153] الأنبياء 30.

فتقه يتمدّد في تسارعه بين مشاهدة وملاحظة قابلة للتقصّي العلمي الدّقيق؟

ومع أنَّ علماء الفيزياء والفلك يبذلون الجهد من أجل معرفة ما أطلق عليه (الانفجار العظيم)، لكنّهم حتى الآن يجهلون معظم حقيقته؛ فالانفجار لا شكّ أنّه عظيم هائل، ولكن انفجار ماذا؟ فهل هو انفجار ما تمّ وصفه بتلك الذّرة، أمّ أنّه انفجار شيء آخر؟ وكيف يُسلّم بأنّه انفجار ذرة، ولم يقدّم الدّليل على وجود الذّرة؟ وهل كان للذّرة مكان وجود قبل انفجارها حتى توصف بأنّها ذرة؟ أم أنّها ذرة في غير مكان ولا زمان؟ وإذا كان التحدث عن الذّرة هو تحدث عن وجود؛ فهل يكون الوجود في غير مكان وزمان؟ وهل يمكن أن يكون الانفجار لو لم يكن ذلك المنفجر سابق اعلى انفجاره؟

ومع أنَّ الانفجار الكوني حدث لا حق على وجود الذّرة المتناهية في الدّقة، ولكن هل يمكن أن يتحقّق الانفجار لو لم يكن المكان والزّمان سابقين عليه ومحتوييه وجودا؟

ولأنَّ البحاثة لم يقفوا على لحظة الانفجار العظيم، ولا على الزّمن الذي كانت فيه الذّرة قبل انفجارها، إذا؛ فكيف لهم بوصف المنفجر بالذّرة وهم لا يعلمون حقيقة وجودها؟

ولأنّه لا يقين (لا حُجّة)؛ فلِمَ لا يلتفتون إلى رتق السّماوات والأرض وانفتاقها أكوانا؟ فلو التفتوا بحثا لوجدوا أثرا شاهدا، وبخاصّة أنّهم متيقّنون من أنه لا إمكانية للوقوف عند لحظة الانفجار العظيم، واللحظة التي تسبقه.

وعليه:

ألا يكون من الأفضل أن ينطلق العلماء الفيزيائيون في سعيهم البحثي من شيء ذُكر تفصيلا عن الكون الذي يأملون معرفته، أم أنّه من الأفضل أنْ يتجاهلوه، ويتمسّكوا بأحكام لم يتّفق عليها حتّى علماء الفيزياء أنفسهم؟

ثمّ، ألا يكون من الأفضل أن يسعى علماء الفيزياء والفلك بحثا علميا في شأن الكون من شيء مخلوق، أم من الأفضل أن ينطلقوا من شيء غائب بفعل الانفجار الذي لا يسمح بالتجاوز إلى ما قبله؟

أي: إذا تمسّك علماء الفلك والفيزياء بتلك الذّرة المفترضة؛ فكيف لهم بها ولا إمكانية لبلوغها بأسباب الانفجار الذي يحول بين جهود الباحثين وبين ما يُظنّ أنّها النقطة أو الذّرة المتناهية في الصّغر؟

ومن ثمّ؛ فكيف يسلّم بعض من علماء الفيزياء أنّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له، ولا يسلّمون بمن قال: أنا الخالق، الذي خلق كلّ شيء؟ أي: كيف ينسبون فعل الخلق لمن لم يقل عن نفسه خالقٍ، ولا يقبلون نسبه لمن قال أنا الخالق؟ فالخالق لم يُخفِ نفسه حتى يدّعي البعض بما ادّعى به، أو أن يَنسُب شيئا إلى ما لا ينتسب إليه.

ولأنَّ القاعدة العلمية تقول:

كلّ شيء مخلوق من ورائه خالق

والانفجار شيء

إذن الانفجار مخلوق ومن ورائه خالق

أمّا الذين يعتقدون أنَّ الكون قد خُلق من غير خالق، فهم لا يجيبون عن السؤال: كيف انفجر الكون؟

ولذلك؛ فهم يتحدّثون عن خلقه من لا شيء وبغير خالق، وبالتالي سيظل السؤال يلاحقهم، كيف خُلق الكون من غير خالق؟ وكيف انفجر بلا أمر لانفجاره؟ وأين انفجر حتى أصبح كونا عظيما من تلك الذّرة المنفجرة؟ وكيف لذلك المتناه في الصّغر أن يلد كونا متناه في الكبر؟

أمّا القول بانفتاق الكون ورتقه أكوانا؛ فهو يعتمد على وجود المخلوق بفعل الخالق، الذي لو لم يكن ما كان الكون، ولا انفتقت منه أكوانا.

انفتاق الأرض وهبوط آدم:

بعد أن حدث الانفتاق العظيم هبطت الأرض الدّنيا بالقوّة الفراغيّة حتى استقرّت اعتدالا جاذبيا في فلكها المتوازن، وصعدت السّماء بذات القوّة المنفجرة تتمدّد إلى النّهاية؛ فشكّلتا كونا دنيويا تملأه الحيويّة والحياة، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[154].

ولأنّ أمر فتق السّماوات والأراضين بيد الخالق؛ وأنّ فتقهما جاء قبل هبوط الأرض إلى الدّنيا، إذا؛ فلا أحد يعلم الكيفية التي بها فتقت السّماوات والأرض، ولا الزّمن الذي فيه فتقت، ولا الصّفة التي جاء عليها الانفتاق العظيم، فلا أحد يعلم بذلك إلّا الذي أمر

[154] الأنبياء 30.

بفتقها سماوات وأراضين، ولا أحد يعرف إلّا الأزواج التي هبطت عليها.

ولأنَّ الزّوجين (آدم وزوجه) المستخلفين في الأرض لم يتركا لنا شيئا من هذا؛ إذا؛ فلا حُجّة بين أيدينا، وكذلك لم نعثر حتى الآن على هيكليهما العظمي لنقول هذا أثر الأنسان الأوّل، الذي قالوا عنه قد تطوّر بعد أن كان شبيه قردٍ. ولكن الإجابة العلمية وفقا للمعلومة المتوفّرة بين أيدينا حُجّة هي: (أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا).

ولذا؛ فُتقت السّماوات والأراضين؛ فكانت أكوانا، وفي كوننا علماء الفلك والفيزياء يبحثون ويتقصّون، ومع ذلك لم يعلموا إلّا قليلا، ومن ثمّ؛ فكيف لنا بمعرفة أسرار الأكوان الأخرى، ونحن لم نعلم من أسرار كوننا إلّا قليلا؟ {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[155].

ولأنّها أكوان مستقلّة بذواتها؛ فهي أكوان مخلوقة على الخصوصيّة والنّوعيّة التي تُميّز كلّ كونٍ عن غيره، وهذه من أسرار الخالق الذي يعلم ما لا نعلم، {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[156].

ومع أنَّ السّماوات والأراضين كانت ملتحمة كونا لا فواصل بينها، لكنّ الأرض كانت صالحة لحياة الخلق الأوّل قبل أن تنفتق أرضا دنيا، وهناك كان نشوء أبينا آدم مثل نشوء النّبات، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[157]، وهناك أيضا تمّ اصطفائه نبيا للخلق الأوّل

---

[155] الإسراء 85.
[156] الواقعة 61.
[157] نوح 17.

(الملائكة والجنّ والإنس)، وهناك كانت جنّة الحياة الأوّلى، حيث تمام النّعمة ورغد العيش، وفي المقابل كانت هناك المعصية، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[158]. أي: أنَّ معصية آدم وزوجه لم تكن على الأرض الدّنيا، بل كانت على ذلك الكون المرتق في وحدة وجود عظيم، أي: في جنّة عرضها كعرض السّماوات والأرض، {وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}[159].

ومن هذه الآية يمكن استقراء نهاية الأكوان التي فُتقت بعد رتق أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه مُرتقة، وهناك ستكون الجنّة التي يأملها المؤمنون، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[160].

إذا؛ فالخالق وعد بعودة الخلق إلى ما كان عليه خلقا أوّلا، وبالتّالي ستطوى الحيّزات الفراغية العظيمة التي فصلت الأكوان، وجعلت منها طرائق سماوية وأرضية؛ وسَتُرتق من جديد وجودا عظيما (جنّة ونارا) ولكلّ ثمار عمله، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[161].

ومع أنّ الإنسان الأوّل خُلق في أحسن التقويم، وكان في جنّة غير منقوصة، لكنّه لم يصمد أمام الوسوسة والإغواء؛ فأكل من تلك الشّجرة المنهي عنها؛ فأهبط به وزوجه والجنّ على ظهر الأرض من الحياة العليا إلى الحياة الدّنيا، {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ

---

[158] طه 121.
[159] الحديد 21.
[160] الأنبياء 104.
[161] الأنبياء 104.

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[162]. فقوله: (اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) المقصود هما: الإنس والجن، اللذين أصبح بينهما العداء جزء من الحياة الدّنيا.

ولأنّ الإنس الأوّل (آدم وزوجه) يشكّل طرفا رئيسا في مخالفة أمر الله، وأنّ الجنّ طرف رئيس أيضا في المخالفة، فكان حكم الهبوط عليهم بلا استثناء، {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[163]؛ فهنا جاء القول موجّه للخطّائين، الذين تمّ تبليغهم بأنَّ الأرض هي نصيبهم في الحياة الدّنيا، وكأنّ المقصود: خذوا الأرض؛ فهي قد مُنحت لحياتكم، لكم فيها مستقر ومتاع إلى حين، وستظلون عليها ما حييتم، وستموتون عليها وستحيون منها.

إنّ القول جاء أمرا حاسما بأنّ وجود الخطّائين في الكون المُرتق (الملتحم) أصبح غير ممكن، والإبعاد عن الجنّة لا مفرّ منه؛ فالجنّة التي لم يقدّر العيش فيها، من قِبل من خُلق خلقا كما هي خُلقت؛ فلا بدّ من خروجه منها؛ فكان الخروج هبوطا للأرض ومن عليها، وكان الدّرس، ولعلّه يكون الموعظة.

ولذلك، فُتقت السّماوات والأراضين، وأهبطت الأرض الدّنيا بالحياة الدّنيا، وعلى ظهرها الأزواج التي أنبتت منها وخُلقت عليها، وعلى رأسها الإنس والجنّ، ممّا جعل الوسوسة والإغواء بين بني آدم نار فتنة حتى اقتتلا.

---

[162] طه 123.

[163] الأعراف 24 ، 25.

والتساؤل: كيف يفكّ اللبس بين مفهوم خلق آدم في الجنّة وخطيئته هناك، وبين خلقه من تراب الأرض؟

الأرض التي نشأ آدم وزوجه منها كانت في زمن الرّتق مع السّماوات قطعة من الجنّة، ولذلك؛ فطينة خلق آدم وزوجه هي من طين الجنّة قبل أن تنفصل الأرض عنها، وتصبح دُنيا (سفلى)، ولكن بعد أن أهبط بهما وبمن معهما من أزواج، لم تبق الأرض قطعة جنّة، ولذا؛ فآدم وزوجه لم يخلقا من الأرض بعد انفتاقها من ذلك الوجود الأوّل (سماوات وأراضين)، بل خُلق من الأرض قبل الانفتاق العظيم، {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[164]. ولا شكّ أنَّ البقاء في الجنّة بقاء في النّعيم، أمّا البقاء في الأرض بعد انفتاقها من السّماوات أصبحت دنيا، ولم تعدّ عليا كما كانت جنّة.

إنَّ الأرض بعد هبوطها والأزواج التي على ظهرها سُلبت من نعيم الجنّة، ولم يترك لها إلّا شيء من الماء الكفيل بحياة الأزواج المتكاثرة في الحياة الدّنيا، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[165]. أي: أنّ السّماوات والأرض عندما كانت مُرتقة في وحدة الوجود العظيم كانت قطعة جنّة، ولكن بعد أن فُتقت؛ فلم يفتق معها من نعيم الجنّة إلّا الماء، الذي يحفظ الأحياء على الحياة الدّنيا، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

---

[164] طه 117.

[165] الأنبياء 30.

ولأنّ نشوء الإنس نشوء غير كامل؛ فكانت الخطيئة من الإنسان الأوّل (أصل السّلالة البشريّة)، ولذلك، لو أخذ آدم بأمر النّهي، وبقي ممتنعا عن الأكل من تلك الشّجرة، لكانت حياته مثل خلقه في النّعيم، {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[166]، ولكن التساؤل:

متى بدأت الحياة على الأرض؟

الفيزيائيون يقولون: لقد بدأت الحياة على الأرض بعد أن بردت من حرارة ذلك الانفجار العظيم؛ فتكوّنت بحارها وجبالها وسهولها وغلافها الجوي، حتى أصبحت جاهزة لاستقبال الحياة، وقد نادى بعض العلماء الفيزيائيين وعلى رأسهم العالم الألماني ريختر richter 1870، والعالم هلمهولتز Helmholtz 1894: إنّ الحياة انتقلت إلى الأرض من كوكب آخر عن طريق بذور نبات، أو حويصلات جراثيم الميكروبات، أو الأطوار ذات البيات، أو السّكون في كائنات أخرى، أو أنّ أحد النيازك قد حمل كائنات حيَّة لكوكب الأرض[167]، وهناك من يرى أنّ الأرض مرّت بزمن ارتفاع درجات الحرارة، ثمّ حلول العصر الجليدي، ثمّ أخيرا ظهر الإنسان بعد أن تمت تهيئة ظروف حياته[168].

---

[166] طه 121.

[167] http://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/204.html

[168] Cosmology: The Science of the Universe. Second edition. Edward Harrison. Cambridge University Press, 2000

وهنا، تكمن حقيقة، مفادها: أنّ دلائل تشير إلى وجود علاقة بين الأرض وكواكب أخرى، وهذا يؤكّد أن الأرض كانت غير مستقلة عن غيرها من خلائق الكون (السّماوات والأرض)، أي: أنَّ الكائنات والنباتات والنيازك السّماوية التي يعتقد إنّها قد هبطت على الأرض تعدّ مؤشرا ودليلا على أنّ الأرض والسّماوات كانتا رتقا.

ولذلك؛ فالأرض لو كانت نتاج الانفجار العظيم ذا الحرارة العالية كما قال عنها علماء الفيزياء والتي لا توصف بأيّة حرارة نعرفها، لكانت الأرض رمادا غير صالح للحياة (النّار لا تترك إلّا الرّماد)، ولكن لأنّها كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت؛ فأهبط بها وبمن على ظهرها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم إشباعا.

ومع أنَّ علماء الفلك والفيزياء يتحدّثون عن الأرض كونها نتاج انفجار تلك الذّرة، وليست نتاج الانفتاق العظيم الذي سبق علمه ما اكتشفه علماء الفلك والفيزياء، ولكن لو كانت الأرض على تلك الحرارة الموصوفة شدّة، لكانت عدما (حيث لا حياة) وهذه لا تكون صفة الأرض التي خلقت منها الأزواج، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[169].

ومع أنَّ الإنسان الأوّل خُلق من الأرض؛ لكنّه لم يُخلق من أرضٍ رمادٍ (عدم)، ولا من الأرض الدّنيا، بل خُلق من الأرض العليا التي ترابها وطينها وصلصالها جنّة. ولذلك؛ فحياة الإنسان الأوّل كانت حياة عليا، أمّا الحياة على الأرض الدّنيا فهي الحياة السفلى.

---

[169] يس 36.

أي: بمقارنة ذلك النّعيم مع ما يتوفّر على سطح الأرض الدّنيا؛ فلا مقارنة، وهنا، تكمن سُفلية الحياة الدّنيا، وفي المقابل ترتقي حياة النّعيم وتعلو.

ولذلك، في الأرض العليا (المرتقة مع السّماوات) كان نشوء الحياة فيها من كلّ زوجين اثنين، وقبل الزّوجين كان الملائكة والجنّ من خلائق الجنّة، ولكن نتيجة الإغواء الذي شبّ بين الإنس والجنّ أهبط بهما والأرض حيث أصبحت أرضا دُنيا بعد أن كانت أرضا عليا، وظلّت الملائكة في السّماوات العليا غير مخالفة لأمر الخالق، وهي لا تتنزّل للأرض إلّا لأمرٍ. {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}[170]، أي: كلما لزم أمر تنزّلها تُنزل، {يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}[171].

فالأرض بعد أن أصبحت دُنيا قلّ شأنها عمّا كانت عليه، وذلك بفقدانها صفات الجنّة التي لم يعدّ منها شيئا، إلّا شيء من الماء، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[172]؛ فالأرض خُلقت وهيأت للحياة العليا، ثمّ فُتقت بما هُيأت به للحياة الدّنيا، فكان الانفتاق العظيم انفتاق أكوان (سماوات وأراضين) وهو النّشوء العظيم، الذي به تمدّد الكون متسارعا في اتساعه، وإنّه لمن الصّعب معرفة أسراره إلّا مؤشرات.

وعليه:

---

[170] القدر 4.
[171] آل عمران 124.
[172] الأنبياء 30.

فإنّ أساس الخلق هو: كون مُرتق، ثم كون مُفتق، وفي كلا الحالتين الخالق واحد؛ فنحن بنو آدم لا نعلم إلّا ما أعلمنا به الخالق وحيا موحى، ومع ذلك لم يُظهرنا على ما اعلمنا به إلّا بمقدار، ومن ثمّ، فكلّما اكتشفنا شيئا تمكنّا من معرفة حقيقة ذلك الشيء، وفي المقابل لم ننتج حقيقة؛ فالحقيقة: (وراء كلّ مخلوق خالق)، ولذلك فمنتج الحقيقة هو خالقها، أمّا مكتشفها فهو المتعرّف عليها، وبين هذا وذاك قد يظهر مدّعيها وهو من لم يكن منتجا لها ولا متعرّفا عليها.

خلق الشيء ونشوءُهُ:

إنّ التحدّث عن الخلق لا ينفصل عن التحدّث عن الخالق (وراء كلّ مخلوق خالق)، ولكن التحدّث عن النّشوء؛ فهو التحدّث عن المخلوق وكيفية وجوده وأحواله وما يطرأ عليه من تغيّرات.

ولأنّ الخلق صُنع الخالق، فهو السّابق على كلّ شيء، حيث لا وجود لشيء إلّا خلقا ونشوءا، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[173]، وهنا يكمن الإعجاز ولا استثناء.

فالحياة مع أنّها قيد (بداية ونهاية)، لكنّها وسحَت الوجود الذي يستوعب كلّ شيء، حيث لا استثناء لشيء، والشيء إن لم يعرّف جنسا ونوعا وصفة وحجما وخاصيّة، فلا يعد إلّا نكرة، تحتويه الحياة ولا يحتويها؛ فالحياة خَلق يستوعب الوجود (كلّ شيء) سوأ أكان الشيء مادّة، أم طاقة، أم روحا، أم معلومة، ولا يكون الشيء شيئا إلّا في حيّز الوجود، ومع ذلك، ليس بالضّرورة أن يكون

[173] الزّمر 62.

الشيء ماثلا أو خاضعا للملاحظة والمشاهدة؛ فهناك من المعجزات ما لا نعلمه.

ولهذا؛ فالشيء وجود، وإيجاده مشاهدا لا يجعله في حاجة لمن يثبت وجوده، وهذا الإثبات يتعارض مع مقولة الفيلسوف ديكارت: (أنا أفكر أنا موجود) أي: بما أنّك موجود؛ فلماذا تشكّ في وجودك؟ وكيف لك أن تفكّر لو لم تكن موجودا؟ وهل تعتقد أنّ الشيء الذي لا يفكّر لا يعدّ موجودا؟

ومن ثمّ؛ فعلينا أن نميّز بين (الشيء) غير المقيد بكمّ أو هويّة، ولم يكن خاضعا للمشاهدة، ولا يقتصر وجوده على ما خُلق، وبين (كلّ شيء) وهو المحدّد، الّذي قد خُلق، ويمكن وصفه، والتحدّث عنه، ولتبيان ذلك؛ فأيهما أكثر دلالة، أن تقول: الحمد لله؟ أم تقول: الحمد لله ألف مرّة؟

بالتأكيد قول الحمد لله: غير محدّد بكمّ، ولكن قول الحمد لله الف مرّة: قول مقيّد، وكأنّ المعنى يحمل في مضمونه لا حمد بعد الألف مرّة. وبالتالي فإيهما أكثر أن تحمد الله بلا حدود، أم أن تحمده الف مرّة؟ فهكذا يكون الفرق بين الشيء الذي لا يحصى، وبين كلّ شيء يحصى وإن صعب عدّه وإحصاءه في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[174]

وعليه: فلا شكّ إنَّ كلّ شيء على قيد الحياة هو شاهد على وجوده كونه يشغل حيّزا، حتى وإن كان الحيّز لا يُرى بالعين المجرّدة،

[174] مريم 93 - 95.

ولذلك؛ فكلّ شيء يعني: كلّ ما يخُلق ويدرك ويشغل حيّزا حتى وإن كان حيّزا ذهنيا ولتكن (فكرة).

ولذلك؛ فكلّ شيء هو على قيد الحياة وجودا (خلقا ونشوءا)؛ فنحن بنوالإنسان الأوّل الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم نكن على قيد الحياة وجودا ما تحدثنا عن الحياة التي نحن قيد وجودها.

ولذلك؛ فالقاعدة المنطقية تقول:

كلّ شيء على قيد الحياة

الكون شيء

إذن، الكون على قيد الحياة

ومع أنّ الكون شيء، لكنّه يحتوي في أحشائه أشياء متناهية في الصّغر وأشياء أخرى متناهية في الكبر (خلقا ونشوءا)، وهي: التي عُرّفت فيزيائيا بـ(الشيء واللاشيء). ولكن بما أنَّ الكون على قيد الحياة، إذا؛ فمن ورائه محيي (خالق) وهنا، يتّضح الخلاف بين من يرى الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له، وبين من يراه مخلوقا.

ولأنّ الكتابة عن كلّ شيء غير ممكنة؛ فلنأخذ مثالا واحدا على شيئين في وقت واحد، وهما: (الجنّة والنار)؛ فالله الخالق خلق الجنّة، والله الخلّاق يخلق وسيخلق ما لا نعلم داخل الزّمان وخارجه؛ فقوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[175]؛ تدلّ على أنّ الله قد خلق، وهو يخلق،

[175] البقرة 82.

وسيخلق؛ فقوله: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) تعود على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وقد دخلوا الجنّة، وكذلك تعود على الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وهم في الزّمن الآن أموات في طريقهم إليها، وهي كذلك تدلّ على الذين سيلحقون بهم بما عملوا ويعملون من الأعمال الحسنة.

ولذا؛ فلو قلنا: إنّ الجنّة مخلوقة، وهي في الوجود الحي، لقال البعض: وكيف تثبت لنا ذلك؟

قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[176].

جاءت هذه الآية بصيغة الفعل المتحقّق، (وَنَادَى) ولم يقل: ينادي أو سينادي، وحدّدت هذه الآية من هم الذين نادوا؟ قال: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ)، وهذا يثبت أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان (متحقّقتان)، ومع أنّنا لم ندرك وجودهما، لكنّه علم اليقين. وإلّا كيف نعترف بأنّ السّماوات والأرض كانتا رتقا وفُتقت؟ وكيف نعترف بأنّ آدم خُلق من الأرض وهي مرتقة مع الّسّماوات جنّة، ولا نعترف بخلق الجنّة أصلا؟

ولأنّ الجنّة والنّار هما مكانا الحياة، رحمة أو عذابا؛ إذا؛ فهما شيئان عظيمان، ولذلك نادى أصحاب الجنّة أصحاب النّار (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا)، إنّه خبر يقيني حيث لا شكوك؛ فأصحاب الجنّة أحياء فيها يرزقون؛ وقد

[176] الأعراف 44.

وجدوا ما وعدهم الله به من نعيم، ولكنّهم يودّون أن يعرفوا: هلّ وجد أصحاب النّار ما وعدوا به حقّا؟ فأجابهم أصحاب النّار بقولهم: (نَعَمْ)؛ (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ).

وفي المقابل قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}[177]؛ فقول أصحاب النّار: (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)؛ تدلّ على ما يعانيه أصحاب النّار من ألم وشدّة وعذاب، كما أنّها تدلّ على: أنّ أصحاب النّار قد عرفوا أنّ الماء والنّعيم متوافر عند أهل الجنّة، أي: وهم في جهنّم تيقّنوا أنّ كلام الله هو الحقّ؛ فما قيل لهم في حياتهم الدّنيا عن النّار وجدوه حقّا (عين اليقين)، ولأنّهم وجدوه حقّا، إذا؛ فبدون شكّ أنّ أصحاب الجنّة قد وجدوا ما وعدهم الله حقّا، ولهذا، قال أصحاب النّار لأصحاب الجنّة: (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ)؛ فكانت إجابة أصحاب الجنّة (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

هذه الآيات نزلت تتحدّث عن واقع، وتستشهد به، ولم تتحدّث عن مثالٍ، أو أمنية من الأمنيات الخاصّة.

ولهذا، فالله قد أعدّ جنّات الخُلد إعجازا، {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}[178]؛ فقوله: (أَعَدَّ) تعني: أنّه خلق، وهيّأ جنّات متنوّعات، مملؤة بما تشتهيه الأنفس ممّا لذّ وطاب.

---

[177] الأعراف 50.

[178] التوبة 89.

ولأنَّ الله قد أعدّ الجنّات؛ فهو قد خلقها، ومن ثمّ؛ فالجنّة مخلوقة، حتى لا يظنّ الظانون أنّهم موعودون بشيء لم يخلق بعد.

ولأنّ الله قد خلق الجنّة قال: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}[179]؛ فكلمة: (وَأُدْخِلَ) تدلّ على: الماضي المتحقّق، أمّا مجمل قوله: (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فيها)؛ فهي المثبتة للمكان الذي أدخل إليه الذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وهو الجنّات المتنوّعة بما فيها من نعيم عظيم[180].

إذا؛ فلا شكّ أنّ أصحاب الجنّة يساقون إليها، وأصحاب النّار يساقون إليها، {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا}[181] وفي المقابل سيق المتقون إلى الجنّة زُمرا، {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}[182].

وعليه: فالجنّة لو لم تكن شيئا؛ فهل لنا بالتحدث عنها؟ وكذلك النّار لو لم تكن شيئا؛ فهل لنا بالتحدث عنها؟

ولأنّ السّماوات والأرض كانتا رتقا، وأنّ الإنسان الأوّل خُلق هناك خَلقا زوجيّا، وأنّ (آدم وزوجه) خُلِقا من الأرض الجنّة وأنشئا فيها وهي مرتقة مع السّماوات، وأنّ الزّوجين اللذين خُلقا من طينها قد خالفا وأكلا من المنهي عنه، وأنّ خالقهما قد أخرجهما من الجنّة، ثمّ أهبطا منها والأرض إلى الحياة الدّنيا، إذا، ألا تكون الجنّة

---

[179] إبراهيم 23.
[180] عقيل حسين عقيل، بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، 2015م، ص 213 - 217.
[181] الزمر 71.
[182] الزمر 73.

بالنّسبة لآدم وزوجه عين يقين، وتكون بالنّسبة لنا علم يقين؟ فهل لازال هناك شكّ أنّ الجنّة لم تكن مخلوقة على قيد الوجود؟ {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[183].

أمّ هل هناك من يظن أنّ الجنة لم تخُلق ولم يسكنها آدم وزوجه مع الملائكة والجنّ؟ ولم يهبطا منها ومن معهما وما معهما إلى الحياة الدّنيا؟ أم أنّ وجود الجنّة وما جرى فيها مع الخلائق حقيقة، ولكنّها قد ألغيت؟ وكيف يُقبل القول بإلغائها والخالق قال: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[184]؟

وعليه: فالأرض الجنّة لم تلغ من ذلك الخلق العظيم المرتق، بل فتقت؛ فأصبحت في كون من الأكوان التي فُتقت سماوات وأراضين؟

ولأنَّ الجنّة قد خُلقت مع ذلك الشيء المُرتق؛ فهي حقيقة، وشواهدها على الواقع حقيقة، وإلّا هل هناك من يكذّب أنّ ورق الجنّة لم يُخصف على آدم وزوجه بعد أن ارتكبا الخطيئة؟ {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}[185]. أم هل هناك من يظن أنّ قصّة الجنّة وخلق آدم وزوجه لم تحدث حقيقة؟ فإن ظنّ، إذا؛ فماذا يبقى له ليقول: أنا من سلالة آدم الذي خلقه الله في أحسن تقويم؟ ثمّ، إن لم

---

[183] البقرة 35 ، 36.
[184] الأنبياء 30.
[185] الأعراف 22.

يسلّم بذلك؛ فما هي الحُجّة التي بين يديه لتؤخذ حُجّة إثبات بعدم خلق الجنّة التي فيها خُلق الملائكة والجنّ والإنس وما لم نعلم إعجازا؟ ولكن إن لم يكن هناك شكّ لدى البعض، إذا؛ فلا شكّ أنّ الجنّة شيء مخلوق وخُلق آدم وزوجه فيها ونشئا من ترابها، وأنّهما أهبطا منها، وأنّ الأرض الدّنيا بلا شكّ كانت مرتقة مع السّماوات، ثمّ فتقت أكوانا.

أصل النّشوء البشري:

أصل الخلق البشري من خَلقِ الكون؛ فلو لم يكن الكون لتكون الأرض منه، ما خُلق الإنسان من ترابها، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[186]؛ فالخلق من تراب بالرّغم من اختلاف المعتقدات والمعارف العلمية؛ فلا أحد يشكّ فيه، وبخاصّة بعد اكتشاف عناصر خلق الإنسان التي هي من مكوّنات الأرض ترابا، والتي كان أكثرها نسبة الأكسجين 65%، ثمّ الكربون 18%، ثمّ الهيدروجين 10%، وتوزّعت بقية النّسب تكوينا في جسم الإنسان[187]. ولذلك؛ فلم يبق شيء يمكن أن يكون مكوّنا لجسم الإنسان إلّا وهو عنصر في الأرض، أمّا أمر الرّوح؛ فهي لم تكن من تراب، ولم تكن من مكوّنات الجسم الإنساني، بل هي المدخلة عليه إدخالا، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[188].

---

[186] الروم 20.

[187] http://alelmwalmarefa.blogspot.com.eg/2014/04/blog-post_21.html

[188] الإسراء 85.

ومع انَّ أصل النّشوء البشري من تراب، لكن الخلق البشري لم يكن ترابا، بل كان شيئا على المعرفة الممكّنة من (التذكّر، والتدبّر، والتفكّر)، ومن هنا؛ فالإنسان يتطوّر معرفة وليس جسدا؛ فالجسد أُنبت من الأرض نباتا، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[189]. فالآية تعود على البشر، ولأنّكم يا بنو آدم من ترابها؛ فأنتم نشأتم من الأرض وكأنّكم نبات من نباتها، وقوله (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ) أي، أنشأكم من الأرض نشأة، ولأنّ خلق الإنسان من الأرض، قال: (أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) ولم يقل (إنباتا)؛ ذلك لأنّ (النبات) من الأرض، أمّا (الإنبات) فمن خارجها؛ ولأنّكم يا بنو آدم من الأرض؛ فكان نشوءكم منها نباتا.

ولذلك؛ فهل يمكن لأحدٍ أن يقول: إنّه لم يكن من تراب الأرض وعناصر تكوينه تشهد عليه ترابا؟ وإذا كان الأثر خير دليل لإثبات براءة أو إدانة صاحبه؛ إذا؛ فلا شكّ أنّ عناصر خلق الإنسان من تراب خير شاهد على نشوئه منها.

تطوّر نشوء الإنسان:

تَطوّرَ الوجود من لا شيء يُدرك، إلى شيء مُدرك؛ فكان ما يشير إليه الفيزيائيون بالذّرة أو النّواة الأولى، ثمّ الانفجار العظيم الذي به أصبح الكون وجودا، والحياة تملؤه شيء ولا شيء؛ فتكوّرت النّجوم والكواكب، وكانت الأرض المكان المناسب لحياة الأزواج التي خُلقت منها خلقا، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[190].

---

[189] نوح 17.
[190] الذاريات 49.

ولأنّ الأرض مكان خلق الخلائق؛ فكانت الأجناس والأنواع جمادا ونباتا وحيوانا وبشرا، وما لا نعلم، خَلقٌ من تراب، ولكن لكلّ طينته التي تميّزه عن غيره، وفقا لمشيئة الخالق، {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}[191].

ومع أنّ خلق الإنسان الأوّل (آدم) من ترابٍ، لكنّه لم يكن ترابا، بل بشر في أحسن تقويم، هيئة وصورة وعقل، {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}[192]، أي: أنّ الإنس الذي خُلق من طين ليس بطينٍ، وهنا يكمن الإعجاز الخلقي؛ فلو كان الإنسان طينا لكان جدارا.

ومع أنّنا نتحدّث عن الإنسان الأوّل (آدم) لكنّنا نشير به إلى الجنس البشري، الذي من البدء كان خلقه على الزّوجية (آدم وزوجه)، مثله مثل بقية الخلائق، كلّها خُلقت على الزّوجية الثنائيّة، ولا شيء خُلق على الفرديّة، (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)، ولذلك؛ فيصعب علينا الأخذ القاطع بما لم ينزّل قرآنا، وهو: أنّ حواء من ضلع آدم؛ فكيف لنا بذكر حواء، واسم حواء لم ينزل في القرآن ولا مرّة واحدة؟ بل قال القرآن (زوجك) ولم يقل (زوجتك)، ومن هنا؛ فالفرق كبير بين المفهومين؛ فزوجك يشير إلى دلالة التسوية الخلقية من تراب، أمّا زوجتك؛ فأمرها يعود كما يعود أمر خلقك إلى نطفة، {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}[193]، ثمّ أكّد على أنّها (زوجك)، ولم ترد كلمة

---

[191] الحجر 19.
[192] ص 71.
[193] الأعراف 19.

(زوجتك) ولا مرّة واحدة في القرآن أيضا؛ {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}[194].

إذا؛ فخلق الإنسان تطوّر من تراب إلى بشرٍ، وكأنّه لا علاقة بالمشاهدة بين الصّفات الطينيّة، وصفات الإنسان التي خُلق عليها بشرا سويّا. ولكن هذا التطوّر خلقي، نشأ الخلق عليه نشوءا، {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}[195].

ولأنّه تعالى خَلق الأزواج كلّها، {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[196]؛ وخَلق الإنسان من بينها في أحسن تقويم، إذا؛ فقد خَلقَهُ متميّزا ومتطوّرا عن بقيّة الخلائق، ليكون على التطوّر إلى النّهاية.

ولأنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، (أحسن صُنع، وأحسن قوام، وأحسن صورة)؛ فكيف يقال عنه: إنّه حيوان متطوّر؛ فالحيوان وإن تطوّر فلن يكون إلّا حيوانا، وفي المقابل سيبقى الإنسان إنسانا وإن انحدر.

ومع أنّ داروين لم يقل إنّ أصل الإنسان قرد، ولكنّ الكثيرين نسبوا ذلك إليه، فداروين يرى شبها بين القرد وبين الإنسان وكأنّهما ابني عمومة، ولكن وإن التبس الموضوع عليه أو على البعض؛ فدائما المشبه غير المشبّه به؛ فأنت دائما غير أبيك، وأنا دائما غير ابني، وحتى التوأم لكلّ بصمته التي تميّزه عن الآخر؛ فما بالك بمن لم يكن من طينتنا ولا نحن كنّا من طينته.

---

[194] طه 117.
[195] هود 61.
[196] النبأ 8.

فالقرد لو تطوّر وأصبح إنسانا كما كتب البعض ما لم يكتبه داروين؛ لانعدمت القرود من على وجه الأرض، وإن قبل من يقبل بذلك؛ فهل يقبل بتطور القرد عند حدّ ما وصفوه به، أم أنّه ينتظر تطوّرا آخرا، مجهول الهويّة والصّفة؟ وكيف للإنسان الذي يعلم بطينة خلقه، وحُسن تقويمه، أن يقبل الانتماء إلى طينة هي أقل شأنا منه؟

إنّ الخلق في أحسن تقويم، هو خلق تميّز تفوّقي على كلّ المخلوقات، جن وملائكة، وكائنات أخرى، وإلّا هل هناك من ينكر اصطفاء أبينا آدم نبيا للملائكة والجن والإنس؟ {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[197]، أي: أنَّ الله تعالى قد فضّل آدم على الجميع، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[198]، والأسماء كلّها هي الأسرار التي لم يعلمها الملائكة من قبل حيث أسبقية خلقهم على آدم. {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[199]؛ فآدم كونه النّبي أنبأهم بما أنبأه الله به، وهو (ما يعلمونه من قبل وما لم يعلمونه). {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[200].

ولأنَّ آدم نبي سجد الملائكة له طاعة لأمر الله، (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا)، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الملائكة أفضل

---

[197] البقرة 30.
[198] البقرة 31.
[199] البقرة 33.
[200] البقرة 34.

من آدم؟ لو كان الملائكة هم المفضّلين عند الله على آدم لكان الرّكوع من طرف آدم وليس الرّكوع له طاعة لله تعالى.

وعليه: كيف يَقبل عقل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضّله على الملائكة، بأنّه قد تطوّر من كائن حيواني إلى بشرٍ؟ مع علمه أنّه قد خُلق في أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[201].

فالعالم داروين مع أنّه لم يجزم بقوله: إنّ الإنسان والقرد يعودان لأصل واحد إثباتا، لكنّه يظن أنّهما يعودان، من خلال التشابه في بعض صفات الهياكل التي أخضعت للمقارنة البحثية.

ونحن نقول: السّلالات خُلقت خلقا مستقلا، ولكلٍّ خصوصيته؛ فلا الذّباب يصبح جرادا، ولا القمح يصبح شعيرا، ولا التفاح يصبح ليمونا، ولا الحمير تصبح خيلا، ولا الكلاب تصبح ذئابا، بل لكلّ سلالته، ولكلّ سلالة جيناتها التي تميّزها عن الجينات والسّلالات الأخرى. ومع ذلك؛ فإنْ تشابهت المخلوقات؛ فالخالق واحد، ولكن التشابه لا يدلّ إلّا على تباعد الخصائص، ووجود الاختلاف، حيث لا تطابق. ولهذا؛ فمهما تشابها المتشابهون؛ فهم مختلفون.

وعليه:

هل يليق بنا أن نقول: كلّ من لديه معدة هو من أصل واحد؟ وكلّ ما له فقرات هو من جنس واحد؟ وكلّ من لدية جهاز تنفسي هو من نوع واحد؟ وكلّ من لديه عقل يعود إلى جدّ واحد؟

---

[201] التين 4.

فمع أنّ العقل يميّز خلق الإنسان، ولكن كلّ الكائنات لها عقول، ولها من الذّكاء ما يميّزها؛ فالطيور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما نظّم علاقاته تنظيما رفيعا، والفئران لها من الذّكاء ما يتعب القطط، وتحايل الثّعالب يرهق الحرّاس، وذكاء الغربان تجاوز معرفة الإنسان، {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[202].

وكذلك مع إنّ الخالق خَلق الإنسان في أحسن تقويم، لكنّه لم يقصر حُسن خَلقه على الإنسان وحده، بل كلّ شيء خَلقه على الحُسن، فما يره البعض على غير حُسنٍ، يراه البعض على الحُسن تماما، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[203]، أي: أتقن الله الحُسن في كلّ شيء خلقه، كونا ومخلوقات كونية، وفي مقدّمتها جاء خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ كان الحُسن والجمال والزّينة في بقية الخلائق، {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[204]. ولهذا؛ فكلّ شيء خُلق على القانون الخلقي موزونا، ولا شيء يُخلق عبثا؛ {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[205].

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، إذا، لا يوجد مخلوق أفضل منه، ومن ثمّ، فمن يُسلّم بالتطوّر الحيواني المزعوم؛ فينبغي عليه أن ينتظر تطوّرا آخر، ولكن ليعلم أنّه لا أفضلية بعد خلق الإنسان

---

[202] المائدة 31.
[203] السجدة 7.
[204] النحل 8.
[205] المؤمنون 14.

الذي خُلق على الزوجية كغيره من الخلائق. {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}[206].

ومع أنَّ لنظرية داروين باع في علم النّبات والحيوان، وما قدّمته من مقولات تتعلّق بخلق الإنسان ونشوئه وتطوّره، لكن يظل للتقدّم العلمي كلمته في تغيير كثير من المقولات الداروينية، وبخاصّة التي ترى: أنّ الفناء والهلاك للكائنات الضّعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وفقا لقانون (البقاء للأصلح) حيث يبقى الكائن القوي السّليم الذي يورث صفاته القويّة لذريّته، وتتجمّع الصّفات القوية مع مرور الزّمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو (النّشوء) الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصّفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطوّر ارتقاء[207]. ولا شكّ أنّ الضّعف والوهن لا يولّد القوّة الفاعلة، ولا يجعل بقاء صالحا، وأنّ القوّة المناعية المتوازنة تمكّن أصحابها من البقاء الأفضل، ولكن فوق هذا وذاك سيظل للتقدّم العلمي كلمته في تفادي الضّعف وتغييره إلى قوّة، وكما نعتقد سيكون الزّمن كفيل بذلك. {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[208].

ومع أنّ ما نظّر له داروين مؤسّس على البحث والتقصي العلمي، لكن تطوّر العلوم وصل إلى اكتشاف كثير من أسرار خريطة الجينات الوراثية، وبإمكانه تحسينها واستبدال المشوّه منها بما هو

---

[206] الشورى 11.

[207] تشارلز داروين، أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي)، ترجمة مجدي محمود، 2004، ص 154 – 157.

[208] الإسراء 85.

أرقى؛ من أجل نشوء بشري وحيواني ونباتي خالي من العلل، وهكذا سيكون التطوّر من حسنٍ إلى أحسن، ومن أفضلٍ إلى ما هو أفضل منه، وبالتّالي في الوقت الذي فيه البيئة تُلوّث، فيه العلم يتطوّر حتى يمكّن من تطهيرها إن حَسُنت إداراته.

الحلقة المفقودة missing link:

مع أنّ سلسلة التكاثر الخلقي متّصلة ولم تنقطع، ولكن معرفة الأثر المشترك الذي يعود إليه الجنس البشري ومن قالوا عنه الشبيه (الشمبانزي) لم يعثر عليه بعد، لتكون الإجابة حلقة ربط بين ما تمّ اكتشافه من معرفة، وبين ما لم يتمّ اكتشافه، ولذلك؛ فالحلقة ستظل مفقودة، وبخاصّة أنّ الطبيعة تتعرّض للزلازل والبراكين كما تعرّضت للطوفان (زمن نوح)، وهذه الحقائق من علل إخفاء الأثر الذي على أثرها يمكن أن يظل حلقة مفقودة، أو أنّه يجيب على افتراضات من لا يرى إلّا ما يراه مشاهدة.

أمّا القول: إنّ داروين قال: إنَّ أصل الإنسان قرد؛ فهو بحقّ لم يقله، ولكن الكثيرين البسوه قميصا غير قميصه، فهو لم يتحدّث عن الصّلة بين الإنسان والقرد إلّا تشابها؛ فمحتوى قوله: (يوجد شبه بين الأثر العظمي للإنسان والقرد، وكأنّهما يعودان إلى أصل واحد). وهذا القول حفّز البحاث على بذل المزيد من الجهد، من أجل المزيد المعرفي. وبخاصّة أنّ داروين لم يقتصر رأيه على العلاقة التشابهية بين الإنسان والقرد، بل وسّع استنتاجاته بقوله: إنّ كلّ الفصائل لها جد مشترك (قديم). ومع ذلك فما قاله داروين لا

يزيد عن كونه افتراضا محفّزا على مزيد من البحث العلمي والتقصّي الدّقيق.

ولكن؛ ما قاله داروين قد فتح بابا للتّحاور والنّقاش وتبادل الحُجج العلمية والمنطقية، وتبادل ما يتوافر من مسلّمات ودلائل يمكن أن تصحّح معلومات خاطئة بمعلومات صائبة، ومن ثمّ؛ فلا احتكار للمعرفة، وبخاصّة بعد اكتشاف خريطة هندسة الجينات الوراثية التي أضافت إلى معارف الإنسان ما لم يكن يعرفه من قبل، وبالتّالي يمكن من خلالها الوصول إلى مزيد من التفسير العلمي المؤدّي إلى معرفة الحلقة المفقودة، أو تسلسل حلقات الوجود الخلقي أجناسا وأنواعا وسلالات حيث لا حلقة مفقودة.

ولأنّ الخالق واحد، إذا؛ فلا استغراب ولا تعجّب من وجود التشابه بين خلائق الخالق.

ومن ثمّ؛ فحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، ولكلٍّ منهما أهمية: فأهمية الاختلاف حتى وإن كان أقل من 1%؛ فهو الدّليل على وجود الخصوصية والتميّز والتنوّع.

أمّا أهمية التشابه بين الكائنات والإنسان؛ فستكون نتائج التجارب التي تجري عليها (على تلك الكائنات الشبيهة) ذات أهمية عظيمة على الإنسان، سواء من حيث اكتشاف الأمراض والوقاية منها، أم من حيث علاجها؛ فإجراء التجارب على الحيوانات المتشابهة جينيا مع الإنسان ذات فائدة على صحة الإنسان وسلامة بيئته التي تحوطه وتحتضنه.

ومع أنّ التحدّث في السّابق كان عن وجود تشابه كبير بين الإنسان والشمبانزي، ولكن الدّراسات العلمية الحديثة أثبتت أيضا وجود علاقة كبيرة بين جينات الفأر والإنسان، وقد بلغت نسبة التشابه الجيني بينهما 99%، وهي بالتمام مثل النّسبة الجينية بين الإنسان والشمبانزي اللذان يشتركان في جينات متشابهة بنسبة 99% أيضا[209]. ولهذا ستتعزّز ثقة الباحثين فيما يجرونه من تجارب مختبرية لدراسة الأمراض التي تلمّ بالبشر[210].

ومهما كان التشابه متقاربا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات؛ فهو لا يعني تقاربا في كلّ الصّفات والخصائص؛ فالشمبانزي والفأر والإنسان وإن كان التقارب بينهم في الجينات الوراثية كبيرا جداً، ولكن سيظل الفرق بينهم واسعا في صفات أخرى، سواء أكانت صفة شكل، أم هيئة، أم معرفة، أم علاقة، أم ثقافة وحضارة، أم تذكر، أم تدبّر، أم تفكّر، أو حتى سكون وحركة، ولذا؛ فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابه مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فعلى ماذا يدلّ ذلك؟ بلا شكّ أنّه لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

ولهذا؛ فمهما تقاربت الصّفات بين الخلائق؛ فلا يمكن أن يتساوى البائع والمُباع، ولا يمكن أن يتساوى الصيّاد والطريدة؛ فالفأر سيظل فأرا بعيد الصّفات عن صفات الإنسان، كما تبعد عنه صفات القرد الخاصّة به، ولكن هذا لا يعني تقليل شأن التشابه الذي تمّ

---

[209] أميمة خفاجي، قضايا وأراء، جامعة قناة السويس، 24 أغسطس، 2003، العدد 42629.

[210] جريدة الشرق الأوسط الخميس 30 رمضان 1423 هـ 5 ديسمبر 2002 العدد 8773

اكتشافه في الجينات الوراثية بين الإنسان والفأر والقرد؛ بل ما ثبت من تشابه؛ فستكون نتائج تجاربه بلا شكّ ذات فائدة على الإنسان.

ومع أنّ البحاث يسعون إلى مزيد من البحث العلمي من أجل معرفة الحلقة المفقودة، ولكن معظم المتشابهات المشتركة بين الإنسان وبقية الحيوانات هي متماثلة بالتّمام؛ فكلّها تتوالد وتتكاثر تزاوجا، وأجهزتها لا تختلف وظيفة؛ فالكليتان هما الكليتان وظيفة، والمعدة هي المعدة، والجهاز التنفسي هو الجهاز التنفسي، والرّضاعة هي الرّضاعة، وهكذا بقية الحواس هي الحواس، والحمل هو الحمل، {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[211]، وغيرها كثير، ولذا؛ فلا حلقة مفقودة بين المتشابهات، بل الحلقة المفقودة حيث لا إمكانية للتطابق.

ومع أنّ داروين قد بحث وفسّر، وفتح بابا أمام من يجتهد، حتى يتمّ اكتشاف مصادر حلقات السّلالات النوعية، والجينات الوراثية للأجناس والأنواع، ولكن هذا لا يعني أن يُضرب بقول الخالق عرض الحائط وهو المنزّل للحقائق التي يتساءلون عنها قبل أن يخلق داروين الذي أصبح عنوانا في ميادين علوم الحياة.

فالله قال: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[212]، فقوله: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ) لم يستثنِ شيئا إلّا وقد خلقه على الزّوجية خلقا مستقلّا عن الأزواج الأخرى، ثمّ، قال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[213]. إنّها عملية خلقية مُحكمة لم

---

[211] الزمر 6.
[212] الذاريات 49.
[213] الزمر 6.

تترك ثغرة لنفوذ نوع إلى نوع آخر إلّا وفقا لسلالته، ولذلك لا تشويه لخلق الله، مع أنّ البشر بإمكانهم التدخل للتّشويه الشكلي والظاهري، أمّا الجينات وإن تمّ التلاعب بها، لكنّها ستظل خاصّة مثل البصمة.

نشوء الإنسان مقوّم:

التقويم الإنساني يعدّ خَلقا وفقا لما يجب، وهذا الخلق هو الذي نشأ الإنسان عليه، ولكن قرار الإنسان في دائرة التخيير هو بيده، وبالتّالي يمكنه أن يستخدم حُسن التقويم فيما يجب، وهنا تكمن القوّة، ويمكن أن يستخدمه فيما لا يجب، وهنا يكمن الضّعف.

فالإنسان دائما إنْ أراد تحدّي الصّعاب؛ فعليه بامتلاك القوّة، والسّعي على استمدادها من مصادرها حفاظا على بقاء حُسن التقويم، ولكن كيف تستمدّ القوّة من القوي؟ والله قال: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}؟

الإنسان في أساس خلقه، خُلق على القوّة، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[214]. وأحسن تقويم، أحسن تصويب، وأحسن خِلقة ممّا خلق من المخلوقات كلّها؛ فكلّ المخلوقات، من ملائكة وجنّ وغيرها، جاء الإنسان مفضّلا عليها في الخَلق والتقويم؛ فالإنسان كونه مخلوقا مفضّلا، لم يكن على الضّعف، ولكن في غير مقارنة، إنّه الضّعيف أمام قوّة الخالق تعالى، كما أنّه الضّعيف أمام الشّهوة؛ فعندما تغالبه الشّهوة، يكون ضعيفا، ذلك لأنّ الشّهوة هي: الضّعف الذي خُلق الإنسان عليه، فإن سيطرت الشّهوة على عقل الإنسان

[214] التين 4.

وقلبه، كان الإنسان على طبيعة خلق الشهوة ضعيفا، ولكن إن هيمن العقل والقلب على الشّهوة؛ فالإنسان لا يكون إلّا قويّا، وهذه صفات لا تستمدّ إلّا من صفات الخالق، ولأنّها تستمدّ من صفاته تعالى؛ فصفاته قوّة، وهي: مصدر لكلّ قوّة.

ومن ثمّ؛ فالاستغراب أن يغتّر الإنسان بنفسه؛ فلا يلتفت إلى ما يجب أن يَقدِم عليه قوّة، وما يجب أن ينتهي عنه قوّة، وهنا، يكمن الضّعف، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}[215].

ولأنّ الإنسان في أساس خلقه، قد خُلق على القوّة؛ قال الله لموسى: {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[216].

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي يستطيع أن يأخذ ما يأخذه بقوّة؟

أقول: الذي يمتلك قوّة تمكّنه من الأخذ أخذا؛ ولأنَّ القوّي تعالى يعلم أنّ المخاطب قويا قال: له: (فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ)، ولأنّه قوي، قال له: (وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا)، أي: عليك يا موسى أن تأخذها بقوّة، وعليك أن تأمر قومك بقوّة الأخذ بأحسنها. أي: أنّ القوي الأوّل هو الله؛ فأمر موسى بقوّة الأخذ؛ فأخذها موسى بقوّة طاعة للأمر، ثمّ إنّ موسى بقوّة أخذه أمر قومه أن يأخذوا بأحسنها.

---

[215] الانفطار 6، 7.

[216] الأعراف 145.

ومن غير مقارنة، كلّ المخلوقات هي على الضّعف أمام قوّة الخالق، ولكن أقوى المخلوقات وأفضلها هو: الإنسان، {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ}[217]، اصطفاه مفضّلا على الملائكة والجن، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[218].

ومع أنّ آدم تمّ اصطفاؤه نبيا للملائكة والجنّ والإنس، لكنَّ الله أهبطه على الأرض، بعد خطيئة ألمّت به وزوجه، بأسباب الشّهوة التي أضعفته؛ فكان على الأرض نبيا قويّا، بقوّة النبأ الذي سجدت له الملائكة.

وعليه: فالإنسان بقوّة الشّهوة يضعف؛ فيخطئ، كما أخطأ أبونا آدم، وبقوّة الإيمان الإنسان يقوى؛ فيستغفر، ويتوب؛ ولذلك فالأقوياء لا خوف عليهم، (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولكن الخوف على الضّعفاء الذين فقدوا القوّة.

ولأنَّ نشوء الإنسان كان خلقا معجزا في أحسن تقويم؛ فبه كان الإنسان مفضّلا، ولكن لأنّه في دائرة التخيير؛ فقد لا يحافظ على تفضيله، ويلقي بيديه إلى التهلكة، {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}[219]. وهنا يكمن الضّعف، ومع ذلك؛ فالضّعف قابل للتغيير إذا ما تبنّت أيدي الأقوياء أيدي الضّعفاء. أي: أنّ الضّعف إذا لحق البعض بما عملت أيديهم؛ فينبغي على البعض الذي يده قويّة أن يتحمّل مسؤوليته تجاه الضّعفاء، {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي

---

[217] آل عمران 33.
[218] البقرة 34.
[219] البقرة 159.

الرِّزْقِ}[220]، إنّه التفضيل الذي ينبغي أن يقدّر من قبل القادرين رزقا؛ فيأخذوا بأيدي من ضعف جهدا أو معرفة أو مالا، حتى ينهض ارتقاء، إلى ما يجب أن يكون عليه عملا ومعرفة.

ومع أنّه التفضيل، لكنّه كما يكون على (التميّز) يكون على (التمييز)؛ فالتميّز: هو نشوء خاصيّة قد تكون خلقية كما هو تميّز البشر عن بقية الخلائق، وقد تكون الخاصيّة تميّزا بالعمل؛ {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[221].

أمّا التمييز: فمنه التمييز الخَلقي، ومنه بأيدي النّاس؛ فالخَلقي فيه تساوي ميز حيث كلٌّ مميّز بخاصيّة، {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[222]؛ فلا ينبغي أن يتمنى الذّكر أن لو خُلق أنثى، ولا ينبغي أن تتمنى الأنثى أن لو خلقت ذكرا، لأنّ كلّا منهما خُلق مفضّلا بما خُلق عليه من نوع (ذكر وأنثى).

أمّا التمييز الذي بأيدي النّاس؛ فهو المتعارض مع التفضيل الذي ينبغي أن ينشأ الخَلق عليه؛ فالخالق فضّل النّوعين (الذّكر والأنثى) ونهى عن التفضيل بغير حقّ، (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)؛ فالتمييز بين النّاس يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا؛ فإن كان بالعمل؛ فلا شكّ الذي يعمل غير الذي لا يعمل، ولكن إن كان على حساب ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليات؛ فلا ينبغي، وهنا تكمن المظالم.

---

[220] النحل 71.
[221] الزلزلة 7 ، 8.
[222] النساء 32.

نشوء الأزواج:

النشوء الزّوجي نشوء إعجازي تلازمي؛ حيث اقتران الأزواج خلقا من تراب {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ}[223]، خلقا تلازميّا ولا تفرقة، ولا أفضلية لمخلوق على مخلوق من ذات النّوع؛ فالإنس كونه سلالة طينيّة، خلقه النوّعي واحد (الذّكر والأنثى)، ولذا، جاء نشوء البشر من نفس واحدة (من طينة واحدة).

ولأنّ الخلق الأوّل زوجي؛ فلا أحد خُلق من أحدٍ، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[224]. ومع ذلك؛ فالبعض يتسأل:

وأين نحن من خلق حواء التي خُلقت من ضلع آدم؟

عندما تكون الإجابة من الله تعالى قاطعة للشكّ؛ فلا داعي لغيرها، وعندما يختلف قول البشر عن قول الله؛ فلا مجال للظنّ؛ فكيف الله يقول: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) ويأتي البعض ويقول: خُلقت حواء من ضلع آدم؟

فقوله من كلّ شيء، لا يستثني شيئا من الخلق الزّوجي، فكلّ المخلوقات خلقت على (الزوجيّة)، ولم تخلق من (التزاوج)، فالتزاوج اختياري وهو الذي حصل بعد الخلق الأوّل للإنسان الأوّل، {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[225]؛ فمن نفس واحدة،

---

[223] الروم 20.
[224] الذاريات 49.
[225] الأنعام 98.

تعني: من طينة واحدة، أي من نفس الطّينة؛ فلا أحد أفضل خلقا من الآخر، {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[226].

إذا؛ فمن نفس واحدة تدلّ على وحدة الخَلق الزّوجي، ولا تدلّ على أسبقية آدم على زوجه، ولذا؛ فكيف لنا بأخذ القول: إنّ زوجه قد خّلق من ضلعه والله يقول: (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)؟

ومع أنّ النّشوء البشري من نفس واحدة، وهي: (الإنس) ولكن لكلّ نفسه، {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}[227]، أي: جعل الأنفس من بعد آدم وزوجه، أنفسا متعدّدة؛ فبعد ذلك النّشوء الزّوجي من طينة واحدة (النّفس الواحدة)، وهي طينة خلق (الإنس)، أصبحت الأنفس تتعدّد ولادة وسلالة زوجية، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[228].

تبيّن هذه الآية تطوّر النّشوء البشري بداية ونهاية؛ فبداية كانت السّلالة الخلقيّة من طين، والسّلالة هنا، النّوع ذو المعدن الثّمين، ولذا؛ فسلالة نشوء البشر جاءت نوّعا متميّزا عن بقيت السّلالات، أي: أنّ سلالة نشوء الإنسان الأوّل (آدم وزوجه) سلالة طينية (تراب). ولكن أيّة تراب؟ إنّه الصّلصال، وهو أجود أنواع الطّين

---

[226] النساء 32.
[227] الشورى 11.
[228] المؤمنون 12 - 16.

الخَلقي، {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}[229]، والصّلصال لم يكن فخارا، بل يشبهه؛ فجاء التشبيه لتقريب المعني والتعريف بالمشبه (كَالْفَخَّارِ)، ومن ثمّ فقد ارتبط الصّلصال بالنّوعيّة الرّاقية والجودة الرّفيعة.

نشوء التزاوج:

التزاوج ثنائية الأفراد المستقلّين (آدم وزوجه)؛ فكان النّشوء من بعدهما ليس خلقا مباشرا كما هو خلقهما من نفس واحدة؛ فهما وإن خُلقا على الفردية، ولكنّهما من طينة واحدة (نفس الطّينة) نفس واحدة.

أمّا التزاوج؛ فهو التقاء توافقي نتج عنه نشوء وسلالة ليست من طين، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[230]، أي: من نطفة، {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}[231]، فالخلق الذي جاء بالإنسان الأوّل انتهى بوجود (آدم وزوجه) ثم نشأت سلالة خلقية مبذورة من صلب الإنسان الأوّل، وهذه السّلالة لم تكن من ذلك الطّين (التراب) الذي خُلق منه آدم وزوجه في أحسن تقويم. وكيف لا يكون الإنسان في أحسن تقويم، وهو المخلوق في الجنّة من صلصال كالفخار؟ فهذه لا استغراب فيها، ولا مفاجئة، ولكن الاستغراب: لماذا لا يحافظ من خُلق في أحسن تقويم على حُسن تقويمه؟

---

[229] الرحمن 14.
[230] السجدة 8.
[231] المؤمنون 13.

ومع إنّ نشوء السّلالة الجديدة كان بذرة (نطفة)، لكنّه لم يبق بذرة (نطفة)، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، حيث دبّت الحياة من زوجيّة مشتركة في علقة مشتركة تخصيبا. (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي: أصبحت السّلالة تتكوّن دما ولحما، ثمّ عظاما (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، ثم كسيت العظام لحما بدنيّا على صورة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، حيث اكتمال الخلق نشوءا على صورة أخرى، وكأنّه مشاهدة لا علاقة له بالمراحل الخلقية السّابقة، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}[232].

أي: أنّ السّلالة البشرية ستظل بحكم قانون الوراثة، جينات ثابتة بداية ونهاية (بداية خلقية ونهاية عدمية)، بمعنى: سيكون أثر السّلالة البشرية بداية من النّطفة ونهاية بالأثر ولو كان رفاتا ترابيا؛ فاليوم أصبح البحث العلمي متقدّما في اكتشاف الأثر الجيني والوراثي الذي يبقي الجنس والنّوع والنّسب دون لبس ولا غموض.

ولذا؛ فلا إمكانية لتطوّر الكائنات لتكون خارج الجنس أو النّوع الذي خُلقت عليه خلقا، وبخاصّة بعد اكتشافات (DNA) التي تحمل معلومات وراثية (المورثات والجينات)، ومن ثمّ؛ فلو كان القرد ابن عمّ الإنسان كما يقول داروين؛ فهل سيظل هذا سرّا أمام معرفة DNA لكلّ من الجنسين؟

وعليه:

خُلقت الحياة أزواجا، ونشأت الحياة تزاوجا، فكانت الحياة مكوّنة من (وجود وعدم) حيث الموت في ملاحقة الحياة؛ ولكلٍّ أسبابه كما

---

[232] آل عمران 34.

هو حال ابني آدم، اللذين كان الصّراع بينهما صراع بين حقّ وباطل، {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}[233]. ومن هنا، بدأ النشوء مرحلة جديدة بين زيادة ونقصان (مواليد وأموات).

ولكن دائما التزايد أكثر من النقصان، وبخاصّة بعد الرُّقي العلمي، ومقاومة الآفات، حيث أصبح متوسط الأعمار ناهضا عمّا كان عليه في سنين الانحدار العلمي.

وهكذا سيظل التحسّن البيئي والغذائي والمناعي من عوامل البقاء الرّئيسة، شريطة أن يسود السّلام المخرج من تلك المأساة التي حدثت بين ابني آدم، الذي أصبح الخلاف من بعدهما يدبّ بين الأخوة والأقارب والأباعد على القيم والفضائل والحاجة، والمكانة والمصلحة. وبالتالي؛ فالوجود الذي كان في أحسن تقويم بقاءً، أصبح نشوءا متأثرا بهذه العلل، فُرقة وخلافا واقتتالا، عوضا عن التّعاون المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة من أجل الارتقاء والبقاء الأصلح.

فبعد تلك السّابقة المؤلمة بين ابني آدم، أصبح البقاء للأصلح قوّة، بدلا من الأصلح قيمة أو فضيلة، ما جعل النّشوء البشري معرّضا للتهلكة والفناء، أكثر من تعرّضه للبقاء ارتقاء.

إنّ غِلظة القلوب على القلوب تنزع بالبشر إلى نشوء منحدرٍ ترتفع فيه أسهم السّلاح أكثر من ارتفاع أسهم القيم الإنسانية. ولكن مع ذلك؛ ستظل المعلومات الصّائبة تصحح المعلومات الخاطئة.

---

[233] المائدة 30.

فعلى المصلحين أن لا يستغربوا ما يجري من انحدار نشوءٍ بين البشر، لأنّ حقيقة البشر هم بين مهتدٍ وضال، ومستقيم وسقيم، وعادل وظالم، وفقيه وجاهل، ولذلك قال تعالى: {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[234]، {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[235]، {أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[236]. وغيرهم من الكثر كثير.

ومع أنّ الخلق البشري كان في أحسن تقويم، لكن نشوء الكثرة أصبح على غير هذه القاعدة القيمية، ومن ثمّ، أصبح النّشوء منحدرا من منصّات القيم الحميدة والفضائل الرّفيعة إلى سُفلية الوجود، التي جعلت بعض العلماء والمنظّرين يصفون ما يشاهدونه ويلاحظونه من انحدار قيمي بأنّه ميل الإنسان إلى الحيوانية على حساب البقاء الأصلح والنّشوء الرّفيع، ممّا دعاهم إلى البحث عن آثار الإنسان الأوّل لعلّه لم يكن إنسانا.

وباكتشافهم وجدوا معطيات أثرية لهياكل عظمية بشرية تدلّ على أنَّ الإنسان القديم كان أقل رُقِيًا من الإنسان المعاصر، كما أنَّ نظرية Origin Of Species ترى أنَّ "أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك وأنّها بدأت من خلايا حيّة تكوّنت عن طريق المصادفة وأنّ الحياة الأولى وجدت مصادفة"[237].

---

[234] الأنعام 111.

[235] الحجرات 4.

[236] المائدة 59.

[237] Charles Robert Darwin Origin of Species The Harvard Classics. 1909 p 114..

ولكن كيف لنا بقبول خلق الكون بأسره من لاشيء، ثمّ الأخذ بالقول: إنّ الحياة الأولى وجدت مصادفة؟

وكيف لنا بقبول المصادفة، وأنّ الله خلق الأزواج كلّها خلقا (لا مصادفة)؟

ومع أنّه حتى الآن لم نجد آثارًا مؤكّدة للحيوان الذي انحدر منه الإنسان والقرد الشبيه كما يزعمون، ولكن البعض يرى صلة سلالية تربط الإنسان بالقرد، وهذه لا حقائق تسندها؛ فهي مجرّد قولٍ ليس إلّا، وهذا ما أكدّه العالم جوهانس ووكر عام 1956م الذي أعلن عن اكتشاف قطعة فحم حجري بها فكّ إنسان يرجع إلى عشرة ملايين عام، وهي أقدم قطعة من بقايا الإنسان في العالم، وتعدّ دليلا شاهدا على ذلك بمتحف بال بسويسرا، ومن ثمّ، قال العالم جوهانس ووكر: إنّه لا يوجد أدنى دليل على أنّ الإنسان من سلالة القردة.

أمّا داروين فيقول: بالرّغم من أهمية الأحافير في إيجاد دليل على حدوث التطوّر، لكنّ السجلّ الجيولوجي أشبه ما يكون بكتاب فُقدت بعض صفحاته، ولم يبق منه سوى صفحات قليلة متناثرة، وفي تلك الصّفحات الباقية لم يبق إلّا كلمات قليلة في كلّ صفحة[238]. ولهذا؛ فلا يقين فيما يقال أو يدّعى به من تشابه سلالي بين الإنسان والقرد.

ولأنّه لا يقين، إذا؛ فلا حكم على وجود علاقة نشوء بين الجنسين (الإنسان والحيوان) لتعود بهما إلى أصل واحد، ولا أحد يستطيع أن

[238] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 - 571.

يفصل في شيء بغير حقيقة، ممّا يجعل الشكوك والادعاءات ليست بحجج، {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}[239].

ولأنّ الخلق الأوّل للكائنات خَلق زوجي، فهو خلق أجناس وأنواع، ولم يكن خلق تكاثر إلّا بعد التزاوج (الثنائية المتعدّدة) التي لا مجال فيها للنّشوء والتطوّر إلّا داخل الجنس الواحد، فالإنسان كونه أرقى المخلوقات، لا يمكن له أن يتطوّر ليكون على غير جنسه البشري، ولا يمكن لغيره من الأجناس والأنواع الأخرى أن تتطوّر لتصبح بشرا. ولذلك؛ فقد خلق الخالق من كلّ شيء زوجين حيث لا لبس ولا شبه ولا تداخل، فكلّ اثنين (ذكر وأنثى) من كلّ شيء، حتى الفواكه لا تعود لسلالة واحدة، بل تعود إلى سلالات متعدّدة الأزواج، {مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}[240]. أي: أنّ الفاكهة لا تعود إلى زوجين بعينيهما، بل تتنوّع الفاكهة أزواجا وسلالات مختلفة وستظل متنوّعة.

وعليه:

كيف يَقبل العقل البشري أنّ الإنسان والقرد يعودان إلى سلالة واحدة، وهو في ذات الوقت يعلم أنّ الفاكهة التي يظنّها من سلالة واحدة هي ليست كذلك؟

ومن ثمّ؛ فالكائنات تتكاثر أنواعا، ولا تتطوّر أجناسا؛ فالقرد الذي خُلق قردا، سيظل على ما هو عليه قردا متميّزا بما ميّزه الخالق، وهكذا النّباتات ستظل نباتات، والإنسان لم يكن قردا وسيظل إنسانا،

---

[239] الأنعام 57.

[240] الرحمن 52.

ولكن الإنسان لا بدّ أن يرتقي ويتطوّر على القيم الحميدة والفضائل الخيّرة، ولا ينبغي أن يغتّر معرفة وعلما، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[241]. أي: فعلى الإنسان أن يعلم أنّه لم يؤت من العلم إلّا القليل.

ولهذا؛ فالتطوّر ضرورة لحياة الأجناس من أجل البقاء الأحسن، والنّشوء سيظل قابلا للتّحسّين النّوعي من أجل الأفضل والأجود، ولا شكّ أنّ الإنسان الذي بين يديه المعارف، على يديه تتحقّق النُقلة النّافعة، التي تمكّنه من البقاء الأصلح.

فالإنسان الأوّل مع أنّه خُلق في أحسن تقويم، لكنّه لن يبلغ الكمال؛ فهو المخلوق على الحاجة المتطوّرة وإن حَسُن تقويمه، ومع ذلك وإن تيسّرت مشبعات حاجاته المتطوّرة كما تيسّرت لأبينا آدم (الإنسان الأوّل) يظل للرّغبة مؤثراتها، وللمعلومات الخاطئة تأثيراتها السّلبية على النّشوء والارتقاء البشري، {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[242].

إذا؛ فعندما تأتي المعلومة الخاطئة، وممّن تأتي؛ فهي المؤدّية إلى ما يسيء للخَلق الإنساني، أي: متى ما حلّت بين النّاس المعلومات

---

[241] الانفطار 6 - 8.

[242] طه 121 - 122.

الخاطئة، حلّ الفساد ديارهم، وساد بينهم الانحراف، ولهذا، دائما المقدِّمات الخاطئة تؤدّي إلى نتائج خاطئة.

ومع أنّ الوسّوسة كانت لأبينا آدم كونه النّبي الذي أنبأه الله بما لم ينبئ به الملائكة، ولكن الأكل من الشّجرة المنهي عنها كان من أبوينا معا (آدم وزوجه) اللذين أكلا منها؛ (فَأَكَلَا مِنْهَا).

ولأنَّ ما حدث معهما هو درس لهما ولمن حولهما (ملائكة وجن)؛ فهو الدّرس الباقي لمن يأتي من سلالتهما من بشر، فمن يتّعظ يتجنّب المنهي عنه، ويمتنع عن المحرّم والمجرّم، ومن لا يتعظ؛ فسيكون الثّمن لا مقدرة على دفعه، والزّمن كفيل بذلك، وحتى لا يغفل النّاس عمّا يجب، بعث الخالق الأنبياء والرّسل منذرين ومبشرين ومذكرين، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[243].

وعليه:

فلا كمال للنّشوء الزّوجي (نشوء الجنّة)، ولا كمال للنّشوء التزاوجي (نشوء الحياة الدّنيا)، بل الكمال لله وحده؛ فالنّشوء بنوعيه هو نشوء حاجة، غير أنّ النّشوء في الجنّة نشوء مشبع على التمام، أمّا النّشوء الدّنيوي؛ فهو نشوء الحاجات المتطوّرة التي يحفّها العوز بين الحين والحين؛ ولذلك؛ فالحياة الدّنيا ستظل على الحاجة التي كلّما نقصت جعلت عدد المطالبين بما يشبعها متزايدا، وكلّما اشتدت عوزا جعلت من البقاء عدما.

[243] الغاشية 21.

ومن هنا، ترتبط مصائر البشر بالحاجات ومشبعاتها، ولا بقاء صالح لمن خُلق في أحسن تقويم ما لم تكن مشبعات الحاجات المتطوّرة متطوّرة، ومن يتحكّم في مشبعات الحاجات المتطوّرة، يتحكّم في مصائر البشر، ومن ثمّ، تصبح آلام الحاجة وضرورات البقاء محفّزة على التمرّد والمواجهة مع قبول دفع الثّمن من أجل الحياة.

الخَلق ثابت والنّشوء متبدُّل:

الخلق إعجاز لا يكون إلّا من خالق، والخالق يخلق ولا يُخلق، يخلق كلّ شيء ولا يخلقه شيء، وإن أصبح اللاشيء شيئا، أصبح مخلوقا، وإن أصبح مخلوقا؛ فمن ورائه خالق؛ فعلى سبيل المثال: تلك النقطة التي يشار إليها بالذّرة لو لم تكن مخلوقة ما وُجِدت، ومع أنّها كما يقولون: ذرّة وقد انفجرت، وأنّ انفجارها خلق الكون من لا شيء، ومن غير خالق. لكنّ العالم لورنس كراوس لم يقل عنها قد خلقت نفسها من لا شيء، ولذا؛ فكيف يقبل العقل أنّ الكون قد خُلق من تلك الذّرة، وفي المقابل يقبل بخلق الكون من لا شيء وهو نتاج ذلك الانفجار لتلك الذّرة التي لم يقال عنها قد خلقت نفسها قبل أن يخلق الكون من انفجارها العظيم؟

ولأنّ الخلق بيد الخلّاق؛ فالخلّاق خَلقهُ لا ينقطع؛ فهو قد خَلق ويَخلُق وسَيخلُق، وهو كما خَلق الزّوجين من تراب خلق نسلهما من نطفة، وهو يخلق بلا انقطاع، وسيخلق بلا فواصل؛ فالخلق البشري هو ذات الخلق سواء أكان من تراب، أم من نطفة، وكذلك الحيوان هو حيوان سواء أكان من تراب أم من نطفة، والنباتات المتنوّعة

ستظل على التنوّع مع إمكانية تحسينها علما، ولهذا؛ فالخلق ثابت والنّشوء يمكن أن يكون عليه نشوءا متبدّلا.

فالنّشوء الأوّل يعدّ نموّا خَلقيا للأجناس والأنواع التي خُلقت خلقا زوجيّا (ذكر وأنثى)؛ فكان نشوءها من الأرض وهي مرتقة مع السّماوات جنّة، ثمّ فتقت وأهبط بها وهم على ظهرها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبح التزاوج بذرة التكاثر بين الأحياء.

ولذلك كانت علاقة النّشوء الأوّل قبل الهبوط بالخالق علاقة مباشرة؛ فلا علاقة إلّا معه، حيث لا أبناء لشغل حيّز من الالتفات، وكذلك كان الحوار مع الخالق مباشرا لأنّ الوجود الخلقي كان على أرض الجنّة (سماوات وأرض مرتقه)؛ فالكلام مع الخالق لا حواجز تفصله مع الملائكة والإنس والجن، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[244].

ولأنَّ الجنّة مكان الكلام المباشر مع الله تعالى؛ فهي مكان الحياة العليا التي متى ما كان المخلوق فيها كان في علو مأوى وحظوة بجنب الخالق، ولأنّه لا حواجز ولا وسائط مع الخالق، قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ

[244] البقرة 30.

وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[245].

ولأنّ علاقة المخلوق مع الخالق علاقة مباشرة؛ فكان أمر الخالق ونهيه لخلقه مباشرا، سواء أكان مع الملائكة الطّائعين، أم مع الإنس المجادل، أم مع الجنّ الموسوس، {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[246].

كلّ هذه المحاورات هي جزء من محاورات أخرى جرت في الجنّة، حيث خُلق الخَلق الأوّل، (ملائكة، وجنّ، وإنس، وغيرهم ممّا لا نعلم)، ولكن ما نعلمه: أنّ الملائكة لم يخلقوا على التكاثر الزّوجي كما هو حال بقية المخلوقات؛ فالملائكة خلقوا خلقا مثلما خُلق آدم وزوجه، ولكن آدم وزوجه تزاوجا؛ فأصبح النّشوء من بعدهما نشوءا متكاثرا من نطفة بعد أن كان نشوءا من تراب،

---

[245] البقرة 31 - 35.

[246] الأعراف 12 - 19.

ولذلك؛ فالملائكة يخلقون خلقا معجزا، ولا يتزاوجون زواجا، {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}[247].

أمّا مرحلة النّشوء الثانية إعجازا؛ فهي: مرحلة الهبوط على الأرض، التي من بعدها بدأ التبدّل الخلقي؛ فبعد أن كان الخلق البشري من طين الجنّة على أرض الجنّة، أصبح الخلق البشري نشوءا من نطفة على الأرض الدّنيا، وهكذا بقيّة الأزواج التي أهبط بها والأرض إلى الحياة الدّنيا، سواء أكانت أزواج كائنات حيوانية، أم أنّها أزواج حبات بذور، أم إنّها نباتات كانت في الجنّة وأهبط بها على الأرض مع بقية الخلائق، ومن ثمّ أنتجت في الأرض الدّنيا بذورا تخلفها.

ولأنَّ الحياة الدّنيا يلاحقها الموت؛ فهي لم تكن حياة بقاء مثل الحياة على الأرض الجنّة، ولذلك؛ فكلّ تزاوج يصاحبه التناقص حيث لا ديمومة للبقاء، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[248].

ولأنّ كلّ من على الأرض الدّنيا فانٍ، إذا؛ فالعدم مرحلة من مراحل الوجود في الحياة الدّنيا، وفي المقابل لا عدم في الجنّة، ذلك لأنّها أرض البقاء الدّائم حيث لا موت.

وسيظل الموت يلاحق الأحياء المتكاثرين إلى أن يقضي عليهم جميعا، ويومها سيكون الموت آخر الأموات، ويومها يبعث الأموات جميعهم إلّا الموت لن يُبعث، حيث لا مكان له في الحياة الخالدة

---

[247] النجم 27 ، 28.

[248] الرّحمن 26.

(الجنّة)، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[249].

أي: بعد أن أنشأكم الله النشأة الأولى خلقا زوجيّا في أرض الجنّة المرتقة مع السّماوات، ثم تكاثرا تزاوجيا في الأرض الدّنيا، ثمّ موتا فرديا يعيدكم في الأرض الدّنيا عدما ولا استثناء، ثمّ ينشئكم بعثا في نشوء آخر، لحياة سرمدية حيث البقاء الذي لا موت من بعده، {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}[250].

وعليه:

فالخلق الأوّل خلق معجز من لا شيء (حيث لا وجود)، والخلق الثاني نشوء معجز من خلق موجود؛ فالحياة خُلقت أوّلا، ثمّ الخلائق ثانيا، ولكن ممّا خُلقت الخلائق؟

خُلقت الخلائق ممّا نعلم، وممّا لا نعلم: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[251].

فممّا نعلمه هو:

ـ خلقت الخلائق من الأرض الجنّة أزواجا، (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ).

ـ خلقت في الأرض الدّنيا تزاوجا، (وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ).

---

[249] نوح 17 ، 18.
[250] النجم 47.
[251] يس 36.

أمّا ما لا نعلمه؛ فالخالق يخلق ما يشاء كيفما يشاء، (وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)، أي: أنّ الإنسان من نعم إيمانه؛ فهو يعلم أنّه يجهل، ولهذا؛ فالخلق لا يقتصر على ما يعلمه.

ولأنّه الخلّاق؛ فخلقه لا يتوقّف، {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[252].

التكيّف بقاء:

مع أنّ الكائنات خُلقت على خصائص وصفات، ولكن للمفاجآت أثر عليها، فبالرّغم من المفاجآت، غير أنّ الكائنات خُلقت على التهيؤ (التهيؤ الخَلقي، والتهيؤ السّلوكي)؛ ومن هنا، فالتكيّف يلد مع الولادة خَلقا، ثمّ، يتولّد بعد ذلك تدبّرا؛ فالكائنات كلّما حسّت أو شعرت بما يعرّضها لما يُقلق، أو يشكّل خطرا عليها، تتهيأ لمواجهته حيطة وحذرا. ولذلك نجد بعضها يتلوّن مع ألوان البيئة تكيّفا واختفاء، وبعضها يتكيّف مع التغيرات الفصلية والمناخية، وبعضها العاقل يتكيّف مع ما يواجهه من إجراءات وأعمال في دائرة الممكن، ومع ذلك يبقي للفعل المضادّ أثره. فالبيئة وإن تكيّفت الكائنات مع متغيراتها، يظل لمتغيراتها صفات وخصائص خُلقيّة، مثلما للكائنات صفات وخصائص خلقية، ولهذا، فالكائن الضّعيف لا يستطيع أن يصمد كثيرا؛ فكثير من النباتات والحيوانات تعيش في بيئة معينة، وتضعف في بيئة ثانية، ولا تنمو في بيئة ثالثة، أو لا تنضج ثمارها في بيئة رابعة.

---

[252] يس 81.

فالتكيّف عملية ملائمة ومقدرة على التحسّن في بيئات مختلفة من أجل المحافظة على الحياة وبقاء الأجناس والأنواع، وقد يكون باكتساب خصائص جديدة، أو فقدان خصائص كانت سائدة. ممّا يجعل المتكيّف على حالة أو صفة معيّنة لم يسبق له أن كان عليها، وهو قدرة الكائن الحي على الاستجابة للمؤثّرات الطّارئة أو أيّ سلوك تطوّري بهدف البقاء.

ومع أنَّ النّشوء خَلقي، لكن بقاء الخلائق لا تساوي فيه؛ فهناك من يبقى متكيّفا حتى النّهاية، وهناك من يزول عدما، ومن ثمّ؛ فالتكيّف adaptation لا يكون إلّا عن قوّة، سواء أكانت قوّة بدنية أم عقلية أم مناعية.

ومع أنّ التكيّف قوّة، لكنّه يكون مع السّالب، ممّا يستوجب تقديم التنازلات من أجل البقاء؛ فالسّجين على سبيل المثال: إن لم يتكيّف مع السّجن سينتهي حيث لا مقاومة (لا قوّة).

فالتكيّف موائمة نفسية بين الأفراد والجماعات والبيئة التي تحيطهم، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع ضرورة التكيّف؛ فالسجين الذي في بداية أمره سجين لا يمكنه التكيّف مع السّجن، ولكن بمرور الزّمن يتكيّف معه كأمر واقع لا مفرّ منه، غير أنّه مهما تحقّق له من تكيف مع السّجن والسجّانين، لا يمكنه التوافق معهم ولا مع السّجن، وهنا، الفرق كبير بين التكيّف الذي لا يتمّ إلّا بتنازلات وعن ضرورة، وبين التوافق الذي لا يتمّ إلّا عن رغبة وإرادة؛ فالذين بأسباب الضّرورة يتحقّق لهم تكيّف مع السّجن، لا يمكن أن يكون لهم حنين إليه بعد أن يقضوا

مُدد الأحكام الصادرة بشأنهم، ولذلك؛ فالتكيّف ميل يدفع تجاه تعديل السّلوك، أو تغيير اتجاهه وفقا لِما هو كائن.

والتكيّف كما يحدث مع الأمر السّالب يحدث مع الأمر الموجب، ولكن لا يحدث إلّا للضّرورة، ممّا يجعله بين ظاهرٍ وكامنٍ، ولذا؛ فعندما تنقلب المفاهيم، تنقلب السّلوكيات، ويصبح التكيف الظّاهر لا يعبّر عن الكامن، ومن ثمّ، يصبح الكامن متربصا بفرص النّجاة وقد ينتهزها.

إذا فالتكيّف لن يكون غاية طالما هو قائم على تقديم التنازلات، بل الغاية تحقيق التوازن في عملية تفضي إلى المحافظة على النّوع أو الحياة الخاصّة.

وهذا ما حدث مع بائع الخضراوات (التشيكي) الذي كتب على المحل المرخّص له ببيع الخضراوات فيه (يا عمال العالم اتحدوا) وهو لم يعرف الأبعاد الفكرية لهذه المقولة، ولكنّه يعرف أنّ كتابة هذه المقولة قد تقيه شرّ الحكومة وظلمها من أجل أن يبيع خضرواته بسلام، وهو غير مكترث بمضمونها الفكري، وهذا يدلّ على شعور داخلي مفاده:

أيّها المشترون أرجو المعذرة، أنا أعرف أنّ معظمكم مثلى لا يحبّ هذا الشّعار، ولكن الضّرورة الحياتية جعلتني أضعه على واجهة محلي لكي لا ترفعوا رؤوسكم إليه مرّة ثانيه، ولكي تتمكّنوا من اختيار أحسن الخضراوات، وعليكم أن تراعوا ظروفي. لقد وضعته من أجل أن يقال إنّي صادق، ومن أجل سلامتي وسلامتكم، وأعرف أنّ أكثركم يعارضه سرّا. ولكن عليكم أن تعرفوا أنّ كتابتي

هذه تعنى: معارضتي العلنية له، من أجل أن أكون صادقا معكم، وكاذبا مع الحكومة التي يرضيها ما لا يرضيكم[253].

ومع أنّ التكيّف عملية تأقلم من أجل البقاء، وفيه من التنازلات ما فيه عن بعض الصّفات، لكنّه لا يعدّ ضعفا ووهنا، بل الضّعف والوهن يلحق من لا يستطيع تأقلما مع البيئات المختلفة؛ فينتهي بلا ثمن.

ولذلك؛ استنتج داروين ما عُرف باسم قانون الانتخاب الطبيعي؛ فمتى ما يوجد تنازع على البقاء بين الأفراد، واختلاف وتمايز في الصّفات، فإنّ هذا سيؤدّي إلى أنّ الكائنات التي تتمتع بصفات تميزها على غيرها كسرعة الحركة أو قوّة العضلات أو طول الرّقبة كالزّرافة مثلاً، ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء وإنتاج مواليد جديدة، في الوقت الذي يفنى فيه خصومها ويزولون. ومن ثمّ، يرى أنّ التنازع على البقاء له تأثير انتخابي في إزالة غير الصّالح من الأفراد وفي الاحتفاظ بالصّالح منها، وحيثما يبقى الصّالح حيًا ويتكاثر، يهلك الضّعيف[254].

---

[253] الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الثاني ، الطبعة الأولى، 1988م، ص 26 .

[254] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 - 571.

النّشوء

بداية ونهاية

النّشوء بداية هو: إيجاد الشيء من الشيء ونموّه خلقا معجزا، كما نشأت الأزواج كلّها ممّا نعلم وما لا نعلم، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[255].

أمّا النّشوء نهاية؛ فهو خلق جديد وإحياء معجز لمن سبق وأن كانت له نشأة، {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[256]؛ فالبعث نهاية للوجود المؤقت ونشوء لحياة دائمة.

ولذلك؛ فالنّشوء بداية ونهاية هو نشوء وجودي علائقي؛ فحيث ما نشأ الزّمن نشأت البداية وكانت الحركة، وحيثما انعدم الزّمن كانت النّهاية، ولا نشوء لبداية أو نهاية إلّا في حيّز، سواء أكان وجود شيء أم لا شيء.

فالبداية توقيت زمني لشيء يُخلق أو يُفعل، ممّا يجعل البداية نقطة القياس الأولى للتمدّد طولا وعرضا وارتفاعا ووزنا وسرعة، ويجعل نقطة النّهاية قاطعة حيث لا نشوء ولا تمدّد ولا انكماش ولا سرعة من بعدها.

فالبداية والنّهاية علامتان لحصر الوجود المتّسع وعدّه عدّا، فلا شيء قبل البداية إلّا المبدئ، ولا شيء بعد النّهاية إلّا الآخر المنهي.

---

[255] يس 36.

[256] المؤمنون 15، 16.

ولأنّ البداية والنّهاية لا تنشأ إلّا في حيّزٍ؛ فهي تحوط الأشياء وجودا في الزّمان والمكان؛ حيث كلّ شيء خُلق، أو سيخلق لا يكون محصورا إلّا بين قوسيها.

ومع أنّ البداية تُعدّ نقطة الصّعوبة، لكنّها في النّهاية لا تعدّ نقطة الاستحالة؛ فالتعلّم بداية تواجهه المصاعب كما تواجه عملية التذكّر والتدبّر والتفكّر والإبداع، ولكن نهاية الأهداف تنجز، والأغراض تتحقّق، والغايات تُبلغ.

وعليه:

فمثلما لكلّ شيء مواقيته؛ فإنَّ لكلّ شيء توقيته بداية ونهاية، ولا شيء يبدأ أو ينتهي إلّا ولحظته قد بدأت تمدّدا أو انكماشا، أو أنّ نهايته قد بدأت صعودا أو هبوطا (متوقّع أو غير متوقّع).

فبداية الكون كما يعتقد علماء الفيزياء قد بدأت انفجارا عظيما، ولكن وإن اختلفنا؛ فلا اختلاف معهم على أنّ لكلّ شيء بداية ونهاية، أمّا كيف تكون النّهاية؟ ومتى؟ فهذه علم تهيمن عليه الفرضيات لا الحقائق.

وإلّا هل هناك من يستطيع إدراك النّهاية الكونية والكون يتمدّد متسارعا، في مقابل قدرات محدودة، وعلم سرعته لا تواكب سرعة التمدّد الكوني؟

ومع أنّ علماء الفيزياء يرون الكون قد بدأ انفجارا، ولا خالق له، لكنَّ العقل يطرح تساؤلات بأسباب الحيرة التي تولّدت مِن حكمهم هذا؛ فهل يعقل أن يخلق المخلوق لو لم يكن من ورائه خالق؟ فإن

أجزنا هذا القول كما يعتقد البعض؛ فعلينا بنفي خلقنا للأشياء التي صنعت بأيدينا، وإلّا ما هي المبررات التي تجيز خلقنا للأشياء صناعة ولا تجيز خلق ما هو أعظم من خلقنا بأيدينا؟ وعلينا أن نتسأل:

لماذا لم نستطع معرفة سرعة حركة الكون المتسارع في تمدّده؟ أي: لو لم يكن من وراء الكون مسيّرا له بالقوّة المطلقة؛ فهل يمكن له أن يسيّر وهو على هذه الضخامة المستمرّة في التضخّم؟ وإذا كانت الإجابة أنّ الكون يتمدّد ويُسيّر بقوّة الانفجار العظيم؛ فمن الذي فجّر ذلك المنفجر حتى أصبح الانفجار بداية الخلق الكوني المتسارع تمدّدا؟ أم أنّ الانفجار لا يزيد عن كونه صدفة لا غير؟ وحتى إن كان مصادفة؛ فهل يمكن أن تحدث المصادفات لو لم يكن من ورائها مدبّر؟

وبما أنّ الحياة بداية، والموت من بعدها يلاحقها؛ فمن الذي يحيي ويميت؟ أم أنّ الكون هو الذي يحيي ويميت؟ وكيف له أن يحيي ويميت وكلّ ما فيه يلاحقه الموت، ومن بعده يصبح الكون برمّته معرّضاً للنّهاية تجمّدا، أو انكماشا، أو انفجارا، ثمّ رتقا من جديد؟

ومع ذلك يجيب البعض بقوله:

لا داعي لطرح هذه التساؤلات؛ ولا داعي حتّى لقبول تساؤل منها؛ فإن قبلنا سؤالاً واحدا، فقد ننجرّ إلى قبول مئات التساؤلات، ولهذا؛ بالنّسبة لهم بدأ الكون والوجود من ذلك الانفجار، ولا داعي لأيّ أسئلة عمّا قبله.

أمّا نحن؛ فنقول:

تكفينا هذه الإجابة، ومن يرى غير ذلك؛ فمن حقّه أن يتساءل، ولكن لن يجد إجابة غير هذه الإجابة، حتّى وإن أعاد طرح السؤال:

كيف تكون البداية من لا شيء والانفجار العظيم من ذرّة؟

قال الفيزيائيون:

إنَّ الكون بداية قد خُلق من لا شيء، ونحن قَبِلنا بذلك إن كان مقصدهم إنّ اللاشيء هو ذلك المتناهي في الدّقة والصّغر، ولكن كيف لنا بقبول غيره إن كان مقصدهم باللاشيء حيث لا وجود؟ وهم في هذا المثال كمن يقول: صُنعت المصنوعات (كلّ المصنوعات التقنية والتقليدية) من غير مواد خام، ومن غير مواد مصنّعة، ومن غير صانع. ومن يقبل بهذا أو يصدّقه فلا شكّ أنَّه يقبل بقولهم: إنّ الكون قد خُلق من لا شيء ومن غير خالق.

نعم إنّهم بحثوا؛ فعرفوا؛ فأصابوا، وفي المقابل نعم إنّهم بحثوا؛ فأخطأوا، ومن بين هذا وذاك وجب البحث المتّصل ولا انقطاع حتّى يعلم الجميع ويتبيّن الحقائق دليلاً وشواهداً.

ومن ثمّ؛ فلا اختلاف على أنَّ الوجود أوّلا، ثمّ الموت ثانيا، وثالثا من بعد الموت عدم، ورابعا من بعده موت الموت، وخامسا إحياء وإبقاء حيث (لا نهاية). أي: في عالم الوجود الدنيوي لكلّ بداية نهاية، ولكن في عالم الوجود الباقي؛ فلا نهاية لبداية (بقاء بلا نهاية).

إذا؛ فالبداية كان الوجود كونا مُرتَّقا، ثمّ فُتق فأصبح أكوانا، ونهاية سَتُرتق الأكوان كونا باقيا، وذلك عندما يُرتق الزّمان مع المكان ولا

ينفصلان نهاية، وهذا يعني: أنّ للزّمان الدّنيوي نهاية، وأنّ للزّمان الآخر بداية بلا نهاية؛ حيث تبقى الحياة إعجازا عند لحظة البداية الدّائمة.

ومن خلال تفسيرنا للوجود الكوني المتمدّد بقوّة الطّاقة الهائلة، نعتقد أنّ حيويّته والحرارة المصاحبة له ستؤولان به إلى الانكماش بعد فتور من بعده برودة؛ تجعله عائداً إلى أماكن رتقه؛ فيصبح وكأنّه لم يُفتق من قبل.

ولهذا؛ فرؤية العلماء تميل إلى وضع يُسمى (التجمّد الكبير) حيث يستمرّ الكون في التّوسع، وفي النّهاية ينمو إلى حدّ يصبح معه المتوفّر من الغازات خفيفاً لا يكفي لتكوين نجوم، فيبرد إلى نقطة يفقد عندها الوقت كلّ معنى، حيث لا شيء يحدث بعد ذلك[257].

ومن ثمّ؛ فالانكماش قوّة هائلة تطوي ذلك التمدّد الهائل الذي تسارع حتى النّهاية التي لا نهاية من بعدها، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[258].

ومع أنّ البداية بداية وجود، لكنّ كيفية البداية الوجودية لا أحد يعلمها سوى التحدّث عن ذلك الانفجار العظيم الذي يعتقد البعض أنّه البداية غير المسبوقة ببداية، ولكن بالنّسبة لنا إن أجزنا وجود

---

[257] الأنباء، من الانفجار الكبير إلى التجمّد الكبير، كيف نشأ الكون، الأربعاء 22 أغسطس 2012م.

[258] الأنبياء 104.

الانفجار العظيم فلا نجيزه إلّا نهاية لذلك المنفجر، وليس بداية غير مسبوقة ببداية.

ومع أنّ الوجود الكوني لم تسبقه أيدٍ خلّاقة، لكنّه كان مسبوقا بخالق الأيدي، ولذلك كان خلق الكون أمرا مفعولا بداية ونهاية، ولم يكن بأمرٍ يُفعل؛ وهذا الأمر لا يعني أنّ الأمر المفعول قد حدث وانتهى، ولكنَّه يعني: أنّ الخلّاق لا يتوقّف عن الخلق.

وبما أنَّ بداية الكون كما يرها المنظّر الفيزيائي لورنس كراوس Laurence Krauss من اللاشيء كما جاء في كتابه: Universe from nothing، إذا؛ فلا بدّ من إعادة التساؤل:

كيف تكون البداية من اللاشيء والكون متفجّر من ذرة؟ وإذا اعتبرنا الانفجار العظيم هو بداية الوجود الكوني؛ فإذا الكون بدايته انفجار. وفي المقابل إذا اعتبرنا الوجود قد خُلق وجاء من بعده نشوء، فَلِمَ لا تكون النّهاية هي: الرّتق من بعد الانفتاق؟

ولا خلاف على أنّ كلّ ما نعرفه وما لا نعرفه قد ظهر إلى الوجود بالانفجار الكبير، أو الانفتاق العظيم، ولا خلاف مع أدلة تؤكّد نهاية الكون، كماء جاء في قول العلماء الأمريكان: "إنّنا سائرون نحو نهاية لا تقل إثارة عن البداية"[259].

فالبداية سواء أكانت تمدّدا أم انكماشا (في الاتجاه الموجب، أم في الاتجاه السّالب)؛ فلا بدّ لها من نهاية، ولذلك؛ فيمكننا أن نعدّ ما

[259] *Universe Reborn Endlessly in New Model of the Cosmos, www.nationalgeographic.com, April 25, 2002* p 127.

نشاء من الأعداد للخلف (سلبا) كما نعدّها للأمام (إيجابا)؛ فالعدّ للأمام يوصل إلى رقمٍ موجبٍ كبيرٍ جدًا، والعدُّ إلى الخلف يوصل إلى رقمٍ سالبٍ كبيرٍ جدًا، وفي كلا الحالتين لكلّ شيء بداية ونهاية حتى وإن قصرت قدراتنا عن التوقّف عندها.

فالكون بما فيه من كواكب ونجوم وفراغ وخلاء وطاقة ومجرّات، له بداية (انفجار عظيم) أو (انفتاق عظيم) وهذه هي النّقطة الصّفرية التي بدأ تمدّد الأكوان منها، والتي سيعود إليها الكون منكمشا، حيث انتهائه إلى الحجم الذي منه فُتق وبدأ امتدادا. وهذا التفسير قد ذكّرني بحديث جرى بيني وبين أحد أساتذة الفلسفة حينما سألته أين مكان الإقامة؟

قال: مؤقتا في مدينة طرابلس.

وأين تكون الإقامة الدّائمة؟

في الخرطوم.

ألا تعتقد أنّ وجودك مؤقتا أينما كنت.

قال نعم: لكلّ بداية نهاية. لقد جئت من الخرطوم وسأعود إليه.

قلت: إن لم تحدث لن.

نعم، إنّ (لن) تحدث رغماً عنّا، وعن حساباتنا وخططنا، ولذا؛ فقد ترتبط النّهاية بمكان البداية، وقد تنفصل عنه.

فقلت:

معظم الطيور لا تعود إلى أعشاشها بعد أن تغادرها؛ إلّا الكون سيعود إلى عُشّه بعد أن فارقه انفتاقا؛ {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[260].

هل تعتقد يقينا كما أعتقد أنّ لكلّ وجودٍ نهاية؟

نعم، لا نهاية إلّا لوجودٍ.

الآن فهمت بحقّ، لا بدّ أن يكون الوجود أوّلا، ثمّ العدم ثانيا.

قلت: لا. العدم ثالثا.

فقال: وماذا ثانيا؟

الموت، ثمّ العدم.

إذا؛ فالبعث رابعا.

فقلت لا: بل موت الموت رابعا، ثمّ البعث خامساً.

وماذا سادس؟

نهاية النّهاية.

فقال نعم. {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[261].

ثمّ سأل:

---

[260] الأنبياء 104.

[261] الرّحمن 26، 27.

وما الفرق بين موت الموت، ونهاية النّهاية؟

موت الموت، من أجل الحياة، أمّا نهاية النّهاية؛ فمن أجل البقاء الذي يحتوي الزّمان.

فقال: إذا، الذين يعتقدون في وجود اللامتناهي رياضيا، اعتقادهم سراب، ثمّ سأل:

وهل تعتقد أنّ اللامتناهي موجود؟

مع أنَّ أهل الرّياضيات عندما يعجزون عن بلوغ النّهايات؛ فلا يرون إلّا ما لا نهاية، ولكن المنطق العلمي وبخاصّة الرّياضي منه، لا يعترف بالمسلّمات إلّا بعد إثبات. ولأنّني لا أرى مالا نهاية في دائرة الممكن. إذا؛ فكيف لهم بفرضية اللانهاية في الوقت الذي فيه علماء الفيزياء والفلك قد أجمعوا علميّا على وجود النّهاية (انكماشا أم تجمّدا أم انفجارا؟)

ومع ذلك؛ فإنْ اعتبر أهل المنطق الرّياضي أنّ اللامتناهي مسلّمات، فإنّهم قد اعترفوا بأنّه مثبت، وبالتالي فإن كان مثبتاً كان موجوداً، وإن كان موجوداً؛ فله بداية ونهاية؛ ومن ثمّ؛ فلن يكون اللامتناهي إلّا افتراضا رياضيا، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[262].

إذا؛ فلا شيء على أرض الوجود إلّا وله بدية ونهاية، سواء تمكّنّا من الوقوف عندها، أم أنّ قدراتنا الإدراكية قد قصرت عنها، ولذلك فللنّهار بداية ونهاية، ولليل بداية ونهاية، وللعمر بداية ونهاية،

[262] الإسراء 85.

وللتفكير بداية ونهاية، وللوجود كلّه بداية ونهاية. ومن هنا؛ فلا تستطيع قدراتنا العقلية المحدودة أن تكتشف النّهايات الواسعة.

ولهذا؛ فاللانهاية لا وجود لها إلّا افتراضا، ولا توجد معادلات رياضية تثبتها تجربة أو مشاهدة أو ملاحظة، أو قياسا؛ فعلى سبيل المثال: إذا كان أيّ كم هو نتيجة حاصل الجمع، أو الطرح، أو القسمة، أو الضرب، أو غيرها من المسائل الحسابية، فلا بدّ من الحصول على نتيجة حسابية، وهنا؛ فلا مكان بين العمليات الحسابية للامتناهي إلّا افتراضا. وإلّا هل هناك كم حسابي يقبل القسمة والجمع والطّرح، ولم تكن له نتيجة (نهاية)؟

ومن ثمّ؛ فلا وجود للانهاية إلّا افتراضا، مثل الافتراض الذي يقول: (يظل المستقيم مستقيما مهما امتدّ). ولكن هذا الافتراض على أرض الواقع لا مصادق له. لانَّ المستقيم إذا امتدّ على الأرض إلى ما يمكن أن يمتدّ إليه؛ فلا يمكن أن يكون مستقيما، بل سيرسم على الأرض دائرة، وهكذا حال أي مستقيم يبتدئ على الأرض بنقطة وينتهي عند نقطة.

وعليه:

وفقا للمنطق العلمي فإنَّ لكلّ بداية نهاية، والذي لا بداية ولا نهاية له لا يمكن أن يقبل القسمة ولا الجمع ولا الطرح ولا يؤدّي إلى نتائج علميّة محدّدة، ومن ثمّ؛ فليس له منتصف، أو مركز يحدّد نزوعه وتشتته أو تمركزه؛ ممّا يجعله معدوم التعامل الحسابي.

وبما أنّ لكلّ شيء بداية؛ واللامتناهي شيء، إذا؛ فكيف لا تكون له نهاية حتى وإن كنّا نجهلها. ولذا؛ فإن حاول من يحاول التعامل مع

اللانهاية رياضيا؛ فلن يجد له معامل حسابي، وفي المقابل يجده في كلّ ما يقاس بداية ونهاية، ومن ثمّ، تكون البداية والنّهاية من أسس التعامل الحسابي القابل للقياس.

وبناء على ذلك؛ فهل للزّمان بداية ونهاية؟

نعم، له بداية ونهاية، حتى وإن لم نعرف تاريخ بدايته ونهايته؛ ذلك لأنّنا نعرف من الزّمان ما هو ماض، وما هو حاضر، وما هو مستقبل؛ ممّا يدلّ على قبول الزّمان للقسمة والجمع والطرح، {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ}[263].

وعليه:

بما أنّ النّهار جزء من اليوم، والسّاعة جزء من النّهار، إذا، ألا يكون النّهار واليوم جزآن من الزّمن المتناهي؟ وإذا كان الزّمان متناه؛ فما هو الشيء المتبقي ليوصف بما لا نهاية؟ {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[264]؛ فالزّمان أيّام وأشهر وأعوام، مثله مثل الأعداد التي مهما كبرت فإنّها لا تبتدئ إلّا بالواحد الكمّي ولا تنتهي عددا وكما إلّا به.

نشوء النِّهاية العدديّة:

تنشأ الأعداد بوجود الواحد سواء أكان كلّيا، أم جزئيا، أم متجزئا، وهو الذي به ينتهي المعدود أو المقاس محيطا أو مساحة أو حجما، أو وزنا، وكلّ شيء يبدأ بواحد لا بدّ وأن ينتهي به، وبالتالي فإنْ لم

---

263 سورة يونس ، الآية 45 .

264 سورة الأعراف ، الآية 187 .

نصل بقدراتنا العقلية إلى معرفة وجود النّهاية العددية، فإنَّ ذلك لا يعني إثبات عدم وجودها، بل إنّه دليل على قصور قدراتنا العقلية. أمّا مالا نهاية؛ فهو الذي لا يمكن مشاهدته ثباتا أو سكوننا، ومتى ما تمكّنا من معرفته يصبح متناهيا.

فالأعداد تستمرّ سلبا وإيجابا في تضاعف إلى النّهاية سواء أكانت نهاية الشيء المعدود، أم نهاية الذي يقوم بفعل العدّ؛ فعلى سبيل المثال: إذا اتّجه أحد المتخصّصين في دراسة الرّياضيات من نقطة معينة على الأرض في اتجاه مستقيم؛ فإنّه بالضّرورة سيصل إلى النّهاية، ولكن لو انحرف قليلا، أو كثيرا عن خط سيره على الأرض يسارا أو يمينا؛ فإنّه سيجد نفسه مستمرّا في اتجاهه، دون أن يمرّ بنقطة النّهاية، وكأنّ الأرض ليست مستديرة، وهكذا يتكرّر الدوران على الأرض إذا لم يتعرّف على نقطة البداية التي وضعها أو انطلق منها، وفى هذه الحالة قد يحكم على الأرض بما لا نهاية، مع علمه المسبق أنّها المتناهية.

ومن ثمّ، أتساءل:

هل الأشياء والمواضيع في دوائرها المتناهية، يمكن أن تكون غير متناهية؟

لا يمكن.

والمثال على ذلك: إذا قمنا بإحصاء تعداد سكّان العالم، وحيواناته، وطيوره، وأسماكه، ونباتاته، وحتى حبّات رمله، ورذاذ مياهه؛ فلابدّ أن نصل إلى النّهاية لكون العالم محصورا على الكرة

الأرضية المتناهية مساحة وحجما ومحيطا، مع العلم أنّ بعض الذين سيشاركون في التعداد قد ينتهون قبل أن يعرفوا النّهاية.

إذا، كيف تقبل عقولنا أنّ الشيء المحصور بين البداية والنّهاية متناه، وأنّ المتجزئ منه يتمدّد إلى مالا نهاية؟ فالأرض على سبيل المثال: التي هي متناهية ألا يكون كلّ ما على ظهرها متناهٍ؟

وهكذا هو حال كلّ بداية ونهاية؛ فالرّصاصة المنطلقة من البندقية؛ لا يمكن أن تكون انطلاقتها إلّا بين بداية ونهاية، ولكن مع ذلك يرى البعض عندما تتجزأ المسافة المقطوعة إلى أجزاء، تتجزأ هي الأخرى إلى ما لا نهاية؟ ولذلك أطلقوا على المسافة المحصورة بين (1 ، 2) باللانهاية، وهكذا بين جميع الأعداد، ولذلك لا يمكن الانتقال من الرّقم (1) إلى الرّقم (2) إلّا تقريبا حسابيا، وذلك بأسباب وجود الكسور الحسابية التي تأسّست على فرضية اللانهاية.

وحتى لا يتوه تفكيرنا بين تجاذبات المتناهي وغير المتناهي؛ فينبغي التمييز بين المتعرّف عليه، وغير المتعرّف عليه، حتى يتمكّن العقل من تثبيت صفات الأشياء بداية ونهاية.

المتعرّف عليه:

المتعرّف عليه، هو: كلّ ما تمّت معرفته وإدراكه بداية ونهاية، وفي المقابل العقل (المتعرّف به) على ذلك الموضوع (المتعرّف عليه) لن يستفيد جديدا كون الموضوع لا يضيف له شيئا، ولهذا؛ فإعادة التعرّف لا تضيف جديدا وإن ساهمت في تثبيت المعلومة.

غير المتعرّف عليه:

عندما يتمكّن العقل من البحث والتقصّي العلمي يُمكِنه التعرّف على الجديد بالمتعرّف به (العقل)، في حدود القدرات والاستعدادات كبداية ونهاية إدراكية، وغير المتعرّف عليه، هو: الذي لم يُكتشف بعد حتى يعتبر معرفة علمية، ولهذا، يعتبر غير المتعرّف عليه بالنّسبة للمدركات العقلية مجهولا إلى حين، وعندما يتمّ التعرّف على غير المتعرّف عليه، يكتسب العقل معرفة جديدة تضاف لمعارف الإنسان السّابقة.

ومن هنا؛ فكلّ معلومة لم يتمّ التعرّف عليها بعد، وهي في دائرة الممكن؛ فلا استحالة بينها وبين التعرّف العقلي، وهذا الأمر يجعل المتعرّف عليه (الموضوع) تحت قبضة المتعرّف به (العقل) إلى النّهاية. ومن ثمّ؛ فكلّ معلومة يعجز الإنسان عن معرفتها تندرج تحت غطاء (غير المتعرّف عليه)، وذلك لقصور العقل عن إدراكها والوقوف عند نهايتها. وهكذا؛ فكلّ شيء عرفناه يكون هو: (المتعرّف عليه)، وكلّ شيء على قيد الوجود ولم نتمكّن من التعرّف عليه يوصف بـ(غير المتعرّف عليه) كونه موجودا أو متاحاً إلى حين التمكّن من معرفته بداية ونهاية. ولذا؛ فمتى ما تهيأت عقولنا للمعرفة تهيأت المعرفة إلينا.

الواحد البداية والنّهاية:

لا نبتة إلّا ولها بداية، بذرة واحدة، ثانية واحدة، يوم واحد، عمر واحد، وكذلك؛ فلا نمو لبذرة إلّا بين بداية ونهاية، طولا وارتفاعا وعرضا، وهكذا تبتدئ الأعداد بواحد، وتختتم به نهاية، ومن هنا؛

فجميع الأعداد هي مواليد الواحد، فلولا الواحد ما عرفنا الاثنين اللذين يتكونان من (1 + 1) والواحد دائما مستقل عن كلّ واحد من حيث إنّه واحد، ومن تكرار الواحد وتجمّعه وتشتته تتكوّن الأعداد والأرقام، أحادية (1، 1، 1)، وأي عدد لا يمكن أن يكون هو المقصود إذا سّحب منه الواحد، أو أضيف إليه، فعلى سبيل المثال: إذا كان العدد المقصود هو (1، 2، 3 ، 4، 5، 6) فكل هذه الأعداد لا يمكن أن تتكون إلّا بالواحد، الذي إذا سحب من كلّ منها تصبح الأعداد (0، 1، 2، 3، 4، 5) وهكذا تنتهي هذه الأعداد وغيرها ويبقى الواحد، ومن ثمّ؛ فإذا انتهى الواحد كعدد انتهت الموجودات، وكانت النّهاية. {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[265].

إذا؛ فبالواحد عددا تكون البداية، وكذلك به عددا تكون النّهاية، فالرّقم (8) بدايته واحد، ويستمرّ الواحد في تزايد إلى أن يصل إلى العدد أو الرّقم (7) الذي عندما يضاف إليه (1) يصبح (8) وهذا يعني: أنّ الواحد المضاف إلى العدد (7) كان متمّما للعدد (8) ونهاية له، ولذلك؛ فالواحد يكون البداية والنّهاية بالنّسبة للعدد 8 وإلى أي عدد وكم.

وهكذا؛ فكلّ ما له بداية ونهاية له منتصف، ويتجزأ إلى نقاط، كونه المتكوّن منها (من النقاط)؛ فالمستقيم مهما امتدّ؛ فبدايته نقطة، ونهايته نقطة، وتقترب نقاط البداية والنهاية في حالتين:

الحالة الموجبة:

---

[265] غافر 16.

وهي: كلّما زاد طول الخط المستقيم، في الاتجاه الموجب، اقترب من نقطة البداية التي انطلق منها، وفي هذه الحالة كمن يمدّ ذراعه وأصبعه إلى الأمام وكأنّه يشير بهما إلى شيء ما؛ فقد يجد أصبعه يلامس خلفية رأسه، أي: أنَّ المستقيم إذا امتدّ على الأرض لابد وأن يرسم دائرة تسع الأرض ومن عليها.

الحالة السّالبة:

وهي: كلّما نقص طول المستقيم، المرسوم في الاتجاه السّالب (انكماشا) ابتعد عن نقطة النّهاية المأمولة، واقترب من نقطة البداية التي انطلق منها.

ولذلك؛ فكلّ الأعداد تزيد وتنقص وتتكرّر بالواحد، وهي لا تبتدئ ولا تنتهي إلّا به؛ فالواحد عددا، هو: الحقيقة التي لا تتمركز الجموع إلّا به، ولا تتشتت إلّا به؛ ومن ثمّ؛ فعلينا أن نفرّق بين (العدد، والمعدود، والعاد)؟

فالعدد هو المقدار وجمعه أعداد، وهو المجرّد من التمييز، فعندما أكتب على سبيل المثال: 1، 2، 3، 4، 5، 6، أكتب أعداداً، وهذه الأعداد عندما تكتب على كمّيات أو كائنات تميّز أرقاما وتصبح هذه الكمّيات أو الكائنات هي المعدودة، ويكون الذي أحصاها عددا هو العاد، ولذا؛ فمتى ما قلت أنا العاد تجد نفسك معدودا من قبل غيرك، وهنا تكمن حقيقة مفادها:

هناك من يُعد وهو لا يُعدّ (يُعدّ كمّا ولا يعدّ قيمة) كونه لا يساوي إلّا صفرا من حيث الأهمية الإنتاجية أو القيمية. وفي المقابل هناك من

لا يعدّ في الوقت الذي هو فيه يساوي المفاجئة (اللامتوقّع)، ولذلك؛ فليس كلّ ما يعدّ، يعدّ، ولا كلّ ما لم يعد، لا يعدّ.

ومن ثمّ؛ فقد يتطابق مفهوم العاد والمعدود عندما تتساوى القيم، وقد لا يتطابق مفهومهما وإن تطابقا عددا.

وبما أنّ (العدد، والعاد، والمعدود) جميعهم منتهون، إذا؛ فكيف يؤدّي المتناهي إلى مالا نهاية؟ أي: إذا كان (العاد والمعدود والعدد) منتهون سواء بالجمع أم الطرح أو بأيّة معاملة رياضية وإحصائية، إذا المتناهي لا يؤدّي إلّا إلى متناهٍ.

الواحد كمّا وصورة:

خُلق الواحد نشوءاً مستقلّا عن أيّ واحد، فآدم وزوجه خلقا من التّراب خلقا أحاديا مستقلا (ذكرا وأنثى)، وكذلك بقية الأزواج خُلقت أحادية مستقلّة (ذكورا وإناث) على تراب الأرض المرتقة (قبل فتقها سماوات وأراضين)، ولكلّ كون هيئته وشكله الذي خُلق عليه. ولكن ليس لكلّ شيء صورة أو شكل، إلّا الذي يتضمّن الواحد في مفهومه أو دلالته، مثل الأرض، والذئب، والدّجاجة، والسّمكة، والشّجرة، والجبل، وغيرها كثير ممّا يحمل في مضمونه صورة أو شكلا يدلّ عليه دلالة مباشرة بمجرد الاستماع للكلمة، ولهذا؛ فالكلمات الدّالة على الصّور والأشكال ترسم؛ فكلمة جبل، ورجل، ونخلة؛ وشلال، ترسم، في العقل بمجرد الاستماع للكلمة التي تحملها، ومن ثمّ؛ فكلّ الكلمات التي تحمل في مفهومها صورة أو شكلا يكون تعليمها أيسر من تلك التي تحمل معنا مجردّا، ولذلك؛ فهي تدرك كما هي صورة وشكلا ودلالة ومعنى؛ فعندما

نقول: قلم الكلّ يدركه صورة، وعندما نقول إنسان الكلّ يدركه صورة، وعندما نقول: مثلث أو دائرة أو متوازي الأضلاع؛ فالكلّ يدركها أشكالا، وهذا الأمر يجعل الكم (العددي) كمّا متناهيا؛ أي: أنّ الأعداد وإن كثرت فهي تتناهى كمّا وصورة وشكلا، ومن ثمّ؛ فكلّ ما يحتوى مفهومه على الواحد لا بدّ وأن تكون له صورة أو شكلا؛ فيرسم، إلّا الواحد الذي خلق الواحد، ليس له صورة ولا شكلا، ولا بداية ولا نهاية ومن ثمّ؛ فلا يُرسم ولا يحاط.

ومع إنّ للصّورة دلالة ومعنى، ولكن يظل للكيفية التي عليها الصّورة أو الشّكل دلالة أوسع، وبالتالي فإنّ التوقّف عند حدود التعرّف على الصّور دون التجاوز إلى معرفة الكيفية التي هي عليها، لا يُمكِّن أصحابه من التأمّل والمعرفة الواسعة، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[266]. ولمعرفة الكيفية ينبغي الأخذ بوسيلة الملاحظة الإدراكية دون القصور على وسيلة المشاهدة التي تقتصر على الرّؤية البصريّة.

ومع أنّ وسيلة المشاهدة ذات أهمية عالية في كشف الحقائق الظّاهرة؛ فالملاحظة ذات أهمية عالية في كشف الحقائق الباطنة، وكذلك فللحواس أهمية معرفيّة (لمسا وذوقا وسمعا)، ومع ذلك؛ فالأخطاء قد تتعلّق بها، فعلى سبيل المثال:

مجموعة من الأصدقاء العرب ويابانى، يعملون في إحدى الشّركات العاملة في الصحارى العربية، ومن باب المزاح حاولوا اختبار

[266] الغاشية 17 - 20.

الذّكاء الياباني في التعرّف على الأشياء عن طريق حاسّة اللمس، فأحضروا بعيرا لا يتجاوز عمره أيّاما، وأحاطوه بالقماش وهو في وضع البروك، بحيث لا يخضع جزء منه للمشاهدة، وربطوا عيني الرّجل الياباني بقطعة قماش، وطلبوا منه أن يتعرّف على الجسم بحاسة اللمس (باليدين)، وسُمح له بذلك إلى أن قال لهم: إنّه قد عرف هذا الجسم؛ فسألوه:

وما هو؟

فأجابهم: أنّه إبريق شاي كبير إن لم يكن إبريق قهوة.

وكذلك للحواس خدعتها، والتي يحضرني منها ما قام به ذلك الطبيب الذي أحضر بولا سكريّا وغمس أحد أصابعه فيه ليتذوّقه أمام الطّلبة الدارسين بكلية الطّبّ، وطلب منهم أن يفعلوا ما فعل، ليتذوقوه واحد بعد الآخر؛ فقاموا بذلك على مضض، وبعد انتهاء التجربة أجمع الطلبة على أنّ البول السكّري حلو المذاق؛ فابتسم الطبيب قائلا:

لقد فعلت ذلك لأعلِّمكم الدقّة في الملاحظة؛ فلو شاهدتموني بعناية، لكان من الممكن لكم ملاحظة ما فعلت، فأنا بداية وضعت الأصبع الأوّل (الخنصر) في قنينة البول، بينما نهاية وضعت أصبعي الثاني (السبّابة) في فمي[267]. ولذلك؛ فخذوا حذركم؛ فالنّاس لا يلعب بمصائرهم حتى النّهاية.

---

[267] عبد الباسط محمد حسن، أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م، ص 330 .

النشوء حركة وفعل:

إنَّ تمدّد القوّة وانكماشها يولّد حركة قابلة للمشاهدة والملاحظة والقياس، سواء أكانت الحركة نموّا من الأرض، أم نموّا عليها (سعة وحجما ووزنا وطولا وعرضا وارتفاعا).

فالحركة تُعرف من خلال الكلمة التي تحملها دلالة، والتي بها تتجسّد وتتميّز عن غيرها؛ فعلى سبيل المثال: كلمة (انسحاب) بداية تحمل في مفهومها شيئا من التراجع القابل للملاحظة، ونهاية تدلّ على تخلّ عمّا أخذ بأيّ صفة ولو كان مؤقّتا، وكلمة مقاومة هي الأخرى تدلّ على ثبات الحركة أو توازنها بين طرفي القوّى المتدافعة، وكذلك كلمة هجرة تحمل في مضمونها دلالة الحركة والتمدّد، وستظل كلمة هجرة مجهولة إلى حين تبيان المعنى الدّال عليها؛ فأيّة هجرة أعني؟ هل أعني بكلمة هجرة :هجرة داخلية؟ أم هجرة خارجية؟ أم أعني هجرة الطيور؟ أم أنّها هجرة أسماك؟ أم أعني هجرة الرّسول صلى الله عليه وسلم من مكّة إلى المدينة؟ أم ماذا؟ فمن هنا وجب التبيان والإيضاح لأجل إتمام المعرفة أو المعلومة. ولهذا؛ فالهجرة لا تُرسم، بل الذي يُرسم هم المهاجرون، وهكذا كلمة الزواج هي الأخرى لا يمكن أن ترسم ولا ترتسم، وإلّا هناك من يستطيع رسم صورة للزواج؟ لا يمكن. ذلك لأنّ الذي يُرسم هم الأزواج والجماعات المشاركة وما يصاحبهم من وسائل.

إذا؛ فالحركة قابلة للملاحظة، وغير قابلة للمشاهدة، وإلّا هل هناك من يرى الحركة سواء أكانت حركة تقدّم أم حركة انسحاب، أم كانت حركة من أسفل إلى أعلى أو بالعكس؟

فالحركة لا يمكن مشاهدتها، بل الذي يشاهد هو المتحرّك، ولذلك لا أحد يستطيع مشاهدة حركة الطّائرة وهي في قلب السّماء، مع أنّه يتابع تحرّكها وامتداد اندفاعها، ومن ثمّ؛ فالطائرة تشاهد وحركتها تلاحظ؛ فتدرك إدراكا. وهكذا الهجرة لا يمكن أن تشاهد بالرّغم من أنّ كلمة هجرة تحمل في مفهومها حركة، ولذلك يمكن مشاهدة المهاجرين، وفي المقابل يمكن ملاحظة حركة سيرهم ومعرفة اتجاههم. وإلّا هل هناك من يشاهد الهجرة أو التقدّم أو الانسحاب؟ فمن يقول إنّه يشاهدها: فيرينا إن استطاع أن يرسمها لتكون قابلة للمشاهدة.

أمّا المعنى كمفهوم؛ فقد يرتسم، وقد لا يرتسم، وهو الذي يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الاستيعاب والفهم والتعليم. والمعنى الذي يرتسم ولا يُرسم: مثل البهجة، والسّعادة، والمحبّة، والحزن، والغضب؛ فهذه الكلمات كلها ذات معاني قابلة للارتسام على وجوه من يحسّ بها فرحة، أو ألما، أو حزنا، أو غضبا أو تعبا، ومع أنّها ترتسم، لكنّها لا تُرسم، وإلّا هل هناك من يستطيع أن يرسم الابتسامة؟ الابتسامة لا ترسم، بل الذي يرسم هو المبتسم.

وفي المقابل هناك الكلمة المجرّدة التي لا تحمل في مضمونها صورة فترسم، ولا تحمل حركة فتلاحظ، ولا تحمل ردّت فعل فترتسم، إنّها الكلمة المجرّدة التي تدرك دلالة ومفهوما ومعنى، وهي: كالسّبب، والهدف، والموقف، والدّور، وهذه الكلمات وما يماثلها فهي لا تعلّم إلّا شرحا وتوضيحا.

وهكذا؛ فالكلمة المفعولة تحتوي معطيات تنفيذها فيها، وهي تختلف عن الكلمة التي تسبق أداء الفعل أو القيام به؛ فالكلمة المفعولة تستثني الفعل الماضي والمستقبل وتتمركز على الفعل الآن (الحاضر) وكثيرا ما تكون مفاجئة {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ}[268]. ومن ثمّ؛ فالكلمة تحتوي فعل ممارستها، والفعل الذي تحمله الكلمة يحمل الكلمة التي تدلّ عليه، ولذا؛ فالفعل يسبق الكلمة في الظّروف المفاجئة.

وعندما يسبق الفعل القول، تصبح الكلمة مفعولة، كالزّلزلة التي يفاجأ بها النَّاس وتُحدث دماراً؛ فهي فعل يتحقّق، وفي هذه الحالة الفعل يسبق القول، {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}[269]. ولهذا؛ فالزلزلة فعل حدث أوّلا، ثم جاء النَّاس من بعد حدوته يتساءلون:

ما الأمر؟ ماذا حدث؟ (مالها).

فقيل لهم:

إنّها هزّة أرضية (زلزلة)، وهكذا في حالة الصّواعق التي تصيب ما تصيبه دون سابق إنذار؛ فهي فعل يتحقّق؛ فيأتي النَّاس من بعده يتساءلون.

---

[268] الواقعة 1، 2.

[269] الزلزلة 1 . 5.

ولذا؛ فإنّ جميع الأشياء والكلمات والأفعال وإن اختلفت مراميها، سواء أكانت ذات صورة، أم ذات حركة، أم ارتسامة، أم تجريدا؛ فلكلٍّ منها بداية ونهاية، ولذلك؛ فللصّور والأشكال بداية نشوء ونهاية وجود، وللحركة والارتسامة بداية نشوء ونهاية وجود، وهكذا المجرّد يظل مجرّدا بين بداية نشوء ونهاية وجود.

وعليه:

فالنّشوء بداية ونهاية خَلقا مُعجز يُخلق ممّا خُلق، وفي المقابل الخَلق خّلق من لا شيء؛ فالنّشوء لو لم يسبقه الخَلق ما كان نشوءا، مثل النّبات لو لم تكن الأرض ما نشأ نباتا، ولو لم تكن ما نشأ آدم وزوجه من تراب طينها اللازب.

فالنّشوء مرحلة وجود لأداء وظيفة مؤقّتة لغاية محدّدة، فمن قام بها من بني آدم على الوجه المفضّل كان نشؤءه ارتقاء، ومن لم يقم بها نشوء (نهوضا) فلا يعدّ إلّا صفرا.

والنّشوء معادلةٌ يمتدّ بداية ونهاية من القيمة الصّفريّة سلبا وإيجابا (ارتقاء أو انحدارا)، وهو بالنّسبة للبشر كالنّبتة (سلالة وقيمة)، والصّفر يعدّ نقطة البدء القياسي لكلّ نشوء.

فبداية النّشوء البشري نقطة صفرية، ثم يمتدّ نموّا بين خَلقٍ وخُلقٍ وارتقاءٍ؛ فالإنسان الذي خُلق من الشيء وجودا (من الأرض)؛ فهو من حيث السّلالة هو الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، ولكن من حيث كونه إنسان بما هو عليه من قيم وفضائل؛ فهو بين رقيّ وانحدار.

أي: إذا شبّ نمو البشر رعاية صحيّة وقيميّة وتعليميّة شبّ نشوءه نضجا بدنيّا وعقليّا وروحيّا، ونفسيا، ومن ثمّ؛ فإذا شبّ نموه الخَلقي في الاتجاه الموجب (فوق الصّفر)، وشب قِيميّا في الاتجاه السّالب (تحت الصّفر) فالنتيجة نهاية تكون (- x + = -) وهنا، تكمن علّة من خُلق في أحسن تقويم كون نشوئه لم يكن على حُسن ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء (خَلقا وخُلقا).

ووفقا لهذه المعادلة؛ فالإنسان بدلاً من أن تكون قدماه موضوعة فوق الصّفر، يصبح الصّفر موضوعا فوق رأسه.

وبناء على هذه المعادلة الصّفرية يصبح النّشوء مختلفا من جنس لجنس، ومن نوع لنوع؛ فالنّشوء النباتي يتأسّس على جذر وساق، وفي كلا الحالتين النشوء موجبا سواء تحت الصّفر الأرضي (الجذر)، أم فوق سطح الصّفر الأرضي (السّاق)، ولكن لكلّ تأثيره على الآخر؛ فإذا ضُرب الجذر بعلّة يضرب السّاق بعلّة العلة ذاتها، ممّا يجعل نتيجة المعادلة صفرية. وفي المقابل عندما يضرب السّاق بعلّة وينزف ينهك الجذر حتى يميته.

ومن ثمّ؛ فالنّشوء يتطلّب بيئة حاضنة تحفّز على النّمو في الاتجاه الموجب المُمكّن من استخلاف السّلالات الحسنة، وليس المُمكّن من بقائها؛ فالبقاء كلّه بين بداية ونهاية مؤقّتة، أمّا الاستخلاف؛ فهو بقاء الأجناس والأنواع إلى النّهاية.

ولهذا؛ فالنّشوء ينمو من الصّفر حتى يبلغ قمّته، ثمّ يعود إلى الصّفر حفاظا على النّوع الذي لن يقبل أن يكون الصّفر فوق رأسه.

فالنّشوء في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فما هو متوقّع أن تستخلف السّلالات بعضها بعضا، أمّا غير المتوقّع أنْ لا تخلف بعضها البعض، وهنا يكمن الاستثناء كون بعض السّلالات انتهت وانقرضت كما هو حال الدينصورات؛ ممّا يشير في الوقت غير المتوقّع إلى تعرّض سلالات أخرى للانقراض.

ولأنّ الخلق من لا شيء، والنّشوء من شيء' خُلق الكون كتلة مرتقة، ثمّ بقوّة الانفتاق العظيم أصبح أكوانا يحوطها الفراغ ويملأ أكبر حيّز من حيّزاتها فراغ يسمح بتوازنها، حيث لا تماس بينها ما لم يطرأ متغيّر يدفعها قوّة، قد تخرجها من مركزها الصّفري التي هي عليه توازنا، والذي إن حدث حدثت الطّامّة.

ولأنّه الانفتاق العظيم؛ فهو انفتاق قوّة دفع وطرد مع توازن جاذبي جعل للوجود بقاء؛ فالأرض التي كانت مرتقة في السّماوات، ثمّ فتقت، أهبط بها وبمن عليها إلى الحياة الدّنيا؛ فأصبحت الحياة على الحاجة بعد أن كانت على النّعيم، ولذلك؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية في الأرض الجنّة أصبح على التزاوج في الأرض الدّنيا، ومن هنا، كان النّشوء لحظة صفرية لتكاثر الأجناس والأنواع المختلفة.

ومع أنَّ بدء النّشوء الخلقي كان أفرادا (كلّ فرد خُلق مستقلا عن غيره)، ولكن خلق الأفراد كان أزواجا (ذكر وأنثى)، وهذا الخلق يشار إليه بخلق الجنس والنّوع، أمّا النّشوء البشري؛ فكان تكاثرا وتعدّد صفات وخصائص. ولذلك؛ فمهما تشابه المتشابهون فهم مختلفون.

وهنا؛ فالاختلاف أساس النّشوء الخلقي؛ فالذي خُلق من تراب لم يبق على طينة خلقه الأوّل، بل اختلف عنها كلية؛ فأصبح خَلقهُ من نطفة، ولا إمكانية للتّطابق، وهكذا كان الاختلاف خلقا (ذكرا وأنثى) وظل الاختلاف اختلافا مغريا لإيجاد علاقات متنوّعة بين المختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[270].

ولأنّهم مختلفون وسيظلون مختلفين، جعل الخالق لكلّ جنس ونوع عقلا يميّزه عن غيره؛ فالطّيور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما اتخذ من الجبال بيوتا، ولو لم يكن للفئران عقلا ما أرهقت الفئران عقل القطط، وهكذا الغربان ذكاء عقولها تجاوز معرفة الإنسان.

ولأنّ الاختلاف أساس النّشوء الخلقي؛ فالاختلاف أساس التشابه، وحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، الذي هو دليل الخصوصية والتميّز والتنوّع بين الأزواج جميعها.

ولذلك؛ فالنّشوء تشابه حياتي واختلاف خصوصيات، ومهما كان التشابه متقاربا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات؛ فهو لا يعني تقاربا في كلّ الصّفات والخصائص؛ فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابها مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فلا شكّ أنّ هذا الأمر لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

---

[270] هود 118 ، 119.

فالنّشوء ظُهور يَمثُل للعيان مشاهدة وملاحظة (صورة أو شكل)، وهو قابل للقياس بداية صفرية، ونهاية عددية من بعدها عودة صفرية، أي: لا بداية للنّشوء إلّا من نقطة الصّفر، ولا بقاء للنّشوء حيث لكلّ بداية نهاية. {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[271].

فالنّشوء وجود يتمدّد هيئة وزمانا ومكانا؛ فمثلما لكلّ شيء مواقيته؛ فإنَّ لكلّ شيء توقيته بداية ونهاية، ولا شيء يبدأ أو ينتهي إلّا ولحظته الصّفرية قد بدأت تمدّدا أو انكماشا، أو أنّ نهايته قد بدأت صعودا أو هبوطا، أو أنّها قد بدأت انفجارا أو رتقا.

وكما أنّ للوجود بداية صّفرية؛ فكذلك للنّهاية بداية صّفرية؛ فالخطّ الصّاعد عندما يصل إلى أعلى درجة قياسية، ليس له بدّ إلّا الهبوط عندما تضعف قوّة المقاومة أمام قوّة الجاذبية، ولذلك فلكلّ نشوء بداية ونهاية، ولا بقاء.

ومع أنَّ النّشوء وجود قوّة حياتية، لكنّ أيّ قوّة توجد بالقوّة؛ فهي الضّعف أمام من أنشأها على القوّة، ولهذا فمهما كانت القوّة المنشأة؛ فهي لا تخيف إذا ما تدارك الإنسان عقله تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا.

ومن هنا، وجب التوقّف عند القوى المتضادّة، حيث لكلّ فعل ردّة فعل قد تساويه في القوّة، وقد لا تساويه، فإن كانت القوّة متساوية، كانت المعادلة صفرية، وإن كانت غير متساوية؛ فلا بدّ من المغالبة. ولذلك؛ فلكلّ نشوء ردّة فعل من نشوء آخر، كما هو حال البيئة وتأقلم الكائنات معها، وكما هو حال التوازن بين المخلوقات

[271] الأنبياء 104.

المتضادّة، (صياد وطريدة) وكما هو حال القطّ والفأر، والثّعلب والدّجاجة، والضّبع والحمار، والذّئب والخروف، وهكذا، فما يجري بين ذات السّموم وغيرها أعظم.

ولذا؛ فالنّشوء الخلقي نشوء تضادّ بين فعل وردّة فعل، وإن وهنت قوّة أحد الأطراف المتضادّة أو المختلفة.

وبما أنَّ النّشوء نشوء متضادّات الأفعال، إذا؛ فلا ديمومة للبقاء الآمن؛ فالحياة دنيا. ولأنّها الدّنيا، وجب البحث عن أسباب الارتقاء، وما يحفّز عليه، ويدفع تجاهه عن إرادة.

ولذلك؛ فالنّشوء الخلقي مؤسّس على قوّة الفعل وردّة الفعل المضاد، ممّا يجعل الارتقاء البشري ضرورة لإحداث التوازن وإحداث النُقلة، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[272]. أي: ينبغي أن تستخدم قوّة الفعل في مواجهة فعل يساويه، ولكن إن لم يكن الاعتداء؛ فتكون قوّة النّشوء مؤسّسة على قاعدة حُسن الاستجابة، ولذلك؛ فساعة حدوث الانفتاق بالقوّة كانت ردّة الفعل قوّة استجابة (الطّاعة) وكانت النتيجة استواء (اعتدالا)، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[273]. ومن هنا، ينبغي أن يكون نشوء الإنسان على التوازن والاعتدال.

وعليه:

---

[272] البقرة 194.

[273] فصلت 11.

ليس من الضّرورة أن تحدث المواجهة مع أيّ نشوء فعل، فقوّة الفعل ذو الأثر الموجب تمكّن من الاستجابة المرضية، ممّا يجعل اندفاع القوّة في ذات الاتجاه الموجب.

ولذلك؛ فقوّة الفعل تُحدث تغييرات قد تكون من أجل تحريك الجّسم السّاكن، أو زيادة سرعته، وقد تكون من أجل إيقاف الجّسم المتحرّك، أو تقليل سرعته، أو تغييرها. وفي كلّ الأحوال فإنّ لكلّ نشوء جسم أو كتلة، نشوء قوّة، تدفعه صعودا ضدّ القوّة الجاذبة، أو هبوطا مع القوّة الجاذبة، ومع ذلك لا بدّ من الوصول إلى النقطة الصّفرية صعودا أو هبوطا؛ فصعودا عندما تصبح قوّة الجسم المندفع تساوي صفرا حينها يكون الجسم قد وصل إلى نقطة النّهاية، وهبوطا عندما لا يجد الجسم المندفع إلّا الارتطام بالأرض الجاذبة له هبوطا، ومن هنا، تصبح النتيجة صفرية، ولذلك؛ فالنّشوء البشري بداية قدماه فوق الصّفر، ثمّ انطلاق حركة وتمدّد، ونهايته تأتي عندما يكون جهده لا يساوي إلّا صفرا.

فالنّشوء ينطلق من نقطة الصّفر تمدّدا حتىّ يبلغ قمّة المسافة التي بإمكانه أن يقطعها وجودا حيّا، وهناك يجد الكائن نفسه قد استهلك كلّ قوّته الدّافعة في الاتجاه المعاكس للجاذبية، فيقف بغير قوّة عند تلك النّقطة الصّفرية، حيث الموت يقف هناك منتظرا ليلتهم المُنهَكين. فهكذا هو النّشوء فوق الأرض الدّنيا يتمدّد في المسافة الوجودية بين حياة وموت؛ فينتقل من وجود الأحياء إلى وجود الأموات (حيث يقبرون) ويقضون وجودهم الذي لا نرى منه إلّا أثرا (عدما). وسيظلون هناك حتى يُقضى على الموت بالموت،

ليكون البعث ولادة جديدة لبقاء دائم بدايته صفر ولا صفر من بعده حيث التمدّد إلى ما لانهاية.

الفصل الثالث

الارتقاء

الارتقاء The evolution

الارتقاء قيمة تفضيلية خصّ الله بها الإنسان خَلقا وخُلقاً؛ فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه؛ فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي أمر بها الخالق، وفضّلها النّاس، {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[274].

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين تلك الزّواحف ومكبّة الأوجه، وبين من يمشي سويّا (مقوّما)؛ ذلك هو أمر الخالق؛ فلا يتبدّل، أمّا المتبدّل فهي الأخلاق التي هي بيد المخلوق.

ولذا؛ فلا إمكانية لتلك المخلوقات أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ البعض لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبة الأوجه. وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويّا أن ينحدر خُلقا؛ فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقاً.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) الذي خُلق في أحسن تقويم، ولم يُخلق على الكمال، إنّه الإنسان بين التسيير والتخيير الذي (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر؛ فيتاب عليه، ومن ثمّ؛ فمخالفة أبينا آدم هي مخالفة تخييريّة ذات علاقة بالإرادة والرّغبة والشّهوة، وهذه مكامن العلل والضّعف النّفسي التي تجرّ لما لا ينبغي (للمخالفة) كما تجرّ لما ينبغي (الطّاعة والاتباع)، ولذلك؛ فحسن التقويم لا يتغيّر، أمّا حُسن الأخلاق في دائرة الممكن؛ فيتغيّر بين سُفلية وارتقاء.

---

[274] الملك 22.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع رُقيّا؛ فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب أن لا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[275]. ذلك لأنّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق، ولا تتعلق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ؛ في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمّا الاستثناء في دائرة الممكن أن لا يُصححه، ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة: وهي متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[276]. ولأنّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خلقه في أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[277].

ولذا؛ فأساس خلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمّا الاستثناء أن لا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه

---

[275] البقرة 37.
[276] الأنبياء 30.
[277] التين 4.

خلقا. وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: أن لا يأكلّ من تلك الشّجرة، {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[278].

ومن هنا، جاء انحدار أبينا آدم عوضا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خلقا. {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[279]، حيث الهبوط على الأرض التي فتقت من السّماوات؛ فأصبحت أرضا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍ (في السّماء). ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[280]. ولهذا؛ فقد أستثنى آدم من الوجود السُفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[281].

وعليه:

فالإنسان الأوّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم؛ فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء، وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو: المنهي عنه، (أن لا يأكل من تلك الشّجرة)؛ فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرا، ولكن لم يحدّ عن خَلقه المقوّم تسييرا، حيث لا إمكانية له في ذلك.

---

[278] البقرة 35، 36.
[279] التين 5.
[280] البقرة 37.
[281] التين 6.

فالارتقاء خَلقا سيظل باقيا ومميّزا لبني آدم، ولن يتطوّر أكثر من حُسن التقويم، وكذلك لن ينحدر عنه؛ فهو الخَلق الذي لا يتبدّل كونه بيد الخالق، أمّا المتبدّل؛ فهو: الذي بيد المخلوق، وهي: الأخلاق، ومن هنا، أكل آدم من تلك الشّجرة، حيث الرّغبة والإغواء المزيّف للحقيقة، وهو الذي شوّه الأخلاق انحرافا.

ارتقاء الخَلق الآدمي:

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق؛ فلا تخيير، ولأنّه لا تخيير؛ فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبّا، وسيظل الزّاحف زاحفا، وسيظل من يمشي سويّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ؛ فسيظل القرد قردا، والإنسان إنسانا، والسّمك سمكا.

ونظرا لأهمية الإنسان في الوجود الخلقي جاء خَلقه من عجلٍ، {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}[282] والعجل هو الشيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئا؛ فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي: لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد، ولهذا؛ فخلقه لا تسرّع فيه، ولأنّه لا تسرّع، قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[283]. مع العلم أنّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين. وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}[284]؛ والسّلالة، هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في علاها. وذلك، لأنّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدَنيا، بل كان خَلقه

---

[282] الأنبياء 37.
[283] التين 4.
[284] المؤمنون 12.

على الأرض قبل أن تُفتق، ويُهبط بها دُنيا، ولهذا؛ فالسّلالة تدلّ على أصول الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات حيث رُقي طين الجنّة.

ومن هنا؛ فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجّودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنس ونوع)، ولذا؛ فلا عجل، ولا عبثية في خَلق الإنسان الذي خُلق من طين الجنّة، والذي جودته تصلصل ارتقاء، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[285].

ولأنّ الإنسان الأوّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم؛ فهو من حمإ مسنون، (من مادّة ذات جودة عالية) حيث لا شائبة، ومن ثمّ؛ فلا طين يماثلها؛ فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

فخُلق الإنسان مُفضّلا على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجنّ. {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[286].

ولأنّ الإنسان هو المفضّل خَلقا؛ فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

[285] الحجر 26.
[286] البقرة 30.

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[287].

ولأنّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة إليه طاعة لأمر الله، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[288]، أي: بأسباب الخَلق ارتقاء والنّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، سجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنَّ الجنس الآدمي هو المفضّل ارتقاء، كان آدم نبيّا للملائكة والجنّ والإنس جميعا، (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ). فلمّا أنبائهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلّا هل هناك من يشكّ في أنّ الذي سجد الملائكة له، لم يكن على الارتقاء مفضّلا؟

أمّا الخَلق الثاني: فهو الخلق المؤسّس على النّطفة (الماء الدّافق) {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[289]. وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، ممّا جعل السّلالة الثانية تختلف عن السّلالة الأولى؛ فالسّلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسّلالة الثانية: من ماءٍ دافق ومَهين، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[290].

---

[287] البقرة 31 - 33.
[288] البقرة 34.
[289] النحل 4 .
[290] السجدة 8.

ولأنّ الإنسان خُلق على الارتقاء؛ فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنّه كبد الكون، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[291]، أي: خُلق الإنسان على المحبّة؛ فينبغي أن يكون عليها كبدا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى استقامة واعتدالا ولا مظالم؛ فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء.

ارتقاء الأخلاق:

تعدّ الأخلاق نتاج القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاء، بها يرتقي الإنسان قولا وفعلا وعملا ومعرفة وسلوكا من أجل علاقات اجتماعية وإنسانية مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

فالإنسان أساس خلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) وغايته الارتقاء خُلُقا إلى ما يجب؛ ومع أنّ الأخلاق بيد النّاس، ولكن البعض يخسرها بلا ثمن.

ولذلك؛ فالإنسان الأوّل قد خُلق من تراب الجنّة؛ وظل على خَلقه سلالة بشرية تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده؛ فالإنسان هو الإنسان. ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فآدم وزوجه خُلقا في الجنّة من تراب الجنّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم، حيث عدم

[291] البلد 4.

التزامهما بالأمر النّاهي عن الأكل من تلك الشجرة، {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[292].

إذا؛ فالبقاء في الجنّة بقاء فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصّلاة والسلام الذي خُلق في الجنّة خَلقا، أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدّنيا، وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة؛ فبعد أن تلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[293]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍ وارتقاء إلى سُفليّة ودونية، {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا}[294].

ولأنّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم؛ فهو خروج من الجنّة، حيث ظلّت الجنّة في العلو رُقيّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدّنيا على الأرض الدّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنّة ارتقاء، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدّنيا إلّا تنزيلا لأداء مهمّة تربط أمرا بين السّماء والأرض، نحن نجهله، {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ

---

[292] البقرة 36 .
[293] البقرة 37.
[294] البقرة 38.

الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[295].

ولأنّها الأرض الدّنيا، وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذا؛ فلا إمكانية لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة والنّاهية والآمرة والمحذّرة والمنذرة والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة، وذلك من أجل علاقات إنسانية تنظّم أساليب الحياة ارتقاء وتلفت المختلفين إلى ما يؤدّي إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من إحداث النُقلة وبلوغ القمّة.

فأنزلت الرّسالات تأمر وتنهى، {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[296]. بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء كان آدم وزوجه في الجنّة ارتقاء، أم أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارا، غير أنّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارا على الإنسان الأوّل (آدم) ومن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاء كاملا.

أمّا بعد الهبوط؛ فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك؛ فإنَّ بقاءها في الحياة الدّنيا هو بغاية الاتعاظ وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

---

[295] القدر 3 - 5.

[296] البقرة 190.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنّة)؛ فظلّ هذا الدّرس شاهدا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنّة. أي: بما أنّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنّة، إذا؛ فكيف لبني آدم من دخولها؟

أقول:

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[297].

ولأنّ أمر الهبوط كان أمرا حاسما لمخالفة جرت في الجنّة؛ إذن، ألا يعدّ أمرا الهابطين أمرا حاسما في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مخرج من هذه الأزمة، ومعظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدّونية؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[298].

ولأنَّ الدّين مصدر الفضائل والقيم؛ فلا إكراه فيه، وهذه عين الأخلاق؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولذا وجب قول الحقّ وترك النّاس أحرارا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فوجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من

---

[297] الأنعام 160.

[298] الزمر 53.

حيث هم (جهلا أو تعلّما)، وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء.

ولأنّ الأخلاق ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة؛ فالأخذ بها، لا شكّ أنّه يجعل الإنسان على المحبّة بدلا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[299]. أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[300]. لذلك، كان محمّد داع إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق ارتقاء؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة. إذا؛ فمن أراد أن يكون قمّة؛ فعليه بالأخلاق الحميدة ارتقاء.

ارتقاء آدم:

خَلق الله آدم في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنّة) حيث لا إنس من قبله، ولأنّه كذلك، جعله الله على الارتقاء نبيا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنّة والأرض مرتقة في السّماوات، ولكن بمخالفة أمر الخالق أهبط به والأرض ومن كان سببا في إغوائه ومعصيته، وكذلك من قَبِلَ الإغواء معه معصية، وهنا تكمن العلّة التي دعت آدم ندما

[299] يونس 99.
[300] يونس 99.

واستغفارا وتوبة، ولكنّ قرار الهبوط نافذ، {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[301].

ومع أنَّ آدم تاب لربّه، ولكنّ توبته لم تَحُلْ بينه وبين الهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاء؛ فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيا، لِيُنبئ من بُعث اليهم نبيا، {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[302]، ومن هنا، يكمن أمل آدم، في العودة إلى الجنّة ارتقاء؛ تلك الجنّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيما على الأرض المغبرّة التي أهبط بها أرضا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

لا سبيل له إلّا الاستغفار عن معصيته، والتوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربّه نبيا، وعلّمه ما لم يكن يعلم؛ فأدرك آدم أنّ فرصة العودة إلى الجنّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله رفعة.

ولذلك؛ فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو المُمكّن من إحداث النُقلة وتحقيق الارتقاء رفعة؛ فتلك الجنّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابنيه؛ فهما ولدا في الحياة الدّنيا (السُّفلية)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجّة وموعظة وعبرة؛ فبدأ العمل ارتقاء من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبيه الذي شهد ذلك النّعيم؛ فأخذ بالنبأ وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخاه أخذته الشّهوة انحدارا وسُفليّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة، {لَئِنْ

[301] الأعراف 24.
[302] طه 122.

بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[303].

وعليه:

فالارتقاء مؤسّس على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ارتفاعا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُفليّة، وذلك من أجل بلوغ ما يُمكّن من إحداث النُقلة الممكّنة من بلوغ الجنّة عيشا رغدا. ومن هنا، وجب العمل المحقّق للعيش النّعيم الذي فيه الوفرة تغذي الرّوح، وتطمئن النّفس، وتخاطب العقل، وترضي القلب، وتشبع البدن، وتزيد الذّوق رفعة وارتقاء.

فآدم خُلق في الجنّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها وأهبط به والأرض دُنوّا، ولكنّه لم ينس ذلك العيش الرّغِد، والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدّنيا.

إنّ الحياة الدُّنيا، إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا؛ فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر؛ فأصبح الصّدام والاقتتال

[303] المائدة 28 - 30.

انحدارا من البعض، في مقابل ارتقاء البعض رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه، ولذلك؛ فقد سعى استغفارا وتوبة أهلّته لأن يكون نبيا ينبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ؛ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلّا بالعمل الصّالح.

ولذلك، أصبح العمل ارتقاء أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود من أجل العيش الرّغد وإظهار الزّكاة وإعطاء الصّدقة (ضريبة وتبرّعا)؛ فالسّاعون ارتقاء مهما بلغوا من المراتب والقمم؛ فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم، ولهذا؛ وجب العمل إتقانا حتى الارتقاء بالأرض الدّنيا ورتقها في السّماء جنّة.

ومن أجل ذلك، وجب العمل المُمكّن من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة أن لا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسا من تروس عجلة الحياة العامّة، ذلك لأنّ الارتقاء المُمكّن من السّعادة لا يمكن أن يتحقّق والغير يتألم، ولذلك؛ فالعمل وفقا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ، وهو: إحداث النُقلة، وغرض عام، وهو: تحفيز الأخرين ودفعهم تجاهها، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية.

ارتقاء بني آدم:

بنو آدم في دائرة الممكن هم بين متوقّع وغير متوقّع، أي: أنّهم بين متوقّع الارتقاء ومتوقّع الدّونية، ومن جهة أخرى هم: يتبدّلون حيث

لا ثوابت؛ فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونية، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء. ولذلك، ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه قمّة.

ولأجل ذلك: ينبغي أن نميّز بين تحديد الأهداف وإنجازها، وبين تحديد الأغراض وتحقيقها، وبين تحديد الغايات وبلوغها؛ فالأهداف تحدّد لتنجز أولا بأوّل، وهي في دائرة الممكن المتوقّع لا تنتهي إلّا بانتهاء من يعمل عليها، ولهذا؛ فلا توقّف بعد إنجاز الأهداف، بل ينبغي تحديد أهداف أهم من التي أنجزت، ثم من بعدها أهداف أعظم، وهذه من سُبل تحقيق الارتقاء غاية.

ولأنّها أهداف تحقيق الارتقاء؛ فلا تكون ذات أهمية إلّا ومن ورائها أغراض، ثمّ من وراء الأغراض غايات عظيمة، ولهذا، لا ينبغي أن تكون الأهداف غاية في ذاتها، بل يجب أن تكون الغايات من ورائها رفعة.

إنَّ قاعدة تحديد الأهداف مؤسّسة على الإنجاز، وإلّا لا داعي لتحديدها، أي: كلّ ما أنجز بنو آدم هدفا ينبغي أن يكون من ورائه هدف أهم، ثمّ من ورائه هدف أكثر أهمية، ووراء كلّ هدف غرض من ورائه غرض أعظم، وهكذا هي سُبل تحقيق الارتقاء غاية ومن ورائها غاية.

ولذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع، البعض يحدّد أهدفه، ولكنّه لا يعمل على إنجازها وكأنّ تحديدها هو الغاية؛ وكذلك هناك من يحدّد أهدافه ويعمل على إنجازها دون أن تكون له أهداف من بعدها،

وهنا يكمن الفشل أمام تطوّر الحاجات وتنوّع مشبعاتها، ولهذا؛ فالأهداف ارتقاء: ينبغي أن يكون من ورائها غرض تكمن من ورائه غاية.

وكذلك في دائرة الممكن غير المتوقّع هناك من يحدّد أهدافه بمعزل عن قدراته وإمكاناته المتاحة، ممّا يجعل الأهداف لا تزيد عن كونها قد كتبت على الورق، أو خبّأت في الصّدور، وهنا يقف حمار الشّيخ عند العقبة، حيث لا شيء ينجز، سوى الحديث عن تلك الأهداف المقبورة.

ومن ثمّ؛ فمن يريد أن يبلغ الغايات العظيمة؛ فعليه أن يجعل أهدافه درجات سلّم (درجة أعلى من درجة) أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلّم، أهّب قدمه الأخرى إلى الدّرجة التي هي أعلى من التي وضع عليها قدمه الأوّلى، ولذا؛ فلا ينبغي أن يغفل أحد من بني آدم ويضع قدميه معا على درجة من درجات السّلم حتى لا تنكسر بأيّ علّة ويجد نفسه قد وقع على الأرض الدّنيا حطاما؛ فالقدمان لا يوضعان بسلام وصاحبهما مطمئن إلّا على قمّة استراحة السّلم الذي يرتق الأرض مع السّماء ارتقاء.

ومن ثمّ، ينبغي على بني آدم عند رسم السياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والكرامة، أي: تحقّق لهم المكانة الشّخصية قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة. ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا؛ فلا شيء لهم إلّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار علّة.

ولذا؛ فكلّما أُنجز هدف، من ورائه غرض، من ورائه غاية، يتمّ اكتشاف أهداف من ورائها أغراض تحقّق غايات أكثر أهمية؛ فالحياة الدّنيا لا غاية من ورائها إلّا رتق الأرض بالسّماء ارتقاء. أي: كلّما وضع الإنسان أحد قدميه على درجة من درجات السّلم ارتقاء وتحقّقت له الرّغبة المُرضية قيمة وفضيلة، يجدّ نفسه أكثر رغبة تجاه الصّعود إلى الطوابق العليا حتى يرى بأمّ عينيه أنّ الأرض والسّماء قد رُتقتا جنّة.

فعلى بني آدم أن يعرفوا إنّهم سيبلغون السّماء ارتقاء كلّما عملوا وفقا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ولكن إن أحسّ بعضهم بشيء من التّعب؛ فعليهم بوضع أيديهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء، وعليهم أن يتأكدوا أنّهم في حاجة لوضع أيدهم مع أيدي الصّاعدين ارتقاء.

ولأجل بلوغ الارتقاء قمّة؛ فلا بدّ من سيادة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة بين بني آدم، تقبّلا، واحتراما، وتقديرا، واعتبارا، واستيعابا، وتفهّما، وتدبّرا، مع مراعاة البدء مع النّاس من حيث هم، من أجل ما يجب أن يكونوا عليه ارتقاء.

فالارتقاء معمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة)، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة؛ فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيّا، وبين الهادمين له انحدارا، ما لم يضع الجميع نصب أعينهم أهدافا قابلة للإنجاز، من ورائها أغراض قابلة للتحقّق، وغايات

يجب أن تُبلغ ارتقاء. ومع ذلك؛ فهذا الأمر لا يزيد عن كونه أملا، وسيظل أملا، لأنّ الخالق خلقنا على الاختلاف وسنظل عليه مختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[304].

إنّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة، هو: اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين، ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي: ينبغي أن تحدّد الأهداف وفقا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصاما، ويحلّ تأزّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلا وارتقاء.

فمن أجل الارتقاء قمّة، ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن؛ فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزّمن لا يعطي الفرصة مرّتين؛ فيجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظروف ارتقاء، ومن يضيعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم؛ فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة؛ فالنّدم يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي: متى ما ضعف الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي ارتقاء تذكّر؛ فاتعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر، عمل وأنتج، ومتى ما فكّر، حدّد أهدافا من ورائها أغراض، والغاية من ورائها قمّة.

---

[304] هود 118 ، 119.

ولذلك، وجب التدبّر بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين؛ فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بركب من يحدِّدون أهدافهم وأغراضهم وغاياتهم بأمل تحقيق الرّفعة والارتقاء قمّة.

وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم، وتوجيهها وفقا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة؛ فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ الفضائل والقيم وبناء الدّولة؛ فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة.

فرجالات الدّولة ارتقاء هم من لا تأخذهم العصبيّة، ذلك لأنّ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون؛ فرجالات الدّولة ارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كبروا تواضعوا، أمّا المدّعون لذلك؛ فهم مع كلّ هبة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وعلّة الدّولة.

فالدّولة ارتقاء تستهدف رجالات بعينهم وفقا لما هم عليه من مكانة، ومع ذلك، تخضعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك هم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن القيم والفضائل الخيّرة، بهدف إعادتهم إليها ارتقاء.

ومن ثمّ؛ فمن يرى نفسه رجل دولة؛ فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنون كرام هم يدركون أنَّ السّبيل إلى النّجاح هو: الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعية، أو الوطنية، أو الإنسانية، أو يمسّ معتقدا دينيا.

ولكن من بني آدم من يجهل ويغفل؛ فيقع في فخّ مصيدة الغاوين والمزيّنين والمضللين التي تزداد ضيقا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع إنّ للألم اواجعا، وللتأزّم أوجاع، ولكن أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك، وجب أخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمّا الحقد بين بني آدم ؛ فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي: أنّ نار الحقد تحرق أوّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)، ولذلك؛ فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره هو في حاجة لمن يطفئ عنه النّار التي بها نفسه تحترق. ومن ثمّ؛ فمن يعتقد أنّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها؛ فلا شكّ أنّ عضّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا؛ فإنّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم؛ فلا سبيل لهم إلّا التخلّف، والانحدار،

والسُفلية المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب ترتقي علما ومعرفة وتسامحا وخبرة وتجربة؛ فتغزوا الأرض سلاما، والسّماء بحثا وارتقاء.

فبنو آدم الذين بلا أمل لا يعدّون إلّا أمواتا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله؛ فسيبقون على أملهم وكأنّهم بلا آمل، أمّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل؛ فلا شكّ أنّه سيُسهم في إحداث النُقلة ارتقاء، وفي المقابل هناك من يهدم وهو لا يعتقد أنّ الهدم سيقع على رأسه وكأنّه بلا رأس.

وهكذا، هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس. ولذلك؛ فلا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّون فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظا، وعليهم بالتدبّر تحليلا وتفسيرا وتخطيطا وسلوكا وعملا، وعليهم بالتّفكّر من أجل ما يجب، حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباء جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولهذا؛ فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه، ولأجل ذلك فمن آمن منهم يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيّا.

فبنو آدم من أجل تلك الجنّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها، ولذلك، هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك؛ فهم في حاجة للمزيد المعرفي المُمكّن من زيادة الارتقاء قمّة، وخير وسيلة لذلك، المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعا وتمدّدا.

وهنا، أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم؛ فقد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون، ولذا؛ فَلِمَ لا تتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من الاكتشاف العلمي، وإلى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النّاس جميعا). فإن كنتم أهل موضوعية؛ فلا يليق أن تتجاهلوا كتابا يملأه العلم والبيّنة؛ فأنا لا أقول لكم ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية وراء آية.

ولهذا؛ فلا ارتقاء لبني آدم إلّا والبحث العلمي مصدره، والفضائل الخيّرة مصدره، والقيم الحميدة مصدره، ومن يغفل عن ذلك ليس له من خيار إلّا الانحدار على بلاطة الدّنيا.

ومن ثمّ؛ فالارتقاء بالنّسبة لبني آدم هو: أمل قابل لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلّا بمقارنة بين العُلية والدُّنيا؛ فالعُلية هي السّماء وما فيها من نعيم الجنّة وبقاء الحياة، أمّا

الدُّنيا؛ فهي: الأرض، وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة. وبين هذا وذاك، وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، وبين التّسيير تارة أخرى؛ فالتّخيير: (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحا أو تعمل طالحا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمّا التّسيير: فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا؛ فالارتقاء قمّة، هو: ما يمكّن بني آدم من العيش الرّغد في الحياة الدّنيا (الزائلة) وما يمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العلية (الباقية)؛ فبنو آدم لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة، ومن هنا؛ فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة؛ فالله خلق أبانا آدم في النّعيم ليعيش وبنيه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزائلة (الحياة المنقوصة) حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك؛ وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعة وارتقاء.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدّنيا، التي تتطلّب العمل، بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية) حيث تُرتق الأرض في السّماء بعد أن فُتقت منها.

فيجب الإقدام على العمل المشبع للحاجات المتطوّرة بلا حدود، ذلك لأنّ الحدود عوائق أمام التقدّم تجاه بلوغ الأفضل والأعظم. ولهذا؛ فلا ينبغي أن يرتضي بنو آدم بالفقر؛ فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ فلو عمل بنو آدم جميعهم، لما وجد الفقر مكان له على الأرض، ولأنّهم لا يعملون جميعا؛ فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من استغنى.

ولذلك؛ فالغناء رحمة؛ والفقر أزمة ومواجع، ولأنّهما كذلك، وجب على الأغنياء العمل إلى جانب ما يعملون ويجنون من مكاسب من أجل إزالة الألم عن الفقراء وتحويلهم إلى ميادين العمل المنتج ارتقاء.

فالغنى ارتقاء حقّ لا يكون إلّا نتاج العمل المرضي، أمّا الفقر ليس بحقّ، بل الفقر أوجدته أسباب وعلل ينبغي أن تزال. أمّا العجزة والقصّر؛ فحقوق عيشهم المُرضي على كواهل العاملين من ذويهم، ولكن إن كان ذووهم يعيشون اتكالا على الغير؛ فالعيب لا شكّ أنّه سيلاحقهم ومن ورائهم سيلاحق المسؤولين في الدّولة.

إذا؛ فالارتقاء لا يمكن أن يكون على حساب الغير، بل يكون بجهودهم المشتركة حيث لا إقصاء ولا تغييب لأحد عن ممارسة حقوقه، أو أداء واجباته، أو حمْل مسؤولياته. وفي المقابل يحدث

الانحدار والنّزول سُفلية لمن يتخلّى عمّا يجب التمسّك به حقّا وواجبا ومسؤولية.

ولذلك، ينبغي أن يعمل الجميع بهدف الاستغناء والحياة الرّاقية، وكلّما بلغ الجميع مستوى من العيش الرّفيع الرّغد يجب أن يفكّروا فيما هو أرفع وأرغد منه حتى تُرتق الأرض والسّماء بالعمل ارتقاء.

اعوجاج بني آدم:

بنو آدم بالرّغم من خَلقهم في أحسن تقويم، وبالرّغم من اصطفاء واجتباء الأنبياء والرُّسُل منهم وإليهم، لكنّهم لم يُخلقوا على الكمال، وهنا تكمن العلّة، التي تجيز لهم ارتكاب المخالفات والمعاصي وارتكاب الخطايا التي منها ما يُغتفر ومنها ما لا يُغتفر، ومع ذلك فكلّ ما يقدمون عليه هو باختياراتهم المسؤولة وغير المسؤولة؛ فإن كانت مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه كلّ ما يحققّ لهم الارتقاء رحمة، وإن كانت غير مسؤولة حفّزت ودفعت تجاه ما يؤدّي بهم إلى الانحدار والدّونية. ومن هنا، يلد الخلاف خلافا، فتشتدّ الخصومات والصّدامات بين من يرى المسؤولية ارتقاء، وبين من لا يرها إلّا انحدارا.

ولذلك، عندما تغيّب المسؤولية، يحضر الفساد والسّلب والنّهب والغدر والاقتتال المؤدّي إلى الدّونية كما هو حال ابن آدم عندما قتل أخاه ظلما. إنّه أوّل انحدارا بعد تلك المعصية التي اقترفها أباه عندما أكل من تلك الشّجرة المنهي عنها، وهي أوّل جريمة قتل تحدت على الأرض الدّنيا.

ولأنّ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة، حيث اختياراتهم بأيديهم، ولذلك فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[305]، أي: أنَّ الضّعف والوهن هما مكمن العلّة الآدمية؛ فمن يقوى من بني آدم ينهض ويرتقي، ومن يضعف يستكين ويعوجّ انحرافا، ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام، يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوّة والارتقاء رحمة؛ فكان نوحٌ آية، وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكن قومه في معظمهم كان الضّعف فيهم آية؛ فكذّبوه وكفروا به، وبما جاءهم به هداية.

فتلك الفترة التي بُعث إليها آدم نبيا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل؛ فبعث الله نوحا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقا أمام هداية الكثيرين منهم؛ فكان الطّوفان حلّا فاصلا بين من اتبع الحقّ هداية، وبين من ضلّ عنه ضعفا وانحرافا. {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[306]. فالقليل هم الأقوياء الذين ارتقوا إلى ما يُمكّن من النّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء؛ فغرقوا ضعفا ووهنا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية وقوّة وارتقاء، ولكن لأنّ الذين أهبط بهم ظلوا على الأرض الدّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف بين بني آدم لا مهمة له إلّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف والوهن الآدمي حيث بقاء الشّهوة، والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض

[305] النساء 28.
[306] هود 40.

النّاجين، ممّا ولّد فيهم ما ولّد من خلافات وانحرافات وشدائد وتأزّمات، وكأنّ الطّوفان لم يُحدِثُ آية؛ فضلّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيا ورسولا، ثمّ بعث من بعده من بنيه أنبياء عظام؛ فكان خاتمهم محمّد نبيا ورسولا بالرّسالة الخاتمة، وللنّاس كافّة، ولا إكراه في الدّين حيث تبيّن الرّشد من الغي.

أمّا بعد انتهاء فترات بعث الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم، وفقا لرؤاهم، ومدى ارتقائهم وأخذهم بالفضائل الخيّرة التي أمر بها الخالق؛ ولذا؛ في زمن الرّسل لا وجود للأنظمة الحاكمة؛ بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل). أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل؛ فأصبح الأمر بين النّاس شورى، وفقا للإرادة والرّغبة والمقدرة والحاجة المتطوّرة، {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[307]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ؛ فعليه بها ديمقراطية بلا مكاره.

ومن هنا، كان الاختلاف والخلاف في معظمه بين من يحكم من، وبين من يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاء، وبين من يتخلّى عنه دونيّة وانحدارا، وبين من يرى الحريّة حيث لا إكراه، وبين من يرها تمدّدا خارج الحدود، وبين من يرها لا تكون إلّا وفقا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحرّية عدالة يستظل الجمع تحت مظلتها حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليّات تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين، وسيظلون إلّا من رحم ربّك، {وَلَوْ

[307] الشورى 38.

شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[308].

ولأنّ الاختلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذا؛ فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف البعض بعضا، ولا استغراب أن يتصادم البعض مع البعض، ولكن الاستغراب أن لا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة تُصلح المعوجّ وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الاختلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلّا حيثما حلّ.

وعليه:

في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلّ يتنزّل على الأقوام والأمم والكافّة من السّماء، أمّا في الزّمن الذي بعد رسول الكافة؛ فلا نبي ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أنزل، وبقى الأمر بين النّاس شورى، سواء أكان أمر النّاس سلما أم حربا، أم سياسة داخلية، أم سياسة خارجية؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدّر ويحترم ويعتبر؛ فيقر ويؤخذ به عملا وفعلا وسلوكا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه لكونه معوجا.

ولذلك؛ فالاختلاف والخصام والجدال والصّدام في زمن الرّسُل، قد تأسّس على الفضائل الخيّرة التي لا تستمدّ إلّا ممّا أنزل من عند الله،

[308] هود 118 ، 119.

حيث {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[309]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[310]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[311].

فهذه الفضائل ارتقاء جاءت إنسانية، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاء إنسانية، ذلك لأنّها فضائل طي الهوة التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم علّة.

أمّا بعد اختتام الرّسالات والرّسُل؛ فأصبح للقيم الاجتماعية تقدير ومكانة إلى جانب تلك الفضائل الإنسانية. أي: أصبح للخصوصيّة الاجتماعية أهمية ومكانة، ولتنوّع اللغات أهمية ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النّاس أهمية وضرورة، ومن ثمّ، أصبح للدّساتير والقوانين المنفّذة لها أهمية مقدّرة بين الأمم والشّعوب، ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهمية تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيّة علّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهمية ذلك، سيجد نفسه شريكا في كلّ ما يؤدّي إلى الفتن والانقسامات والصّدمات المؤلمة التي لا تكون إلّا على أيدي المعوجين عمّا يجب أن يكون بين النّاس محبّة ومودّة.

بنو آدم بين الارتقاء والدّونية:

كان خَلقُ آدم في أحسن تقويم، خلقا مُميّزا بملكة الاختيار والتدبّر التي كلّما أُحسنت إدارة حفّزت على الأخذ بما يجب، وكلّما سِيئت

---

[309] البقرة 256.
[310] الشورى 38.
[311] الكافرون 6.

إدارة حفّزت على الانحدار إلى المنهي عنه، وبين هذا وذاك، فآدم لم يحسن الاختيار المُبقي على حُسن التقويم؛ فانحدر معصية مع انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدّنيا بعد أن كان في السّماء قمّة.

ولأجل الإيضاح:

هل خُلق آدم على الارتقاء خلقا، أم أنّه جُعل عليه جعلا؟

أقول:

لو جُعل آدم على الارتقاء جعلا، لكان الارتقاء مستقلّا عنه وسابقا عليه، ولأنّه لا سابق على آدم ارتقاء؛ فهو المخلوق عليه خلقا، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[312]، ولأنّه خُلق على الارتقاء خلقا، قال (في أحسن تقويم)، وفي المقابل لو كان آدم قد جُعل على الارتقاء جعلا لقال تعالى: (على أحسن تقويم) وهو المأمول غير المتحقّق في ذات آدم خلقا، وهذا ما يخالف دلالة الحُسن التي خُلق فيها آدم خلقا.

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه انحدر إرادة ومعصية؛ فكان في سُفلية ودونية أمام خالقه، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[313]. ومع ذلك استغفر آدم ربّه فتاب عليه، ومن هنا، فتح الله باب التوبة

[312] التين 4.
[313] التين 5.

لعباده الذين أمنوا وعملوا الصالحات، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[314].

ومع أنّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارا يأمل الارتقاء عمّا انحدر فيه من سُفلية؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعدّ هينا؛ حيث لا عودة إلّا بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أمل آدم بعد أن كانت بين يديه.

ولأنّ العمل ارتقاء يؤدّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه؛ فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، وبين دُونية بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب. ولذلك، كان الصّدق ارتقاء في مواجهة الكذب انحدارا، وكان العدل ارتقاء في مواجهة الظلم انحدارا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيّة في مواجهة الاستعباد، والديمقراطية في مواجهة الدكتاتورية، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب التحدّي بما يمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنّ بني آدم بين ارتقاء ودونية؛ فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وبين ما يؤدّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشأن.

ولذلك؛ فالعمل الصّالح ارتقاء لا يكون إلّا عملا منتجا ومتقنا ومبدعا ومرسّخا لقيمة الإنسان، وفي المقابل العمل الفاسد والرّغبة

[314] التين 6.

الفاسدة، لا يكونان إلّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين، ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة، ومن ثمّ؛ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسؤولية ارتقاء، ستظل قيما في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُفلية والدّونية التي تتمركز على الأنا.

إذن؛ فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلّا عدلا وعملا وعفوا وصفحا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلّا ظلما وإهمالا وتشدّدا وتطرّفا، ولذا، في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فمن شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانية، ولكن ظل الارتقاء إلى تلك القمّة من قبل بني آدم أملا وعملا؛ فمن يعمل صالحا يقترب منها، ومن يعمل باطلا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بداية، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانية يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاء.

ولذا؛ فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثقافة الواحدة هم مختلفون قدرات ومواهب واستعدادات وميول واتجاهات، ولهذا؛ فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خلقوا عليه خلقا، ولكن بينهم تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد

وسياسة، وآداب، ومع ذلك؛ فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنّه الاختلاف؛ فهو المحفّز على البقاء تنوّعا، وهو المحفّز على التغيير المُمكّن من التّعاون والنّهوض ارتقاء؛ فبنو آدم ارتقاء يعلمون أنّهم لم يجدوا انفسهم خلقا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم؛ فهم يعلمون أنّهم قبل الخَلق لم يكونوا شيئا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئا مذكورا؛ فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقا، ولهذا؛ فهم يدركون أنّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شئيا؛ فكانوا شيئا وفي أحسن تقويم، {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}[315].

فبنو آدم لكونهم شيئا مذكورا يدركون مشيئة شاءت لهم أن يكونوا خَلقا وفقا لمشيئة هم لا يعلمونها، ذلك لأنّ المُشيء وحده يعلم مشيئة خَلقه، أمّا المخلوف ارتقاء؛ فلا يدرك إلّا وجوده مخلوقا. ومع ذلك؛ فهناك من يرى الوجود الكوني مخلوقا من غير خالق، وهنا تكمن العلّة المعرفية بين من يدرك أنّه لا مشيئة لمخلوق في خَلقه، وبين من لا يدرك ذلك بقوله: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ولأنّ بني آدم بين الارتقاء والدّونية؛ فهم مختلفون رؤية ومعرفة وعلما، ولهذا؛ فهم بين معرفة وعلم يؤدّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وبين جهل يؤدّي بهم إلى الانحدار ودونية.

---

[315] مريم 67.

ولذلك؛ فالإنسان عندما ينهض يرتقي إلى ما يؤدّي به إلى رتق الأرض بالسّماء، وعندما ينحدر يهوي سُفلية في القاع، أي: عندما يرتقي يجد نفسه وكأنّه يحتوي الإنسانية في نفسه، ولكن عندما ينحدر يصبح عقله أشبه بعقل الحيوان، {فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[316].

أي: عندما ينحدر الإنسان ممّا هو عليه من عقل مدبّر، لا شكّ أنّه يقترب إلى عقل القرد الذي هو في دونية إذا ما قورن بعقل من خلقه الله في أحسن تقويم؛ فمثل أولئك المنحدرون قيما هم مثل الحيوان الذي لا يتذكّر فيتّعظ، ولا يتدبّر فيخطط، ولا يفكّر فيرتقي إلى ما يجب أن يكون عليه رفعة، ولهذا؛ فلا يليق بالعقل الإنساني أن يتشبه سلوكه بالعقل القردي، الذي متى ما انحدر إليه الإنسان أصبح لا فرق بينه وبين من هو في دونيّة، {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[317].

---

[316] الأعراف 166.

[317] المائدة 60.

مراحل

الارتقاء الإنساني

مرحلة الفطرة:

الإنسان كغيره من المخلوقات خُلق على الفطرة مسيّرا بالرّغم من تميّزه وتفضيله، وفطرة الإنسان هي الولادة التي خُلق عليها، ولا تقليد يسبقه (كونه في زمن الخلق حيث لا وجود لمن يقلّد من).

ولأنّ الفطرة خَلقيّة؛ فلا تبديل، أمّا التقليد؛ فهو اتّباع، (اتّباع لاحق لسابق) وهو: المرتكز لأخذ الاقتداء بما يفيد بلا ضرر، أو أخذه بما يُفيد بضررٍ؛ فالأخذ بالقول الحسن والسّلوك الحسن يخلق القدوة الحسنة، والأخذ بالقول أو السّلوك السّيء يخلق القدوة السّيئة، ولذلك؛ فالفطرة لا سيّئة فيها، أمّا التقليد ففيه من المساوي ما فيه، وهنا، تكمن العلّة التي تستوجب حذرا، وإلّا يصبح التقليد علّة.

والفطرة كونها خُلقيّة؛ فهي سابقة على الدّين الذي ينظّم العلاقات بين الأفراد والأمم والشّعوب، وهو كما ينظّم العلاقات، يضبط القول والفعل والسّلوك والعمل. أمّا الفطرة؛ فلا تغيير، كلّ شيء وفق طبيعة خَلقه منظّم (سلوكه منظم) دون أيّ تطوّر، ودون أيّ ارتقاء؛ فسلوك النّحل وبيوت النّحل هي كما هي سلوك وبيوت، وهكذا سلوك الحيوانات والطّيور والأسماك لا تتغيّر عمّا هو فطرة، وذلك لأسباب تطابق التقليد مع الفطرة التي خُلقت عليها، أمّا الكائن العاقل؛ فلا يتطابق تقليده مع فطرته حتى وإن تماثل في كثيره.

فالفطرة تدلّ على تطابق طبائع وسلوك المخلوق مع الطّبيعة التي خُلق عليها، ممّا يجعل الكائنات غير مخالفة لطبيعة خلقها؛ فلا الطّائر لا يطير، ولا الأفاعي لا تزحف، ولا الإنسان لا يمشي سويّا. ولأنَّ التطابق بين الفطرة والخَلق هو لا تخيير فيه؛ فلا أحد يستطيع أن يغيّر الفطرة التي خُلقت المخلوقات عليها؛ فالجبال ستظل أوتادا في الأرض، والسّحب ستظل معلّقة بين السّماء والأرض حتى تتساقط مطرا، وهكذا الأنهار ستظل تجري إلى النّهاية، ولكن في دائرة الممكن ارتقاء تُغيّر مجريات الأودية، وكذلك تُزرع السّحب؛ فتتساقط مطرا، وتُخرق الجبال أنفاقا، ولكنّها لا تُلغى، وكذلك هو حال السّحب والأودية؛ فستظل وفقا للفطرة سُحبا تمطر وأودية تجري وجبالا أوتادا.

فالإنسان خُلق كغيره من المخلوقات على الفطرة، حيث لا تخيير في فطرته، بل التّخيير في معرفته التي تؤثّر على قوله وفعله وعمله وسلوكه (ارتقاء أم انحدارا). ومعظم الكائنات تقلّد ما فُطرت عليه إلّا الإنسان بإمكانه المخالفة؛ فالنّحل فُطِر على علاقات وسلوك وعمل لا يخرج عنه شيئا، ولهذا؛ ففراخ النّحل تقلّد آباءها سلوكا وعملا دون إضافة لما بلغه السّابقون منهم؛ فسلوك ذلك الزّوجين من النّحل خلقا، هو بالتّمام سلوك النّحل المتكاثر تزاوجا، وهكذا هو التقليد كما هو حال النّمل والطّيور والأسماك والحيوانات وغيرها من بقيّة الكائنات تكاثرا، إنّه السّلوك المتطابق مع الفطرة التي خلقت الكائنات عليها، إلّا سلوك الإنسان، ومعارفه، وثقافته، وعلمه؛ فهو قابل للتبدّل والتغيّر والتطوّر والارتقاء أو الدونية.

فالإنسان فُطر تسييرا فيما لا يملك قوّة لتغييره، وفُطر تخييرا على التقليد الذي بإمكانه أن يغيّره، أو يبدّله، أو يطوّره ارتقاء، أو أن ينحدر به سُفليّة، وهو بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يتبدّل علما وثقافة ومعرفة وسلوكا وعملا.

ومع أنَّ حياة الإنسان وفطرته جاءت خَلقا، لكنّه في دائرة الممكن يأخذ من الفطرة ما هو تقليدا؛ ففطرته تختلف عن بقية الكائنات التي جاءت حياتها وفطرتها على التطابق بالتّمام تقليدا؛ فالإنسان لم يأخذ بالفطرة كلّها، بل أخذ منها ما هو ممكن، وكذلك ترك منها ما هو ممكن، وفقا لاختياره وإرادته، ومن ثمّ؛ فلا تطابق بين فطرة الإنسان وتقليده.

فالإنسان يختلف عن الكائنات الأخرى تذكّرا، وتدبّرا، وتفكّرا، ومسؤولية؛ ذلك لأنّ المسؤولية لا تلحق إلّا من هو مخيّر، ممّا يجعل وجوب حُسن الاختيار لمن أريد به أن يكون مسئولا، وإلّا ستكون الأعباء حملا ثقيلا على كاهل من لا يحسن اختياره.

فالاختيار، إن أُحسن تدبّرا أَحدث النُقلة إلى ما هو أكثر ارتقاء، وإن لم يُحسن الاختيار؛ فسيؤدّي بأصحابه إلى السُفليّة والانحدار والدّونية، ممّا يجعل السّلوك الانحرافي في حاجة للتقويم حتى لا تسود المفاسد والمظالم (هيمنة وحرمانا). ولذلك؛ فالتقليد بالنّسبة للإنسان لا يقيّده إلّا انعدام المقدرة والمعرفة والإرادة، ولذا؛ فإن كانت هناك مقدرة عالية، يصبح التقليد عاليا، وإن كانت ضعيفة، يصبح التقليد ضعيفا، وكذلك إن كانت الإرادة حرّة، فتحت كلّ السُّبل أمام الإنسان في دائرة الممكن سلبا أم إيجابا، وفي المقابل إن

كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة؛ فلا يجد التقليد مجالا للامتداد.

ومن هنا؛ فالفطرة ارتقاء خَلق، خُلق الإنسان عليه تسييرا وتخييرا، فما هو تسيير؛ فلا إمكانية للخروج عنه، وما هو تخيير؛ فعليه أن يتذكّر حتى يدرك المواعظ والعبر، وعليه أن يتدبّر ما يمكّنه من إشباع حاجاته المتطوّرة دون أن يتمدّد إشباعا على حساب مشبعات حاجات الغير، ثمّ عليه أن يفكّر فيما يحدث له النُقلة، ويمكّنه من الارتقاء المأمول.

والاختلاف بين الفطرة والتقليد، هو: أنَّ الفطرة لا تكون ما لم يكن الخَلق، أمّا التقليد فهو المرتبط بالسّلوك، ولذا؛ فالفطرة ليست هي الخلق، بل هي نشوء فيه، وهي الحالة التي تجعل المخلوق العاقل بين تسيير وتخيير؛ فما هو مسيّر لا إرادة فيه، وما هو مخيّر فالإرادة مركزه في ذهن العاقل، الذي بإمكانه أن يرتقي إن أحسن اختياره وتدبّره، ولكن إن لم يحسن اختياره وتدبّره؛ فلا سبيل له إلّا الانحدار الذي من بعده يكون النّدم والألم، وهما: إن ألمّا بالإنسان جعلاه في حاجة لمنقذ.

ومع أنّ التقليد على علاقة بالفطرة، ولكن هناك فرق بين تقليد الإنسان، وبين تقاليد الكائنات الأخرى، ذلك لأنَّ تقليد الإنسان هو بين تسيير وتخيير، أمّا تقليد الكائنات الأخرى؛ فهو التقليد المسيّر حيث لا مجال فيه للتخيير، كما هو حال النّمل والنّحل وبقيّة الكائنات الأخرى في تنظيم علائقها (تقليد فطرة) لا تقليد تذكّر وتدبّر وتفكّر كما هو حال الإنسان؛ ولهذا؛ فتقليد الكائنات، تقليد

مراوحة في المكان الواحد، أمّا تقليد الإنسان؛ فهو تقليد البحث عمّا يُمكّن من إحداث النُقلة إلى ما هو مأمول ارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالفطرة تثبّت الطّبيعة التي خُلقت المخلوقات عليها هي كما هي، أمّا التقليد فيُثبّت سلوك العادة سواء أكانت عادة متطابقة مع الفطرة، أم أنّها مختلفة عنها. أي: أنَّ سلوك الكائنات يتأثر سلبا وإيجابا بما ينسجم مع نواميس الطبيعة الخَلقيّة وما لا ينسجم معها؛ فالتقليد الفطري، تقليد طبيعي يجسّد الحقيقة الخلقيّة، أمّا التقليد الخارج عن الفطرة؛ فهو المخالف لنواميس الطبيعة، التي تؤثّر على غرائز المخلوق وحاجاته الضّروريّة؛ فعلى سبيل المثال: الإنسان عندما يعطش سيتوجّه إلى مصادر المياه ليروي ظمأه رغبة وإرادة وضرورة مُلّحة، وهذا هو الأمر الطبيعي الذي يتوافق مع الفطرة، ولكن إن مُنع من ذلك؛ فليس له إلّا قبول دفع الثّمن حتى النّهاية استجابة أو اقتتالا، وهكذا إن جاع؛ فليس له إلّا التوجّه إلى مصادر إشباع الحاجة (حياة أو موتا)، ولذلك؛ فعندما تتطابق الفطرة مع التقليد تصبح الغرائز أكثر ضغطا على أصحابها، ولا إمكانية للتخلّص منها إلّا إشباعا أو القبول بدفع الثّمن.

ومن ثمّ؛ فالتوجّه للبحث عن مصادر بقاء الحياة تقليدا يتوافق مع الفطرة، أمّا المقاتلة من أجل الحياة تقليدا؛ فلا يتوافق معها، ولهذا؛ فالكائن العاقل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع يتذكّر ويتدبّر ويفكّر بما يتطابق مع فطرته دون أن يقصر ذلك عليها؛ ممّا يدعوه أحيانا إلى ما هو ممكن تقليدا، أمّا بقيّة الكائنات فلا تُدبِّرَ أمرها إلّا تقليدا متماثلا مع الفطرة، ولذلك؛ فهي كمن يراوح في مكانه بلا

أمل، حيث لا مستقبل تدركه سوى الفطرة التي خُلقت عليها بلا تخيير.

فالفطرة ليست بسلوك، بل هي طبيعة المخلوق التي خُلق عليها، والتي لا يمكن أن يخالفها في بعض الأحيان إلّا تخييرا، ولهذا؛ فالكائنات التي خُلقت على التسيير لا إمكانية لها أن تتجاوز ما فطرت عليه خَلقا؛ فهي كائنات تدرك وتسلك تقليدا، أمّا الكائن العاقل، يدرك تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ثمّ يخطط ويعمل ويسلك، أي: أنّ الكائنات يمكن أن تُعلّم، أمّا الإنسان في دائرة الممكن يتعلّم. ومن هنا؛ فالفرق كبير بين التعلّم والتعليم؛ فالتّعلّم تهذيب سلوك أو تغييره، أمّا التعليم؛ فإنتاج معرفة وتطويرها، حيث إمكانية تحديد الأهداف التي من ورائها أغراض، والغايات التي من ورائها نهضة وارتقاء.

فلو عُدنا لخلق الإنسان الأوّل (آدم)؛ فلا نجد له تقليدا، ذلك لأنَّ التقليد لا يكون إلّا لسابقٍ، ولأنّه لا سابق لآدم من جنسه حتى يقلّد ما سبقه عليه من سلوك أو عادة؛ فهو الأوّل الذي من بعده أصبح التقليد الآدمي يعلّم؛ فآدم لم يعرف النّدم إلّا بعد أن وقع فيه عندما ارتكب فعل الخطأ الذي بوقوعه فيه معصية، عرف شيئين في وقت واحد: (النّدم والألم النفسي) النّدم على فعل المعصيّة، والألم النفسي من الدّونية التي وقع فيها بعد أن كان في علّية وارتقاء.

فآدم بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفا للفطرة الخلقيّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: أنّ المنهي عنه، لا يكون إلّا لضررٍ، سواء أكان

نفسيا، أم صحيّا، أم خُلقيّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألم، وظل على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه؛ ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوط من الجنّة ارتقاء، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولذلك؛ فبأفعال المخالفة والمعصية يتمّ استشعار الذّنب؛ فيلد النّدم والألم في نفس من يأمل الارتقاء عمّا وقع فيه من معصيّة، ومن ثمّ، ليس للإنسان إلّا أن يلتفت إلى نفسه استغفارا وتوبة تخرجه من التأزّم إلى الانفراج، وتعيده إلى حيث ما يجب أن يكون عليه ارتقاء؛ فآدم بعد الهبوط على الأرض الدّنيا لم يظلّ له أمل سوى أمل الارتقاء إلى تلك الجنّة التي خسرها بعلل الشّهوة والرّغبة والإرادة غير المقيّدة من غيره من الخلق، حيث لا وجود لبشرٍ سوى الخلق الزوجي (آدم وزوجه)، ولهذا؛ فلا امتداد على حساب الغير، ولكن جاء الامتداد أو حدث على حساب الفطرة ونواميس الطبيعة، عندما امتدّت رغبة آدم وزوجه إلى الأكل من تلك الشّجرة التي نهي الله عن الأكل منها.

إذا، أساس الحياة هي الفطرة التي خُلقت عليها الأزواج كلّها، أمّا التقليد؛ فكان نتاج الكثرة تزاوجا؛ ممّا جعل الأبناء بين أيدي الآباء يحيون تقليدا؛ فالدّجاجة التي لم تُرضع، جعلت أبناءها تقليدا يلتقطون الطّعام بمناقيرهم مثلما تفعل هي، وهكذا بقية الكائنات لكلٍّ فطرته التي فُطر عليها بخاصيّة تميّزه عن غيره من الكائنات الأخرى، التي فطرت على ما فطرت عليه تقليدا. {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[318]. أي: لا تبديل للفطرة، ولكن التبديل يتعلّق بما يُمكن أن يُقلّد، ولهذا؛ سيظل الإنسان هو الإنسان كما خلقه الله على الفطرة التي لا تتبدّل، ولكن خيارات الإنسان بين يديه تتبدّل، وفقا للرّغبة والشّهوة والإرادة التي لا تكون إلّا بأسباب التخيير.

فآدم بعد أن أنبأه الله وعلّمه ما لم يكن يعلم، أنبأ الملائكة والجنّ والإنس بما أنبأه الله؛ فسجد الملائكة لآدم طاعة لأمر الله، ومن هنا، كان التقليد طاعة للأمر الحقّ تسليما. وفي المقابل فطرة وتقليدا وارتقاء لا يُسلّم للباطل ولا المظالم حتى وإن وقعت أو حدثت كرها.

ولهذا، الفطرة خَلقية تستوجب التسليم، أمّا التقليد الواعي؛ فلا يكون إلّا عن معرفة نابعة من الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وهذه تستوجب الاتباع سلوكا، وهنا؛ تتضح العلاقة بين الفطرة والخَلق، كما تتّضح العلاقة بين التقليد والقيم الخُلقيّة. أي: إنّ الفطرة تتعلّق بالخَلق، أمّا التقليد فيتعلّق بالخُلق التي تستمدّ من الفضائل والقيم المتطابقة مع نواميس الفطرة الخَلقيّة.

وعليه: فقأنَّ الحياة البشريّة مؤسّسة على ثلاث دعائم:

- الخَلق (الفطرة).
- النّشوء (التّقليد).
- الارتقاء (المُمكِن)

[318] الرّوم 30.

وهذه هي الفطرة التي فَطر النّاس عليها، فإن تطابق السَلوك البشري معها تقليدا، كان سلوكا مرضيا حيث لا تأزّم، وإن خالفها تقليدا، كان الألم والتأزم.

ولذا؛ فالألم والدّونية والتأزّم كما تكون بعلل المخالفة للفطرة؛ فكذلك تكون بعلل التقليد دونية، أمّا التقليد ارتقاء؛ فلا يكون إلّا مخلّصا من الألم والدّونية والتأزّم، ولا يقف عند هذا الحدّ، بل يتعدّاه إلى ما يُمكّن من تحقيق النُقلة المرجوة ارتقاء.

وبالعودة إلى فطرة آدم الخَلقيّة (في أحسن تقويم)، نلاحظ أنّه قد خُلق وهيّء إلى ما يمكّن من التقليد ارتقاء؛ فعلّمه الله ما لم يكن يعلم (النبأ العظيم)؛ فتعلّمه، ثمّ أنبأ به غيره، ولكن هناك من آمن وهناك من كفر؛ فالملائكة سجدوا لآدم طاعة لأمر الله، وفي المقابل إبليس كفر؛ فعصى الأمر، وهنا كمُنت العلّة.

ومع إنَّ إبليس مصدر الإغواء والتزيين المزوّر للحقائق، ولكن هناك من الأعمال البشريّة ما لا علاقة لإبليس بها؛ فالإنسان الذي خُلق على الفطرة، خُلق على التقليد أيضا، ولكن أيّة تقليد؟ إنّه التقليد تخييرا؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[319]، أي: لا إكراه، {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[320]. هذه هي الفطرة، فمن شاء تقليدا أن يؤمن؛ فليؤمن بما يتطابق مع الفطرة الخَلقيّة، ومن شاء أن يخالف الفطرة تقليدا؛ فبإمكانه أن يكفر، ولكن لكلّ حسابه؛

[319] الكهف 29.
[320] البقرة 256.

{فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}[321].

ولذلك؛ فالأخذ بما يتوافق مع الفطرة يمكّن من التوافق النّفسي، كما يمكّن من التوافق البيئي، أي: عندما تتوافق الطبيعة الفطرية مع التقليد ارتقاء، تصبح البيئة بلا تلوّث، وتصبح العلاقات الإنسانية بلا انحرافات أخلاقية، ولا مظالم، بل التوازن هو شعرة اعتدال كفّتي الفطرة والتقليد.

فآدم الذي خُلق على الفطرة، خُلق معتدلا في أحسن تقويم، ولكن عندما حاد آدم عن الفطرة، وجد نفسه منحدرا بأسباب مخالفته قواعد البقاء الدّائم ارتقاء، الذي من بعده أصبح الهبوط أمر واقعا حيث لا مكان للتخيير؛ فالتخيير فرصة تمنح، من أجل حُسن الاختيار عن إرادة، ولكن من يعمل على إضاعة الفرص ارتقاء؛ فالفرص ارتقاء قد لا تتكرر، وفي المقابل فرص الانحدار تتعدّد وتتنوّع وتتضاعف بكتيريا.

ومع ذلك، عندما تُمنح فرص التخيير ارتقاء، تمكّن من التعلّم تقليدا، كما تمكّن من التّعليم بحثا ومعرفة، برهانا من بعده برهان، وحُجّة من بعدها حُجّة، ومعلومة تولّد معلومات، وتجربة تولّد تجارب، وخبرة تفسح السّبيل أمام خبرات، ولا غاية من وراء ذلك ارتقاء إلّا رتق السّماوات والأرض جنّة.

إنَّ الفطرة سُنّة الخَلق التي خُلق الكون عليها معتدلا بمعطيات التضادّ سلبا وإيجابا، أي: لو لم يكن التضاد الكوني لكانت المغالبة

[321] الأعراف 8 ، 9.

التي تنهي الوجود عدما؛ فالاختلاف من سننّ الخَلق الباقية ولا تبديل، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[322].

ولأنّ الاختلاف فطرة خَلقيّة؛ فلا مفرّ منه، بل ينبغي المفرّ إليه مع الآخر وطي صفحات الخلاف معه، وفي المقابل تترك صفحات الاختلاف مفتوحة فطرة وصبغة، ولذلك سيظل الإنسان هو المتصدّر للاختلاف تخييرا (رغبة وإرادة)، ولا تبديل لفطرة الاختلاف، ومن هنا، نجد الأصوات تُرفع على الأصوات تقليدا وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت، ولأنّه كذلك؛ فلا داعي لرفعه، فاترك الحقّ يعلو تقليدا وارتقاء على كلّ شيء بما فيه صوتك، وإن كان خصمك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته؛ فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

الفطرة لا تكون إلّا على الاختلاف، الذي به تُميّز طبيعة الأجناس والأنواع، وبه تترسّخ الخصوصيات، وتشبع الحاجات المتطوّرة بلا ملل؛ فالفطرة هي الطّابع المرسّخ لهويّة الخلائق بشكل عام، ولا خصوصية فيها كما هو حال الصّبغة التي تتعلّق بالصّفة المميّزة للأجناس والأنواع؛ فالفطرة تتعلّق بالعموم، أمّا الصّبغة؛ فتتعلّق بالخصوص، ولذلك؛ فما يخصّ الإنسان يُصطبغ به، وهو يختلف عمّا يخصّ بقيّة الكائنات تنوّعا، أي: ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ليس هو ما ينبغي يكون عليه الحيوان أو الطّير أو السّمك،

[322] هود 118 ، 119.

وكذلك ما ينبغي أن يكون عليه الرّجل ليس هو ما ينبغي أن تكون عليه المرأة، ولهذا؛ فلا تبديل لخلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}[323].

فالفطرة ثوابت تُسيّر المخلوقات وفقا لنواميسها الطبيعيّة التي لا تتبدّل، {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[324]. وفي هذا الأمر لا إمكانية للتخيير، وهنا، تتساوى جميع المخلوقات بما فيها الإنسان، الذي تميّز بخاصيّة التخيير فيما لم يكن مسيّرا فيه.

ولأن الفطرة خَلق؛ فالدّين يتطابق مع نواميسها الطبيعية تماما؛ فهو أحكام وقوانين منظّمة للعلاقات وضابطة لها، وهو كما يمكّن من معرفة المستحيل والمعجز، يمكّن من إحداث النُقلة وبلوغ المأمول ارتقاء. ولذلك، أنزلت الرّسالات السّماوية لتجيب على المجهول، وتمكّن من معرفته تسليما وإعجازا، أو إدراكه مشاهدة وملاحظة؛ فمن يأخذ بأحكام الدّين وقوانينه وفضائله يجد نفسه منسجما مع فطرة خلقه في أحسن تقويم بلا مخاوف ولا شكوك، ومن لم يأخذ بها، يجد نفسه وكأنّه في مواجهة مع الجاذبية، أو وكأنّ وجوده على الأرض من خارج هذا الكون.

مرحلة التقليد:

التقليد ارتقاء لا يؤدّي إلّا لموجب، وفي المقابل التقليد انحدار لا يؤدّي إلّا لسالبٍ، ومن هنا، يتولّد الحوار بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار؛ فالذي يؤدّي إلى الارتقاء لا غاية من

---

[323] الروم 30.
[324] النمل 88.

ورائه إلّا اتباع الحقّ، والاقتداء به، وبمن يتّخذه سلوكا وعملا مفعولا، أي: أنّه الاقتداء الذي لا يخضع للبيع والشراء، ذلك لأنَّ ما يباع ويشترى يُدخِل أصحابه في خانة التبعيّة والانقياد وفقا للثّمن المباع به أو الثّمن المشترى به؛ فالتقليد ارتقاء يستوجب اتباع الحقّ الذي لا يضع مُتّبعيه في خانة الدّونية، {اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[325]، بمعنى: اتبعوا من جاء من أجلكم دون أن يسألكم مقابل، أي: اتبعوا من يراكم قيمة في ذاتكم لا من لا يراكم إلّا بما تقدّموه بيعا أو شراء.

أمّا الذي يؤدّي إلى الانحدار؛ فهو الضّعف الذي له من القيم السّلبية ما له، كالشّهوة، والشّخصانية، والطّمع، والاتّكالية والنّفاق والجبن والخيانة.

ولهذا؛ فالتقليد ارتقاء لا يكون إلّا بتوفّر الحُجّة المحقّة للحقّ والمدحضة للباطل،، أمّا التقليد المورّث بغير حُجة الحقّ؛ فلا يزيد أصحابه إلّا ضلالا، {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ}[326] ومع ذلك؛ فالذين لا حجّة لهم، هم الذين يجب حوارهم وجدالهم حتى يتحرّروا من قيود التقليد الحائل بينهم وبين الارتقاء، ولذلك؛ فاتباع العقل اتباع قدوة وحُجّة، وليس اتباع موروث وأشخاص؛ فالموروث الذي لا يُمكّن من أخذ المواعظ والعبر من التّاريخ، هو مورث مُفلس حيث لا قيمة، وهذا الأمر يجعل البعض كمن يلكّ العلكة ثم يخرجها من فمه ليتركها لمن بعده لعلّه يلكّها، وهذا ما يؤدّي إليه التقليد المفسد للقيم التي تمكّن الإنسان من

[325] يس 21.
[326] الزخرف 22.

الارتقاء، وإن لم يدرك هؤلاء البعض من النّاس مخاطر ومفاسد التقليد عن غير دراية، سيجدون أنفسهم يعيشون عصرا قد تجاوزته العصور، {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[327].

فالتقليد الذي ينبغي الأخذ به، هو الممكّن من تجاوز ما يؤلم، أو ما ينذر بألم، وهنا، وجب التمييز بين ما يمكن أن يكون تقليدا نافعا، وبين ما هو أهواء بمبررات مجهولة، {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[328]؛ فينبغي أن يكون التقليد والاتباع للفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، والنّاس القدوة، كما كان إبراهيم الذي وُصِفت قدوته بالأمّة، {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}[329]، أي؛ فمن أراد أن يكون قدوة حسنة؛ فعليه أن يستوعب القيم الحميدة للأمّة كلّها، ثم يجسّدها في سلوكه كما جسّدها إبراهيم عليه السلام، لتكون من بعده بين أيدي الأنا والآخر (النّاس) رحمة تجمع الشّمل على الكلمة السّواء.

فالاقتداء أساسه الحُجّة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وليس تقليدا للأفراد في ذواتهم، ذلك لأنَّ الفضائل والقيم تبقى، أمّا النّاس فزائلون، {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[330]. أي: اتبعوا ما يبقيكم على المكانة والرّفيعة، ولا تتبعوا الزائلين، وإن أردتم أن تكونوا قدوة حسنة وخلائف في الأرض؛ فخذوا ما أمر الله به ارتقاء؛ لتجعلوه تقليدا لمن خَلفَكم،

---

[327] الأعراف 142.
[328] الجاثية 18.
[329] النحل 120.
[330] الأعراف 3.

وهو التقليد الذي يمكّن مَّن خلفكم مِن تنظيم حياتهم على المحبّة والوفاق، ويمكّنهم من العمل المنتج بلا مظالم.

ومع أنّ الاقتداء بالفضائل لا يكون إلّا في مرضات الله، ولكن حتى وإن أخذ الإنسان بكلّ ما قاله الله؛ فلا يمكن له يكون الله، بل يكون قدوة حسنة في مرضاة الله، وهو الذي خُلق الإنسان من أجله، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الخالق قد خَلق العباد لمعصيته؟

وكذلك، وإن أخذ الإنسان بكلّ ما جاءت به الرّسُل؛ فلا إمكانية لأن يصبح أحد رسولا، ولكن تقليد بإمكانه أن يكون قدوة حسنة. {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}[331].

ولهذا؛ فالتقليد الحسن يجعل من المُقلِّد قدوة حسنة، وفي المقابل التقليد السّيء، لا يجعل من صاحبه إلّا سيئا. ومهما بلغ التابعون من التقليد؛ فلن يكونوا مبدعين إن اقتصر تفكيرهم على التقليد فقط، ولذا؛ فالقدوة الحسنة يمكن أن يكون من الذين قضوا نحبهم كما هو حال الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[332]، وكما هو حال رجالات التاريخ مثل الشيخ عمر المختار، والشيخ عبد القادر الجزائري وغيرهم كثير؛ فهؤلاء ومن كان مثلهم مع أنّهم ليسوا من الذين على قيد الحياة، ولكنّهم خير قدوة، ولكلّ رسالته التي بقيت حُجّة بين أيدي المقتدين به. أمّا القدوة على قيد الحياة فإلى جانب كونه قدوة فضائل وقيم، ولكن ينبغي أن يضيف إلى ما جعله قدوة، ما يجعله قدوة أكثر

---

[331] الأحزاب 21.

[332] الممتحنة 4.

ارتقاء، وهكذا يصبح الاقتداء من حسنٍ إلى ما هو أحسن من أجل بلوغ القمّة قيما وفضائلا.

ومع أنّ التقليد لا يكون إلّا لسابق، ولكن دائم من أجل الارتقاء التقليد الحسن يتجدّد، والتقليد ارتقاء دائما للأحسن حتى وإن جاء ممّن هو أقل مكانة، كما هو حال ابن آدم الذي كان الغراب أكثر منه معرفة بما يُمكن أن يُقلّد؛ فابن آدم الذي قَتل أخاه ولم يكن يعرف كيف يواري سوءته، وقف عاجزا في حيرة من أمره إلى أن بعث الله غرابا ليريه كيف يواري سوءة أخيه، {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[333].

إذا، التقليد ارتقاء لا يكون إلّا بالمعرفة المرشدة لما هو أفضل، وممّن تكون؛ فالأشخاص لو لم تكن لديهم المعرفة الكافية والواعية؛ فلا إمكانية لأخذهم قدوة، وعندما يفتقر الإنسان إلى المعرفة الحسنة؛ فلا إمكانية لأن يكون قدوة، ومن هنا؛ فمن تكون له المعرفة ارتقاء يكون قدوة حسنة ما تجسّدت المعرفة الواعية في سلوكه، ومن يفتقدها؛ فلا اقتداء به.

ولأنّه التقليد؛ فهو اللاحق على السّابق، وهو ليس بالضّرورة أن يكون مُبدعا في الوقت الآن، ولهذا؛ فالشيء المُبدع لا يكون تقليدا إلّا بعد أن يؤخذ به عملا وسلوكا، ومع ذلك؛ فالتوقّف عند التقليد لا يمكّن من الارتقاء المأمول، ولهذا، وجب العمل بغاية تطوير

[333] المائدة 31.

المعارف والوسائل والأساليب والمناهج حتى تتّسع دائرة القدوة والمُقتَدى به.

إذا؛ فالتقليد لا يمكن أن يوصف بهذا الصّفة إلا إذا لاحق فعلا سابقا، ومن هنا؛ فهو لا يعدّ إبداعا، بل هو ملاحقة لما يجب أن يلاحق من أجل ملاحقة ما يجب أن يكون ملاحقا. أي: يجب ملاحقة الماضي وأخذ المواعظ والعبر منه، ثمّ الانطلاق من المواعظ والعبر إلى تحقيق ما هو مأمول ارتقاء.

والتقليد يُمكِن أن يكون متطابقا مع الفطرة، ويمكن أن يخالفها؛ وفي كلا الحالتين التقليد يؤسّس للمعرفة، ولكن أيّة معرفة؟ فإن كانت المعرفة مؤدّية إلى ما يمكّن من حُسن التدبّر، كانت معرفة محفّزة على تحقيق الأجود والأكثر فائدة والأنفع، ولكن إن كانت على عكس ذلك؛ فلن تكون مؤدّية إلّا لما يؤلم.

وعليه:

فالتقليد لا صفة له في مفهومه إلّا إذا صُنِّف ووصِّف، وإن لم يُصنّف ويوصّف، يظل مفهوما ساكنا، وكأنّه لا علاقة له بالحركة المحفّزة على الفعل والسّلوك والعمل؛ فهو في دائرة المُمكِن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع بالنّسبة للموجب موجبا، والمتوقّع بالنّسبة للسّالب سالب، أمّا غير المتوقّع؛ فهو المفاجئ لكلٍّ من الموجبِ والسالبِ، ومن هنا، نجد الشّخصيّة الأنانية قدوة لمن يكون أنانيا، والشّخصية الموضوعيّة تكون قدوة لمن شاء أن يكون موضوعيّا، وهكذا ستكون المقاييس مختلفة بالنّسبة للشّخصية الذّاتية والإنسحابيّة والتطلّعيّة، وفي كلّ الأحوال التقليد يمكن أن يتغيّر

بالتّعلّم والتّعليم والتّربية، ولذلك؛ فالمنطق ارتقاء يقرّ أنّ: (أنا) و(أنت)، طرفان مختلفان؛ فأنا لم أكن أنت، ولن، وأنت كذلك لم ولن تكون أنا؛ فأنت بالنّسبة لي تعدّ الآخر، وهكذا (أنا) بالنّسبة لـ(أنتَ).

فالمنطق تقليدا وارتقاء وحده الذي يؤسّس لحوار تعتدل فيه كفّتي الميزان، حيث لا مغالبة ولا إقصاء بغير حقّ، ولذلك؛ فمِن مستهدفات منطق التقليد ارتقاء، أن تسود بين المتحاورين القيم الاستيعابية (نحن)، بدلاً من منطق (أنا أو أنت)؛ فمنطق (نحن) منطق استيعابي لا يستثني أحدا من المتحاورين المختلفين، أمّا منطق (أنا) أو (أنت)؛ فهو منطق إقصائي يفرّق بلا حُجّة، ولذلك يا ليته لم يكن تقليدا.

ومن ثمّ، لا يُمكِن لنا أن نُحدّد ما يُمكّن من التقليد ارتقاء ما لم نعرف معايير المُقلّد؛ فأهل الأوطان والأديان عندما يقرّرون ارتقاء الأخذ بالتقليد المُمكِّن من الالتقاء على الكلمة السّواء؛ فلابدّ لهم من الجلوس على طاولة حوار واحدة، حتى يتبيّنوا المعايير الممكّنة من الأخذ بالكلمة السواء، وهي الكلمة التي تجمعهم وتجعلهم على الحقّ بلا مخاوف، (نحن سويّا ، نحن معا).

ولكن إذا لم يحتويهم مفهوم (نحن معا)، سيظلون على ما هم عليه بين الضميرين (نحن) أم (أنتم) ممّا يجعل التقليد بين الأفراد مؤسّس على المفهوم: (أنا) أو (أنت).

ولهذا؛ فالتقليد (أنا) يختلف عن التقليد (أنت)، ومع ذلك، نحن سويّا نمتلك المقدرة الحسّية التي تجعل بيننا مبدأ التقبّل تقليدا هو السّائد،

والعقل تقليدا وارتقاء هو مصدر الحوار، والمنطق تقليد وارتقاء هو الوسيلة المثلى التي نحتكم بها حجّة ومن ورائها حُجج.

ولأنّنا نمتلك ثروة هائلة من قواعد المنطق تقليدا، ونمتلك ثروات هائلة من المشاعر والأحاسيس والطموحات والآمال، فَلِمَ لا نترك تقليدا يُسخّر كلّ ذلك من أجلنا جميعا؟

ولماذا الفُرقة التي تترتّب عليها العداءات التي تحول بين التقائنا (أنا وأنت)؟ ولِمَ لا نكتب معا (نحن بنو الوطن الواحد،) نحن الذين تربطنا علاقات فسيحة مع بني آدم (الإنسانية) ونقرّ أنّ لكلّ خصوصيّة.

وعليه:

فكلمتا (أنا أو أنت) تقليدا، تسمح بمسافة فراغ تجذب مشاعر الحذر وأخذ الحيطة إليهما؛ فكلّما زاد تمسّك وتعصّب الأنا بأناته، اندفع (الأنت) لإعادة حساباته تقليدا، وهذه تزيد الشكوك وتقلل من الثّقة التي ينبغي أن تغرس وتسود بين الطّرفين (أنا وأنت)؛ فأنا الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحرّية ينبغي أن أعمّ النّاس، وأنا الشفافية ينبغي أن أكون السّلوك والفعل، وأنا الوطن ينبغي أن أكون ملكاً خالصاً لأهلي، وأنا المحبّة والأبوّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يحرم أحد من مشاعري وانتمائي.

فأنا المنطق تقليد وارتقاء: ينبغي أن أسود بينكم إذا أردتم التفاهم والتواصل، أو أردتم الاعتراف والتقدير والاحترام، وكذلك متى ما أردتم غرس الثّقة بينكم أخوة متحابّين، وهكذا أنا النّاس كلّ النّاس تقليد وارتقاء.

ومن ثمّ، فكلمة (أنا) تقليدا هي كلمة حقّ لابدّ أن تقال. وفي المقابل تصبح كلمة الباطل التي عليها (أنت) باطل لابدّ أن يزال، وكلمة (أنت العبد) ينبغي أن تصبح في خبر كان بأسباب الحرّية والانعتاق، وعندما تكون (أنت) الاستعمار يجب أن تُهزم وترحل أو ترحّل، وأنت القيد يجب أن تُفك أو تُكسّر، ولذلك؛ فأنت لم تكن أنا؛ ويا ليتك تفهم أنّنا نحن سوياً بنو وطن واحد؛ فَلِمَ الفراق؟ ونحن بنو آدم؛ فلِمَ لا نأخذ بأيدي بعضنا تقليدا وارتقاء؟

وعليه:

فإن لم يحدث اللقاء والتفاهم والتفهّم تقليدا بين (أنا) و(أنت) المختلفتين بمعطيات الخصوصية فطرة وتقليدا؛ فلا تستغرب أن يكون الصّدام هو سيّد الموقف، والانحدار هو السّبيل وإن كان غير مأمولٍ. ولكن إنْ أردنا الحلّ؛ فعلينا بالجلوس حول طاولة (نحن) التي تجمع شتاتنا، وتخلّصنا من ارتكاب المظالم، وتجنّبنا الألم المترتّب على المواجهة والخلاف، ومن ثمّ، يجب التفكير فيما نفكّر فيه قبل أن يحدث الألم.

ومع أنّ التقليد يقود إلى الأخذ بما يتطابق مع الفطرة ارتقاء، ولكنّه في المقابل قد يؤدّي بأصحابه إلى ارتكاب أعمال المعصية التي حدثت ابتداعا من أبينا آدم، والذي من بعده أصبحت المعصيّة وكأنّها من أعمال التقليد.

ومع أنَّ التقليد يثبّت العادة الحسنة، لكنّه في ذات الوقت يثبّت العادة السيّئة، ومن ثمّ؛ توجد علاقة واضحة بين التقليد والتخيير؛ فأينما وجد التخيير وجد التقليد، وأينما وجد التسيير انعدم التقليد، {وَنَفْسٍ

وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}[334]، فهنا يكمن التخيير والتقليد معا، حيث لا فجور ولا تقوى إلّا اختيارا وتقليدا؛ فمن أحسن الاختيار تقليدا كانت نفسه على التقوى، ومن لم يحسن الاختيار تقليد يجد نفسه على الفجور ولا تقوى.

ولسائل أن يسأل:

وما هي العلاقة بين الاختيار والتقليد؟

أقول:

الإرادة، التي لا اختيار إلّا بها، ولا تقليد إلّا بها؛ فهي متى ما كانت واعية بما يراد، كان الاختيار صائبا، ومتى كانت غير واعية بما يُراد؛ فلا تكون إلّا خاطئة، ومن هنا، وجب تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصّائبة.

ومع أنّ التقليد لدى البعض هو القبول بلا حُجّة، لكنّه لدى البعض الآخر هو الأخذ بها، ولهذا، أخذ الخَلف من السّلف كما أخذوا من الرّسُل، غير أنّ الأخذ من الرّسل هو أخذ تسليم بالمعجزات، أمّا الأخذ عن غيرهم؛ فأخذ عِبر ومواعظ، ولهذا فمحاجّة الرُسُل آية ومن ورائها آيات، أمّا محاجّات غيرهم، فهي في دائرة الممكن براهين ومقدمات ونتائج تخضع للقياس.

ومن ثمّ؛ فالتقليد هو عمل العقل ومسؤوليته، حيث لا تقليد إلّا به، سواء أكان عن تدبّر حسن أم سيئ؛ ولأنّه من إعمال العقل؛ فهو من

---

[334] الشمس 7 ، 8.

إبداعاته، ولأنّه من إبداعاته؛ فهو المتجدّد مع كلّ جديد من أجل ما هو أكثر جدّة.

ولأنّ التقليد من عمل العقل؛ فالعقل كما ابتدعه تقليدا؛ فهو قادر على الخروج عنه بما يخالفه تقليدا على التّمام؛ فعلى سبيل المثال: بعد الطّوفان وسفينة نوح المعجزة، كان النّاس أمّة واحدة على الحقّ ولا مُخالف، ثمّ بعد حين من الدّهر، انحرف البعض عمّا كان يسلك تقليدا في مرضات الله؛ فضلّ من ضلّ، وبقي على الهداية من بقي، حتى بعث الله رُسُلا للأقوام الضّالة والأمم الضّالة؛ ليعيدوا النّاس إلى فطرتهم ورشدهم تقليدا من بعده تقليد.

ومع أنَّ التقليد من أعمال العقل؛ ولكن البعض لا يأخذ به إلّا عاطفة؛ ومن هنا، يصبح الميل عنه متأثرا بما هو غريزي، وذلك بعلّة تأمين الحاجات، حيث الأخذ بما يشبع الرّغبة والشّهوة، (ولكلّ قاعدة شواذّ). ومع ذلك؛ فالعقل ارتقاء قادر على تنظيم العاطفة وإرشادها إلى ما يجب، ولكنّ انحدار العاطفة قادر على جرّ العقل إلى ما يشبعها غريزة. وفي المقابل تظل الفطرة ثوابت لا تتأثر ولا تنقاد لغير ما هو طبيعي.

فالفطرة تتأثر بالخَلق وترتبط بالخالق، أمّا الغريزة فتتأثر بالخُلق، وترتبط بالمخلوق، ولذا؛ فالفطرة شاملة لما خُلق، وهي من طبيعة الخلائق، أمّا التقليد؛ فهو المبتدع ممّن خُلق على صِبغة التذكّر والتدبّر والتفكّر، ولهذا؛ فالفطرة لا تتغيّر ولا تتأثر بالعاطفة، وفي المقابل التقليد يتغيّر ويتأثر بالعاطفة. وكذلك الفطرة لا تكون إلّا

على الإيجاب، والتقليد معرّض للسّلب والإيجاب، ومن ثمّ؛ فالفطرة مصدر القوّة، أمّا العاطفة؛ فمصدر الضّعف (والإنسان مخيّر).

إذا، الفطرة هي خلق الشيء في الشيء ذاته، وهي ليست بخلق الشيء من ذات الشيء، كما هو حال النشوء المؤسّس على خلق الشيء من الشيء؛ فالفطرة مثل الهوية التي بها تُعيّر المعادن، حيث لا قيمة للشيء إلّا بما هو عليه من معيارية، ولذا؛ فالفطرة هي الهويّة المميّزة للأجناس والأنواع خلقا.

والتقليد من زاوية الارتقاء، هو ما يُفعل ويترك أثرا موجبا، ويؤخذ به من قبل من استحسنوه قولا أو فعلا أو عملا أو سلوكا، أمّا التقليد من زاوية الانحدار؛ فهو شذوذ عن القاعدة التي ينبغي أن يكون عليها الارتقاء تقليدا. ولذلك؛ فالتقيد من اختيارات المخلوق، والفطرة من مشيئة الخالق، ولكلٍّ أثره.

ومن ثمّ؛ فالأخذ بالقيم والفضائل تقليد يخلق القدوة الحسنة التي تأخذ بالاقتداء والاعتزاز الذي يجعل للإنسان قيمة؛ فالأبناء أوّل من يقتدون به قدوة هم آباؤهم إن كانوا قدوة، ومدرسوهم إن كانوا قدوة، ثمّ ينضجون بحثا عن مكانة تليق بهم وفقا لما يأملونه ارتقاء، ولذلك؛ فالقدوة الحسنة تترك أثرا طيبا لدى الأجيال، في مقابل ما تتركه القدوة السيّئة من أثر غير حميد؛ فمن يقتدي بالقول والسّلوك والفعل والعمل الطيّب يجد نفسه مقتديا بما هو مرغوب فيه قيمة وفضيلة، ومن يقتدي بغير ذلك سيجد نفسه على غير قيم حميدة ولا فضائل خيّرة؛ فالقدوة الحسنة تبقى قدوة حتى وإنْ انتهى أصحابها؛

فالأنبياء كونهم قدوة حسنة هم أحياء (حجّة وعقيدة، وفعل وعمل وسلوك)، وهكذا رجالات التاريخ وصنّاعه قدوة.

وعليه:

فالمربّي يكون قدوة حسنة، متى ما نقل للنشء تجاربه الموجبة، وخبراته النّافعة، وقيم المهنة الرّاقية، وفضائل المجتمع الخيّرة، وفي المقابل قد يكون قدوة سالبة إذا لم يتطابق قوله وسلوكه وفعله وعمله مع أخلاق المهنة وقيم المجتمع وما ترتضيه الإنسانية.

وهكذا المعلّم قدوة حسنة، متى ما نجح في حمْل المعلومة المتجدّدة ارتقاء، وكذلك الأم قدوة حسنة موجبة، متى ما نجحت ارتقاء في غرس مشاعر الأمومة في أبنائها، وفي المقابل تكون قدوة سيئة متى ما انحرفت منهجا وخُلقا وسلوكا. وكذلك الأب يظل قدوة حسنة متى ما غرس عاطفة الأبوة في أبنائه جنبا إلى جنب مع قيم المجتمع المفضّلة، ويكون قدوة سلبية متى ما انحرف عمّا تفضّله الإنسانية من قيم.

وبما أنَّ القدوة الحسنة حلقة وصل تربط الأجداد بالأحفاد، إذا؛ فتواصل الأجيال يتطلّب القدوة، وتواصل الحاضر مع الماضي يتطلّب الذّاكرة، وهكذا تواصل الحاضر مع المستقبل يتطلّب الأمل.

مرحلة توليد الفكرة:

تعدّ الفكرة التي هي من إعمال العقل، استمداداً لشيء مجرّد من الشيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونية والطّبيعية، ولأنّها مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه،

وُلدت منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباها لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين المحيّر والمأمول.

ومع أنّ الفكرة تخلّص من الحيرة، لكنّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها؛ فالحيرة بالنّسبة للفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة بدون حيرة تسبقها، هي: ولادة قسرية؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريتها، فتلد مشوّهة، وبالتالي ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف للمأمول ارتقاء.

ومع إنّ هذا الأمر يعدّ سالبا بالنّسبة للفكرة ارتقاء، ولكنّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تخرج من التأزّم.

ومع أنّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمّت به وألمّ بها، ولكنّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس، وما يسرّ الغير ارتقاء، ولذلك؛ فالبحوث العلمية ارتقاء تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الجديد المحفّزّ على حيرة جديدة من بعدها حيرات تُمكّن من إضافة ما هو أفيد وأنفع.

إذا؛ فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يُقتنص له حلّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشيء استحالة أو إعجازا أو ممكننا حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة تلد له حلّا.

وهذا لا يعني: أن تكون الحيرة غاية في ذاتها، بل الغاية من ورائها حلّا، ولكن هذا الأمر يتطلّب مقدرة على تحدي المُقلق بما يُقلقه، حتى يصبح القلق بولادة الفكرة في خبر كان؛ فأهل العلم والبحث العلمي لا يمكن أن يصلوا إلى غاية الارتقاء إلّا بعد الحيرة، ومن لا يقبل الجلوس مع الحيرة تحدّ؛ فلا إمكانية لأن يُكتب له التحدّي في ميادين العلم والمعرفة المصنّفة.

ولسائل أن يسأل:

هل الفكرة والحيرة ولدتا مع مولد آدم، أم أنّهما اللاحقتان عليه؟

بالنّسبة لآدم لم يكن مولودا، بل مخلوقا خلقا مباشرا بلا أب ولا أم، ولهذا، ما وجد عليه، فهو المخلوق معه خلقا، ولكن بنوه؛ فكلّ شيء فيهم خُلق سلالة من نطفة؛ فآدم خُلق في أحسن تقويم، وهذا يدلّ على أنّه معدّ للحياة لحظة خَلقه، أمّا بنوه من بعده؛ فحالهم حال الولادة والنّمو والتعلّم والتعليم، أي: حلهم حال من لا يستطيع أن يفكّر لحظة الولادة، ولكن في دائرة الممكن يبلغ ذلك تعلّما وتعليما.

فآدم كانت علاقته بالخالق والمخلوقات من حوله علاقة فطرة مباشرة، ولكن المحيّر بالنّسبة لآدم هو حياته في كونين مختلفين على التّمام، كون الارتقاء (الجنّة) وكون الدّنيا (الأرض)، فهو بعد أن كسب الجولة خَلقا، خسرها خُلقا، وذلك بعد أن أهبط به بسبب المعصية التي ارتكبها، ومن هنا، بدأ يفكّر كيف يمكنه الارتقاء ثانية من الحياة الدّنيا إلى تلك الحياة العليا؟ في ذلك اليوم وُلدت الحيرة، أي وُلدت الحيرة إنذارا بولادة الفكرة؛ فكان الاستغفار والتوبة نتيجة الفكرة التي أخرجت آدم من حيرته إلى ما يُمكّنه من بلوغ الارتقاء

إلى تلك الجنّة التي أهبط منها. وهي الحيرة ذاتها التي ألمّت بابنه في لحظة قتله أخاه، ولكنّه وقف قاصرا عن المعرفة حيث لا فكرة له عمّا جرى بيديه؛ فبعث الله غرابا ليريه سلوكا وعملا يمكّنه من المعرفة بلا فكرة من عنده.

ولهذا؛ فالفكرة ينتجها العقل، وتأخذها العقول، وتوظفها فيما يمكن أن يوظّف ويفيد.

وعليه:

لقد استلهم آدم الفكرة من أمورٍ:

الأمر الأوّل، من طبيعة الفطرة: التي خُلق عليها واصطبغ بها وجوده في أحسن تقويم، ولكن لأنّه خُلق على التسيير والتخيير؛ فكان للتسيير الطبيعة الخَلقية، وكان للتخيير فسحة الإرادة التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها؛ فخالف أمر النّهي معصية؛ بأسباب قصور معرفته أمام كمال الخالق وإحاطته؛ ذلك لأنّ آدم وبنيه لا يعلمون إلّا ما يُعلّم، ومن هنا كان الإنباء لآدم مصدر المعرفة ومكمن الفكرة ارتقاء.

ولهذا؛ فالفطرة التي فُطرت المخلوقات عليها هي التي جعلت لكلّ زوجين خصوصية، دفعتهما تجاه بعضهما، وهي ذاتها التي حالت بينهما وبين الأزواج الأخرى إلّا بما يفيد، فكانت حياة الفطرة ميسّرة لكلّ الأنواع تيسير جاذبية نوعيّة، وغريزية؛ ومع ذلك ظلّ الإنسان مهيأ لما هو أعظم؛ فكان عقله مقلّدا لما يراه في دائرة الممكن تخييرا.

الأمر الثاني، التقليد: وهو الذي لا يكون إلّا عن عقلّ، ولكن القصور على التقليد لا يمكّن من توليد الفكرة، ذلك لأنّه لم يمرّ بزمن الحيرة المُمكّن من التعمّق في التفكير حتى كشف اللثام عن الحقيقة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فآدم تقليدا: قلّد إبليس؛ فأكل من المنهي عنه، وكذلك ابنه: قلّد الغراب؛ فعرف كيف يواري سوءة أخيه، وهكذا، هي الحياة تطوّرا من الخَلق، إلى الفطرة، إلى التقليد، إلى توليد الفكرة، التي توليدها لا ينقطع فكرة من بعد فكرة. ولكن يظل التقليد قاصرا، والفكرة في حيّز العقل مهما عظمت؛ فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا، بعث الله الأنبياء والرّسل بالنبأ العظيم مبشّرين ومحرّضين ومنذرين وداعين للتفكير ارتقاء.

الأمر الثالث، النبأ العظيم: مع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، ولكنّه لم يُخلق على الكمال، ولهذا؛ فتفكيره لا يمكن أن يخرج عن حيّز دائرة الممكن؛ فكان الإنباء بما يجب من الخالق إلى المخلوق يمكّن المخلوق من الوقوف على المُعجِز، ومعرفة المستحيل مستحيلا؛ فأنزلت الأحكام المنظمّة للعلاقات بأسباب الاختلاف والخلاف الذي حدث على الأرض الدّنيا، معصية واقتتالا، ليفتح آفاق التفكير فيما يجب أن يؤخذ، وما يجب أن يُجتنب، وما يجب أن يُنتهى عنه.

ومن ثمّ؛ تعدّ الفكرة هي الأمر الرّابع المُمكّن من المعرفة والبحث في دائرة الممكن، وهذا لا يعني: أنّ الإنسان قبل ذلك لا يمتلك الفكرة ، بل قبل ذلك كانت حياة الفطرة هي السّائدة، ثمّ حياة التقليد، ثمّ من بعدها حياة الإنباء الذي جاء تنزيلا على الأنبياء والرُّسُل

عليهم السّلام، بهدف تقييم الأخطاء، وتقويم السّلوك والعمل، الذي ولّد الفكرة، وولّد منها أفكارا.

فالفكرة إنتاج العقل وإعماله، وهي بالنّسبة لمن تولّدت في عقله مثل البذرة، أو النّواة التي يراها المفكّر مخزّنة في محفظة ذاكرته وكأنّها الشّجرة متكاملة، جذورا وجذعا وأغصانا وأوراقا وثمارا؛ فهو يراها على هيئة الصّورة قبل أن تتجسّد في الشّكل والصّورة. ومن هنا، يكون مولود الفكرة هو الإبداع الذي يُسهم في إضافة الجديد النّافع ارتقاء.

ولهذا؛ فالفكرة في ذاتها مجرّدة، حيث لا هيئة لها إلّا في ذهن المفكّر الذي نضجت في عقله مثلما تنضج النّواة من تربتها شجرة متكاملة، ولذا؛ فالهيئة تكون للصّورة التي أساسها فكرة، ومن ثمّ؛ فالفكرة ترتبط بالمشاهد والملاحظ مثلما ترتبط بالمجرّد، والفكرة متى ما تكون نتاج تذكّرٍ، يكون التفكّر هو المهئ لاصطيادها، أمّا التدبّر؛ فلا يكون إلّا نتاجها سلوكا وعملا.

والفكرة وإن كانت مجرّدة في الذّهن، لكنّها على ارض الواقع تتجسّد في المشاهد والملاحظ، سواء أكانت معرفة قيم وفضائل ونظم وقوانين، أم أنّها معرفة ملموسة مادّيّا، ومن هنا، كانت هيئة الخلق سابقة على صورته مخلوقا، وهيئة المصنوع سابقة على وجوده مصنوعا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة متلازمة مع التكاثر تكاثرا، فمع أنّها لم تكن مخلوقة، ولكنّها تتخلّق في عقل الإنسان تدبّرا من بعده تدبّر، وإنتاجا من بعده إنتاج؛ فهي القوّة المُوجدة لما لم يوجد من قَبل،

وهي وإن لم تتطابق مع خلق الشيء من لا شيء، لكنّها تتماثل معه من حيث إيجاد الشيء من الشيء نشوءا؛ فالإنسان الذي خُلق نشوءا زوجيا، كان وجوده وفقا لقانون الفطرة والتقليد، ولكنّه من بعد ذلك إنباء استطاع أن يتبيّن مكامن الحقيقة، التي لفتته إلى نفسه ومَن حوله، فاستكشف علاقات قابلة لأن تتطوّر ارتقاء، فاستفزّت عقله يقظة زوّدته بالمعرفة الممكّنة من البناء والإعمار وتحدّي الصّعاب التي تواجهه كلّ يوم.

وكما أنّ الحيرة يقظة عقلية تستوجب مواجهة القلق بما يُقلقه؛ فكذلك الصّعب يعدّ معطية مثيرة للعقل ومستفّزة لملكاته، التي تتحفّز إلى المواجهة معه متى ما اعترض طريقها، ومن هنا، بدأت مواجهة العقل للصّعب تحدٍّ من ورائه تحدٍّ، وفي المقابل الصّعب يقدِّم التنازل من بعد التنازل.

فالصّعب ليس بالمستحيلٍ ولا المُعجز، حتى يستحال تحدّيه، بل ميادين تحدي الصّعب هي فسيحة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا خوف من مواجهة الصّعب، بل الخوف أن لا تحدث المواجهة معه؛ فالمواجهة العقلية معه كلّما حدثت عن تدبّر فكرة، أنتج العقل فكرة أكثر ارتقاء، ولذا، ستظل الفكرة عقلية إلى حين استخراجها فيما يمكن أن يكون على الشّكل أو الصّورة، أو المفهوم والدّلالة والمعنى، والذي يتجسّد في العمل والسلوك.

ومع أنّ العقل مكمن الفكرة، ولكنّه أيضا منبع الأمل، ومع أنّهما معا من إعمال العقل وفي محفظته، ولكن الأمل يتعلّق بالغايات الخارجية، التي في دائرة الممكن لا تُبلغ إلّا تخييرا وإرادة؛ فمن

يمتلك الإرادة يستطيع الاختيار المُمكّن من التدبّر وحمْل المسؤولية، ومن لا يمتلكها، فإشارة قف لا تسمح له بالعبور إلى ضفاف الارتقاء؛ ولذلك؛ وراء كلّ غاية فكرة، ولكن أيّة فكرة؟

هل هي فكرة فكّ القيد؟ أم أنّها فكرة وضعة؟

أقول: القيد مولود الفكرة؛ فلو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة؛ يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤها حتى يجد قيدا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد من قِبل الغير، يبدأ يبحث تفكرا في كيفية فكّه وبكلّ ما يتيسّر له حيلة.

ولذا؛ فمن يريد أن يكون إنسانا في أحسن تقويم؛ فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أرد الحرّيّة؛ فعليه أن يقبل التنازل عن عقله كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنا، وهكذا إذا أرد الاثنين معا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضية:

(كل أ ليست أ)

فنحن بنو آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قفّ وسرّ)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ؛ فإن لم يقيّد الإنسان نفسه عقلا، سيجد نفسه مقيّدا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنّ السّجن هو السّجن؛ ولكن تدبّرا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله؛ فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة،

ولكن إن وُضع القيد في يديه كرها؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

ومن ثمّ؛ فإذا سلّمنا أنّ العقل هو الذي يقيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاء؟

لا شكّ أنّه سيكون قادرا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير؛ ولكن إن تمّدّد؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدا.

ولهذا؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق على الزّوجية، عاش حياة الفطرة جنّة، إلى أن عصى ربّه؛ فأهبط به والأرض أرضا؛ فظلَّ من بعد الهبوط على أمل العودة إلى تلك الجنّة، وظلّ بنوه من بعده، يسعون ويعملون كلّ ما من شأنه أن يرتقي بهم إلى المأمول غاية؛ فتولّد التفكير في عقولهم، فكرة من بعدها فكرة؛ فأنتجوا الثّقافات، وبنوا الحضارات، ومع ذلك؛ فهم يعلمون أنّهم كلّما أنتجوا فكرة واجهتهم صعاب تستوجب المزيد من إنتاج الفكرة، ولذلك؛ فهم قبلوا التحدّي والصّعاب كلّ يوم تهزم صعوبة من بعد صعوبة.

ولذلك؛ فمرحلة الفكرة جعلت الإنسان على المعرفة الممكّنة من كشف العلاقة بين الخَلق والنّشوء والإعجاز والارتقاء، وفتحت أمامه آفاق البحث العلمي المُمكّن من صناعة المستقبل وتجاوزه ارتقاء.

ومع أنّ الفكرة مولود العقل، ولكن مستفزّتها خارجية، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ

مُذَكِّرٌ}[335]. ولذلك؛ فالفكرة لا تستمدّ من العالم الخارجي كما كان يراها أرسطو، بل العالم الخارجي هو مصدر استفزازها؛ فيخرجها من الكمون إلى حيّز الوجود وكأنّها تُعبث من العدم.

فالفكرة في ذاتها هي مجرّدة، ولكن في مفهومها ومضمونها تحمل رسالة، أو مشروعا، أو رؤية، أو حلّا يمكّن من فكّ التأزّمات، والإقدام على ما يمكّن من الارتقاء؛ فالفكرة لم تكن خاطرة عابرة تأتي هكذا وتذهب وكأنّها لم تأت، بل الفكرة كما تستمدّ من السّابق، فهي تضيف الجديد، ثمّ تفتح آفاق الارتقاء مع المستقبل.

ولهذا؛ فالفكرة تمكّن من استخراج المجهول من المعلوم، أي: تستكشف المعلوم وتخرج المجهول منه؛ فيصبح معلوما وليس مخلوقا؛ فالفكرة تستنبط وتستمدّ من المخلوق شيئا لا ينقص من المخلوق شيئا، وفي المقابل تزداد المعارف أشياء مستكشفة.

والفكرة لم تلد في الخارج، بل الخارج يستفّز العقل ويُلفته إلى ما يُمكِن أن يُستكشف؛ فيبدأ العقل إعماله تجاه المستفزّ والحيرة تلازمه حتى يبلغه، وحينها لا تجد الحيرة مكانا لها عند المستكشف معرفة، أي: لا يمكن أن تبقى الحيرة مع التجلّي المعرفي، بل هي تبقى مع بقاء اللبس والغموض، وفي المقابل تزول بزوالهما.

والفكرة تعدّ صوغا عقليّا لمولودٍ لم يولد بعد؛ وهو بعد الولادة لن يكون فكرة، بل شيئا غيرها، ولكنّه المؤسّس عليها؛ فلو لم تكن ما كان، ولهذا؛ فالفكرة هي استنباط الشيء من الشيء، بعد تهيّئه على الشّكل أو الصّورة أو الرّسالة والموضوع، ممّا يجعل المستنبط في

[335] الغاشية 17 - 21.

صورة موضوع عام، حيث لا تفصيل؛ فالتفصيل لا يكون إلّا للموضوع الذي تمدّدت الفكرة فيه بداية ونهاية، والفكرة هي الفكرة، والموضوع ارتقاء لا يكون إلّا المفسّر للفكرة إيضاحا.

فبعد أن تطوّر الإنسان من حياة الفطرة والتقليد إلى حياة الإنباء والفكرة، أصبح يُبدع استكشافا، وليس خَلقا، ذلك لأنّ المخلوق لا يَخلق، ولكنّه في دائرة الممكن يكتشف المخلوقات، ثمّ يكتشف منها أسرارا كانت مجهولة؛ فيكتشفها بحثا، وتأملا، واستنباطا، واستقراء، ثمّ يوظّفها بما يعود عليه بالمنفعة، وهكذا هي الحياة والإنسان فيها يتطوّر بالفكرة، ومع ذلك لم يكن التفكير كلّه مؤسّسا على استنباط الفكرة ارتقاء، بل هناك من الفكرة ما يؤدّي إلى السُفلية والانحدار.

ومع أنّ الفكرة تلد في العقل البشري بداية بمستفزّات خارجية، ولكنّها بعد أن تلد منه إنتاجا، تصبح وفقا للقدرة قابلة للانتقال من عقلٍ إلى عقلٍ مع وافر التأثير، سواء أكان تأثيرا موجبا، أم سالبا، وعندما تكون الفكرة بنائية، تدفع المتلقِّين لها إلى الارتقاء، ولكن إن كانت هدّامة؛ فستدفع بمتلقيها إلى ارتكاب الأعمال الدُّونية. ومع ذلك؛ فالعيب لا يلاحق الفكرة، بل العيب يلاحق من كان من ورائها (من أوجدها)؛ الذي فكّر فيما يضرّ في الوقت الذي ينبغي أن يفكّر فيه فيما يفيد وينفع، وهنا تكمن العلّة، أي: تكمن العلّة في أصحاب الفكرة الهدّامة سواء الذين أنتجوها، أم أولئك الذين سوّقوا لها ووظّفوها.

ومع أنّ الفكرة في دائرة الممكن (بنائية أو هدمية)، ولكنّها بين هذا وذاك، يمكن أن تكون (إصلاحيّة)، وهذا يعني: أنّ الفكرة البنّاءة تصحّح أخطاء الفكرة الهدَّامة متى ما كان الحوار والجدل بين النّاس موضعيّا، ولا إمكانية أن تكون الغلبة للفكرة الهدّامة كلّما ساد الحوار والجدل منطقا (حُجّة بحجّة)، ولذلك؛ فالمعلومة الصّائبة تصحّح المعلومة الخاطئة كلّما طرأت؛ ذلك لأنَّ أثر الفكرة اليائسة يصحّح أو يعالج بالفكرة المملؤة أملا؛ فالفكرة الأمل تحفّز على البقاء المرضي، وتدفع تجاه المستقبل الأكثر إرضاء.

والفكرة كونها مجرّدة؛ فلا علاقة لها بالاقتناع من عدمه؛ فالاقتناع من عدمه مسؤولية من ينتج الفكرة، أو يتبنّاها، أو يأخذ بها من صاحبها أو متبنيها؛ فالعقل السّليم في معظم الأحيان يأخذ بأحسن الفكرة، والعقل العليل في معظم الأحيان يأخذ بأسوائها، ومع ذلك فللفكرة الحسنة مسوّقين، وللفكرة السّيئة مسوّقين، ومتى كان المسوّق على مقدرة إقناعية راجت فكرته حتى وإن كانت هدمية، وإن لم يكن له مقدرة إقناعية انكمشت فكرته وإن كانت بنائية، وهذه العلاقة هي بالتّمام علاقة بين من يسعى إلى الارتقاء، وبين من يسعى للدّونية والسُفلية، أي: فمن أراد ارتقاء؛ فعليه أن يأخذ بفكرة الارتقاء نهضة وتقدّما، أمّا من أراد سُفلية؛ فأفكارها في الأسواق الهدّامة كثيرة.

ولذلك، تعدّ الفكرة ارتقاء مصدرا للرّؤية البنائية، سواء أكانت رؤية فكريّة (تتعلّق بالنّظم والقوانين ورسم السياسات، وما يؤدّي إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ) أم أنّها كانت عملية، (تتعلّق بالاقتصاد والتجربة والبناء والإعمار)؛ فالفكرة سواء أكانت نظرية أم عملية،

تخلق جدلاً بين منظِّر، ومسوّق، ومؤيّد، ومعارض، وتابعين مختلفين.

وعليه:

الفكرة حرّة، لا تُسجن وإن سُجن أصحابها ومسوّقوها، إنّها مولود العقل الذي فكّر في إيجاد كيفية تسمح له بالتمدّد داخل حدوده أو خارجها على حساب الغير، ثمّ من بعدها فكّر في ما يخالفها غاية؛ فأوجد كيفية تكبح السّلوك وتقيّده متى ما تمدّد على حساب الغير. ذلك لأنَّ الفكرة من طبيعتها التمدّد بين العقول، كما تمدّدت ارتقاء من النّظر إلى الخَلق، إلى البحث عمّا يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي هو عليها، وذلك بغاية البحث ارتقاء عمّا يمكّن من معرفة المشاهد (هو كما هو)، ويمكّن من معرفة المُعجز (آية بعد آية)، ثمّ يمكّن من بلوغ معرفة المستحيل مستحيلا، وهكذا هي الفكرة تتمدّد بين أيدينا ارتقاء.

فنحن بنوآدم عرفنا أنّ الشيء في أساس خلقه قد خُلق من غير موجود، وعرفنا أنّ بلوغ المستحيل مستحيل، وعرفنا نشوء الشيء من الشيء معجزة، وعرفنا أنّنا نعرف ما عرفنا ارتقاء، ثمّ عرفنا أنّنا في حاجة لمعرفة المزيد.

ومن ثمّ؛ فالفكرة لا تخلق الشّيء، ولكنّها تستكشفه، ولا علاقة لها بالخَلق؛ فالخَلق لم يكن من الفكرة، ولا من المفكّر. الخَلق من العلم، وبالأمر كن، ومن هنا؛ فالخالق لا يفكّر، بل الخالق يعلم كلّ شيء؛ وفي المقابل الذي يفكّر هو الذي لا يعلم، ولهذا يفكّر ويبحث بغاية أن يعلم.

والفكرة كمفردة تتشعّب فكرا، فتتمدّد في شؤون الموضوع الذي يحملها في ثناياه فروعا؛ فهي مثل النّواة التي تغرس في التّربة والمناخ المناسبين لها؛ فتنمو شجرة ضاربة في الأرض وجذعها إلى السّماء فروع متفرّعة، أي: تتفرّع الفكرة الواحدة فكر متعدّدة التفاصيل حتى يكتمل الموضوع رسالة أو رؤية. بمعنى: تتعدّد الفِكَر المتفرّعة من الفكرة بما يمكّن من استيعاب الموضوع فِكَرا مفصّلة.

وتعدّ الفكرة قاعدة التنظير، فلسفة وسياسة واقتصاد واجتماع، أمّا الدين؛ فلا تنظير فيه؛ فهو لا يكون إلّا من خالق؛ ذلك لأنّ الدّين لم يبني على الفكرة، مع أنّ الفِكَر الثّمينة لا تستمدّ إلّا منه، أي: كلّ شيء يؤسّس على الفِكَر، لا يكون إلّا من مفكّر، والدّين ليس كذلك، ولهذا؛ فلا فكر ديني كما يعتقد البعض، بل الدّين لا يكون إلّا علم من عليم، ولهذا؛ فهو لا يستند على الفكرة، بل يستند على المعجزة، التي تتنزّل نباء ورسالة تنسب لخالقٍ، ولا تنسب لمفكر.

مرحلة تطوّر الفِكَر:

تعدّ الفِكَر من إنتاج العقل؛ ويعدّ الفِكْر من إعماله، ولأنّ الفِكَر هي مجموع الفكرة؛ فهي على الكثرة التي في حاجة لأن تصنّف بين ما يؤدّي إلى الارتقاء، وبين ما يؤدّي إلى الانحدار، ذلك لأنَّ الإنسان سواء أكان هو مصدر الفكرة، أم متلقيها؛ فهو المخيّر قبولا، أو رفضا، أو حيادا.

ولأنّ الإنسان مخيّر، فيما هو ليس بمستحيلٍ؛ فهو يفكّر كما يشاء، دون أن يتجاوز الحقائق والشّواهد الدّالة على الوجود، سواء أكان

وجودا مستحيلا، أم معجزا أم ممكنا؛ فالإنسان لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكْره، بغاية تنشيط إعمال فكره ليكون عقله متهيأ ومتأهبا للاستنباط من المجرد والمعجز، والاستقراء من المشاهد والملاحظ، وهذه من صفات العقل المتدبّر أمره. كما أنّه لا ينبغي أن يغفل عمّا يمكّنه من تطوير فِكَره (مجموع الفكرة) أي: لا ينبغي أن يتوقّف عند حدود إنتاج الفكرة، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ما يمكّنه من تطوير الفكرة بالفكرة حتى يبلغ تطوير ما بلغه من فِكَر. ولهذا، فالفِكْر، هو: إعمال العقل، أما الفِكَر: فهي إنتاج العقل.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، لكنّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة للمستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة لدائرة الممكن؛ فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقا للإرادة والمقدرة.

فبمرور الزّمن كان التكاثر البشري بين اختلاف وخلاف حتى أصبحت الهوة بين النّاس تتسع صداما ونزاعا واقتتالا؛ فبعث الله الأنبياء والرُّسُل مبشّرين، ومنذرين، ومحرّضين، وداعين للكلمة السّواء، ومع ذلك كفر من كفر، وأشرك من أشرك، وآمن من آمن، ومن هنا، اتخذ الاختلاف والخلاف أوجه جديدة بين من يؤمن بالله، وبين من يكفر به أو يشرك، حتى وُصف هذا الصّراع بأنّه الصراع بين (الخير والشّر).

ولسائل أن يسأل:

ومن الذي بذر بذرة الخلاف والاختلاف؟

أقول: بذرة الاختلاف بذرة خَلق، خُلق الإنسان عليها؛ فكانت من فطرته وفقا لمشيئة الرّب، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[336].

ولأنَّ الرّب جعل النّاس مختلفين خَلقا؛ فهو بلا شكّ يريدهم على الاختلاف بقاء إلى النّهاية، ولذلك، سيظلون على الاختلاف حتى النّهاية، ولا إمكانية لتبديل خلق الله، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[337].

ولأنَّ النّاس مجبولون على الاختلاف فطرة، فهل الرّبّ يجعل خلقه على ما يسيء لِفطرة صُنعهِ؟

أقول:

لو أنّ الله خلق النّاس بلا اختلاف، لكانوا على الكمال، وهذه من صفة الله وحده، أي: لو لم يُخلقوا على الاختلاف ما كان أحد في حاجة للآخر، ولولا الاختلاف ما كان التنوّع مغريا، ولو لم يكونوا مختلفين ما كان للأمومة معنى، وللأبوة معنى، ولا للأخوة والعمومة والغير معنى، وهكذا، ليس الذّكر كالأنثى، ولأنّهما كذلك كان للمودّة دلالة ومعنى، ولهذا، كان الاختلاف بين النّاس رحمة؛ فينبغي أن يسود بينهم رحمة.

إذا، لو لم يكن الاختلاف فطرة بين النّاس ما كان العقل متدبّر؛ فالاختلاف خلقا هو أساس الوحدة بين النّاس، وأساس التذكّر

---

[336] هود 118 ، 119.
[337] الرّوم 30.

والتدبّر والتفكّر، أي: لو لم يكن النّاس مختلفين لكانوا آحادا، وليس أزواجا، وجماعات، وشعوبا.

ولهذا؛ فلاختلاف ارتقاء لا تضاد فيه، لكونه الاعتراف بالخصوصية (أنا وأنت)؛ فاللون الأسود لا يكون ضدّ اللون الأبيض، وما الاختلاف بين الألوان إلّا زيادة الجمال جمالا؛ فالألوان مع أنّها تتعدّد جمالا، ولكنّها عندما تُنسج بساطا تلاحظ أنّها أرقى بكثير عمّا كانت عليه قبل أن تُنسج في وحدة من الجمال.

والإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم؛ فهو بدون شكّ إنسان واحد، ولكنّه لم يكن نوعا واحدا (ذكرا وأنثى)، ولم تكن قدراته وظروفه ومعارفه متساوية؛ فالاختلاف تنوّع ألوان، وأشكال، وأراء، ومعارف، ومع ذلك؛ فالتّشابه والتّماثل ارتقاء لا ينقطع؛ فالنّاس من بعد الرّسل لو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن لأنّهم خُلقوا على الاختلاف، اختلفوا ثمّ تخالفوا على ما جاءت به الرّسل؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ارتقاء، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ سُفلية. ولو لم يختلف النّاس بما اختلفوا به لكانت الحياة ذات وجه واحد، وطعم واحد، ولون واحد، ورؤية واحدة؛ وهذا الأمر يجعل الحياة مُملّة وكأنّها بلا مستفزّات، وبلا مغريات، وبلا طموحات، وبلا منافسة، وبلا أمل (حياة لا تشدّ الرّغبة إليها).

أمّا الخلاف فيسود بين النّاس عندما يرى كلّ طرف منهم أنّه صاحب الحقّ الوافر، وغيره لا حقّ له، أو ليس له إلّا حقّا منقوصا؛ فتُرفع الأصوات على الأصوات وكأنّ الأطراف المتخاصمة لا تعرف أنّ الحقّ دائما أعلى من أيّ صوت، ولأنّه كذلك؛ فلا داعي لرفعه، ولذا؛ فاترك الحقّ يعلو ارتقاء على كلّ شيء بما فيه

صوتك، وإن كان خصمك على حقّ؛ فلا ترفع صوتك عليه، وإن رفعته؛ فلا تستغرب أن يأتي اليوم الذي تُلجمك فيه الحُجّة، ويكون صوته بين النّاس وعلى الملأ أكثر منك حجّة وارتقاء.

ومن ثمّ؛ فالخلاف لا يكون إلّا بما تعمل أيدي النّاس، أمّا الاختلاف فالنّاس مفطورون عليه خَلقا، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[338]. ولذلك؛ فالاختلاف رحمة، أمّا الخلاف فنقمة، لا ينبغي الالتجاء إليه إلّا من أجل ما يرسّخ قيمة الإنسان وكرامته وسلامة حياته ومعتقده وحرّيّته.

ومن ثمّ؛ فالخلاف مع المخالف لما يجب يعدّ ارتقاء، والخلاف معه على ما لا يجب يعدُّ انحدارا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم إلّا أنَّه إذا لم يفكّر فيما يفكِّر فيه قبل أن يحدث، قد يجد نفسه في دائرة الممكن في مواجهة مع غير المتوقّع، ومع ذلك ليس له بدّ إلّا أن يفكّر حتى يعرف من جديد كيف يفكّر ارتقاء، وإلّا ليس له إلّا الانحدار الذي تكمن فيه معطيات الألم.

فالتفكير ارتقاء يُحدث النُقلة المأمولة تقدّما، وما دونه يجعل الفكرة غير فاعلة، والتفكير غير مُفعَّل.

ولأنّ العلاقة متداخلة بين التفكير والفكرة؛ فمن الصّعوبة تناول أحدهما بمنعزلٍ عن الآخر؛ فالتفكير يولِّد الفكرةً التي متى ما كانت راقية أضافت معارف جديدة نافعة، ومتى ما كانت على غير ذلك، تؤدّي إلى ما يترتّب عليه ألما.

---

[338] الروم 30.

ولذا؛ فمن لا يفكّر في مستقبله مع المختلفين عنه، لا يمكن له أن يسعى لتأمينه، ومن لم يفكّر في صناعة مستقبل أفضل، لن يجد لنفسه مكانة يتبوّؤها بين النّاس، ولن يكون له مستقبل مقدّر، بل قد يجد نفسه على الرّصيف متسوِّلاً، أو سجيناً بين الجدران بأسباب فقدانه مشبعات الحاجة المتطوّرة، وعدم معرفته كيف يفكّر تعاونا مع المختلفين، فينبغي أن يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر، وعليه أن لا يغفل عن اختلاف الغير عنه، وأن يعلم أنّه مثلما هو مخيّر هم مخيّرون، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[339].

وبما أنَّ الإنسان قد خُلق مخيّرا؛ فلا استغراب من الاختلاف، بل الاستغراب أن لا يكون مختلفا، فالنّاس بطبيعتهم يرضون عن تخييرهم، ولكن البعض صدورهم من الاختلاف تضيق، وهنا تكمن العلّة التي لا تتمشّى مع الفطرة التي خُلق الإنسان عليها مخيّرا بين اختلاف وخلاف، وهكذا هي الحياة جدل من بعده جدل.

تطوّر الفِكَر جدلاً وحجّة:

مع أنَّ الإنسان خُلق من طين، لكنّه خُلق معدّا للتفكير؛ فكانت الفكرة نتاج عقله ومن إعماله، وأوّل فكرة كانت هي من عقل أوّل من خُلق في أحسن تقويم، (آدم) ثمّ تعدّدت الفِكَر بتعدّد البشرية وبتعدّد ما تفكّر فيه، ولهذا أصبحت فِكَرا بعد أن كانت فكرة. أي: في هذا المسار الأمر يتعلّق بالفكرة التي أصبحت بتكاثرها فِكَرا، ولكن هذا لا يعني أنّ الأمر لا يتعلّق بالفِكْرِ الذي هو مكمن التفكير؛ فالفِكْرُ

[339] الكهف 29.

من معطيات العقل، وفي المقابل الفكرة لا تكون إلّا من التفكير وإنتاج العقل، وفيما يُفكَّر فيه. ولذلك، يؤسّس التطوّر على قاعدتين:

الأوّلى: تطوير الفِكْرِ بما يمكّن الإنسان من التفكير، وهو يُفكّر فيما يُفكّر فيه قبل أن يتّخذ القرار تجاه ما فكّر فيه بداية حتى يُحسم الأمر تطوّرا.

الثانية: تطوير الفكرة بفكرة أكثر ارتقاء، حتى تتولّد الرّؤى المتجاوزة للمألوف والمعتاد التفكير فيه.

وعلى هاتين القاعدتين تطوّرت رؤى البشريّة وهي على التخيير بين اختلاف وخلاف، ولا حاسم للأمر إلّا المحاجّة والمجادلة، أي: لا حاسم للأمر إلّا الالتقاء الذي فيه تُدحض الحُجّة بالحُجّة، وحتى إن امتلأت الحجج والجدل شدّة، لكنّ الشدّة الجدلية ضرورة؛ فهي لا تكون إلّا من أجل الحرص، وهي كذلك، لا تكون إلّا بغرض التسوية لما سلف من انحدار وسُفلية، وهي بغاية الارتقاء عن كلّ ما يؤدّي للفرقة والخصام. ولهذا؛ فمن أجل التطوّر والارتقاء لا يجادلك إلّا من هو حريص عليك، ويأمل أن لا تظل تائها عن ممارسة وتأدية ما يجب أن يكون من أجلك وأجل من تربطك به علاقات.

ولذا؛ فأصحاب الحُجج تطوّرا يسعون إلى إحداث النُقلة، والارتقاء بالنّاس إلى ما يجعلهم قمّة، وفي المقابل من يخالفهم بغير حُجّة يشدّ إلى الخلف إعاقة، وبين هذا وذاك؛ فلا استقرار، ولا أمن، ولا ارتقاء ولا تطوّر لأحد ما لم يؤخذ بالحُجّة ارتقاء واستيعابا، ولا استثناء لأحد بأيّة علّة، إلّا إذا كان أحد علّة في ذاته، ولا استغراب

من هذا الأمر، حيث لكلّ قاعدة شواذ، ومع ذلك، الحجّة الجدباء لا تصمد أمام الحجّة الحلّ التي تعلو بأصحابها تطوّرا وارتقاء إلى ما يمكّن من المعرفة، التي بها سترتق الأرض والسّماوات كما كانت أوّل مرّة.

ولأنّها المجادلة تطوّر وارتقاء؛ فهي لا تكون إلّا بالتي هي أحسن، {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[340]؛ أي: لا ينبغي أن تكون المجادلة بالتي هي أسوء؛ فالأسوء لا يقود إلّا للخلاف والصّدام والاقتتال، ومن هنا، يلد الألم ألما.

وحتى لا يسود الألم بين النّاس، ينبغي الأخذ بمبدأ المجادلة حرصا وتطوّرا وارتقاء، ويجب أن تبدأ المجادلة مع المختلفين من حيث هم عليه اختلافا، لا من حيث ما يجب أن يكونوا عليه اتفاقا؛ فما ينبغي أن يكونوا عليه اتفاقا هو المأمول الذي من أجله تجري المجادلة بالتي هي أحسن، أمّا المجادلة غِلظة؛ فلا تكون إلّا مع من يستغلظ على الحقّ بغير حقّ، وهنا، يصبح المستثنى من جنس المستثنى منه (غلظة بغلظة) ومع ذلك؛ فللعفو والصّفح مكانة لا يبلغها إلّا من تدبّر أمره حكمة.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن وسيلة للارتقاء؛ فينبغي أن تكون أساليبه على الترغيب والتشويق والنّهي والرّهبة والتحذير والإنذار مع مراعاة الفروق الفردية بين المجادلين ارتقاء؛ ففي الجدل الرّسائل تُرسل بين المجادلين لكلٍّ حسب ما هو عليه من معرفةٍ، وثقافةٍ، ومعتقدٍ، ومنّطقٍ، مع عدم الإغفال عن أهمية الحكمة في

[340] العنكبوت 46.

إدارة الجدل؛ فالإنسان مع أنّه خُلق من نطفة، ولكنّه خصيم، ولهذا؛ فهو مجادل، ولأنّه كذلك؛ فمن حقّه أن يجادل، ولكن حرصا وتطوّرا وارتقاء ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن؛ فهو كلّما جادل بالتي هي أحسن، كسب قلوب النّاس، وفي المقابل متى ما استغلظ عليهم استغلظت قلوبهم عليه.

ولذلك؛ فالجدل تطوّرا وارتقاء لا ينفصل عن الحُجّة، مع أنّ الحُجّة أساسا هي معلومة مستقلّة بذاتها، وستظل إلى أن تُستخدم أو تُوظّف جدلا، بما يقرّ حقّا أو يؤدّي واجبا، أو يُمكّن من حمْل مسؤولية، ومن ثمّ، فالحُجّة تُفحِم أو تُلزِم من كان على غير حُجّة حتى يُغيّر ما بنفسه، ومن هنا، تلد الموعظة والعبرة ارتقاء. وفي المقابل الجدل غِلظة يدخل المجادلين في حلقة الصّدام الذي كلّما انتهى بدأ.

ولأنّ الجدل بالتي هي أحسن جدل حُجّة؛ فينبغي أن يكون على اللين مع تبيان الدّليل والبرهان شاهدا بين أيدي المتخالفين، ولنا في إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام القدوة الحسنة حينما جادل أباه آزر وهو يخاطبه بقوله، {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[341]؛ فقوله وهو يجادله رأفة وودّا: (يَا أَبَتِ) وهو يكررها مرات (يَا أَبَتِ)، هي: بهدف صحوة أبيه آزر من الغفلة التي ألمّت به، والجهل الذي استحوذ على عقله، وبخاصّة أنّ

[341] مريم 42 - 45.

إبراهم لم يخفي علمه وحرصه ومحبّته له، ولذلك؛ كان ارتقاء إبراهيم مؤسّسا على عدم الإكراه؛ فالإكراه هو: حجّة من ليس له حُجّة، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[342].

ولأنّه الجدل ارتقاء؛ فهو لا يكون إلّا عن صبر، وسعة صدر، بهدف استيعاب المختلفين، وأخذ الحجر من أيديهم التي به امتلأت، ولذا، ينبغي أن يمتلك المجادل المقدرة على استجلاب الدّلائل والبراهين لإثبات قضيّته، وفكّ القيد عنها، مع فكّ اللبس والغموض عمّا يستخدمه من مفاهيم؛ وفي هذا الشأن أتذكّر تلك المجادلة التي جرت بين النبي إبراهيم ومن حاجّه في ربّه، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}[343]؛ فاللبس في ذهن من جادل إبراهيم في ربّه كان متعلّقا بمفهوم الإحياء والإماتة؛ فإبراهيم قال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ) وفي المقابل كان قول المجادل له: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ). واللبس هو: أنّ إبراهيم يجال بحجّة من يحيي ويميت، وفي المقابل فهم المجادل، أن الإماتة هي القتل، ولهذا، أجابه بقوله: (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) أي: وكأنّه يقول: إذا أردت أن أقتل أحدا، قتله، وإذا أردت عدم قتله تركته حيّا. ولكنّ الفرق كبير بين القتل الذي يكون على أيدي المتقاتلين أو القتلة، وبين الموت الذي لا يكون إلّا بيد الله.

---

[342] يونس 99.

[343] البقرة 250.

ومن ثمّ؛ فالحُجّة يمكن أن تكون مُعجزة تفحم المجادل بغير حُجّة، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}[344]، وفي المقابل يمكن أن تكون حلّا، ويمكن أن تكون موعظة، ويمكن أن تكون عبرة، ويمكن أن تكون دليلا ملاحظا أو مشاهدا (قولا وعملا وفعلا وسلوكا) {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}[345].

وعليه:

فالجدل تطوّرا هو ما ليس بتفاوض؛ بل هو: التوجُّه للنّاس بالحُجّة تطوّرا وارتقاء، وهي الحُجّة التي لا تقبل التنازلات، ذلك لأنَّ الحُجّة ينبغي أن يؤخذ بها، أمّا التفاوض؛ فلا ينتهي إلّا بتقديم التنازل الذي من وراءه تنازلات.

ولذلك؛ فالمجادلة تطوّرا وارتقاء فيها مكابدة وعُسرة، وهي في معظم الأحيان تستدعي تقديم المزيد من الحُجج الدّامغة التي لا تستفز أحدا، وبتقديم المزيد من الحجج ينبغي أن ينبهر الخصم بما يجذبه إلى الحقّ حُجّة بعد حُجّة.

ولذا؛ فالصّبر حُجّة المتجادلين؛ فعليهم به دون استرخاء؛ ولا داعي للقلق حتى وإن كانت الاستفزازات من ورائه، بل كلّما طال زمن التجادل والصّبر لم يفارق المتجادلين حُجّة بحُجّة كلّما اختنقت أنفاس من لا حُجة له.

---

[344] البقرة 158.

[345] يوسف 26.

ومن ثمّ؛ ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الرّكون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلّا الخلاف والفرقة. ومن هنا، يصبح كلّ شيء ممكن سواء أكان متوقّعا أم غير متوقّع.

ولذا؛ فعندما تغيّب الحُجّة بين المتجادلين ارتقاء، يصبح المجال بينهم مفسوحا للخصام والاقتتال، ومن ثمّ؛ فالجدل وما فيه من شدّة؛ فهو منطق السّلام، الذي إن لم يؤخذ به، قد تصبح مصارف الدّم بين النّاس في حاجة للمزيد.

ومن هنا؛ فالمحاجّة تطوّرا وارتقاء ليست نقاشا بلا دراية، ولا مفاوضات بلا خبرة ولا مهارة، بل المحاجّة تحاور يتكئ على حُجج بيّنة بغرض تنقية الشوائب التي نُسجت بين المتخالفين أو المختلفين، الذين يميلون عن صائبة المطّلب والقول بعلل فيها علّة.

ومع أنّ الإنسان ارتقاء قد خُلق في أحسن تقويم، لكنّه خُلق ليجد نفسه بين قيم حميدة وفضائل خيّرة، وبين استفزاز الحاجات المتطوّرة في مقابل قصور مشبعاتها؛ ممّا يدعوه إلى قبول التكيّف بتنازلات، أو أن ينتظر زمن التوافق الذي قد يطول ويجعله على غير أملٍ.

ومع أنّ الإنسان خُلق على الارتقاء مقوّما، لكنّه لم يُخلق نسخة واحدة وكأنّه أوراق سحب، بل لكلّ خصوصيته التي بها يتميّز عن غيره كما غيره يتميّز عنه؛ فالنّاس مختلفون، ولكلّ بصمته الخاصّة

التي لا تتكرّر، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[346]؛ فما أعظم هذه الآية (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: مع أنّهم من نفس واحدة ولكنّهم لا يتطابقون، وإن تماثلوا صفة؛ فهم مختلفون بصمة ومقدرة وتذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، ولهذا؛ فهم يختلفون، وسيظلون مختلفين (وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، أي: أنّهم خُلقوا على الاختلاف الذي جعلهم في حاجة لحشد الطّاقات حيث لا إمكانية للتطوّر والبقاء بغير الاختلاف.

ولأنّهم خلقوا على الاختلاف؛ فهم في حاجة لِما يجمع شملهم متى ما اختلفوا، أو تخالفوا؛ فالمحاجّة والجدل جهود تُبذل لإظهار الحقّيقة التي لا تكون إلّا بامتلاك السّند الذي يَحتكم به ويُحتكم إليه، ومع ذلك تختلف المجادلة عن المحاجة من حيث كون المجادلة تتمركز على التمسّك بالحُجّة دون تفريط ولا يأس ولا قنوط، أمّا المحاجّة فالأمر يقتصر على تقديم الحُجّة لتكون شاهدة على القضية، ولمن شاء أن يحكم بها عدلا؛ فليحكم.

الفِكَر يلد حلّا

الفكرة كونها من إنتاج العقل، لا تستمدّ إلّا من واقع هو في حاجة لأن يُطوّر، أي: معظم الفِكَر هي نتاج استشعار معضلة تستوجب حلّا، ومتى ما بلغ الإنسان حلّا اكتشف معضلة أخرى تلفت عقله وتستثيره تفكيرا بغاية بلوغ الحلِّ؛ فيفكّر تدبّرا حتى يقتنص لها حلّا من خلال بحث يتّضح فيه أثر المتغيّرات المستقلّة والمتداخلة في كلّ معضلة، ولهذا، كلّما ازداد عدد المشاكل والمعضلات الحياتية

[346] هود 118 ، 119.

تولّدت الفِكَر، وهذا يعني: وجود علاقة واسعة بين تعدّد المعضلات الحياتية، وبين عدد الفِكَر المتولّدة في عقل الإنسان تطوّرا.

فالإنسان بداية لم يكن على الفكرة، بل كان على الفطرة والتقليد، ثمّ الإنباء، ولهذا، تعدّ الفكرة لاحقة لِما سبق، والإنسان ليس بمولودها؛ فهو المخلوق الذي لا إرادة له في خلقه، ولا تخيير له في ثنائية وجوده. بل التخيير كان بأسباب الاختلاف الذي خُلق عليه جنسا ونوعا، ولهذا، الإنس غير الملائكة والجن، وكذلك الذّكر غير الأنثى، والرّجل غير بقية الرّجال، والأنثى غير بقية الإناث، وهكذا كان الاختلاف بين الأجناس والأنواع، ولكلّ بصمته التي تعطيه خصوصية تجعله مختلفا عن خصوصيات الغير.

ولأنّ الإنسان في دائرة الممكن خُلق مخيّرا؛ فهو يفكّر فيما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء، وهو يقبل ويرفض، ويخطئ ويصيب؛ وبإمكانه أن يتطوّر ارتقاء، أو أن يتخلّف وينحدر دونية. ولأنّه مخيّر؛ فله من المشيئة في دائرة الممكن ما له؛ فهو يؤمن ويكفر ويشرك كما يشاء، ذلك لأنَّ كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع هو بين يديه إرادة.

ومع أنّ الإنسان مخيّرا، لكنّه لم يترك هكذا وكأنّه بلا قيود؛ فهو المعرّض للاختبار من قِبل من خَلقه في دائرة الممكن مخيّرا. وأوّل اختبار آدمي هو ما فشل فيه آدم نفسه، وهو يوم أن أغواه الشّيطان وزوجه وزيّن لهما الأكل من تلك الشّجرة، {قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[347]، أي: في ذلك اليوم كانت المواجهة بين العقل والشّهوة، فتغلّبت الشّهوة على العقل الذي لم يستدع قوّته في حينها؛ فارتكب آدم فعل المعصية، التي لازالت ترتكب إلى يومنا هذا شهوة ورغبة وغفلة، {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}[348]؛ فهبط الأعداء على الأرض دونيّة. ولأنّهم الأعداء؛ فهل يمكن أن تكون حياتهم على المحبّة ولا شيء غيرها؟

أقول:

كلّ شيء في دائرة النّسبية هو بين متوقّع وغير متوقّع، ولهذا؛ فالقلب الواحد يحمل في سويداءه المتناقضات (حبّ وكره) ولكلّ مستفزّاته وعِلله، ولا استغراب أن تحدث المفاجآت في الزّمان والمكان غير المتوقّعين؛ فهذه من طبيعة خلق الإنسان الذي خُلق مسيرا ومخيّرا في ذات الوقت، ولأنّه كذلك؛ فلا بدّ وأن يكون على التخيير بين متوقّع وغير متوقّع ولا استغراب.

ولأنّ بني آدم مخيّرون؛ فقد اختار بعضهم المعصية كما اختارها أبوهم من قبلهم، غير أنّ أباهم استغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، ولكنّ بعض الأبناء لم يستغفروا عن ذنوبهم؛ فأضافوا إلى ما هم عليه من ذنوب ما أضافوا.

ومن هنا، كانت بداية الخلاف والصّراع والاقتتال بين بني آدم بما تثيره الشّهوة والرّغبة تحت مظلة الغفلة، ثمّ أخذ الخلاف والصّراع

---

[347] طه 120 ، 121.
[348] طه 123.

منحى دينيا بين من يأخذ بالنّبأ والرِّسالة، وبين من يكفر بهما. وهكذا ظل العداء بين بني آدم وكأنّ العداء قد خُلق معهم على الفطرة والتقليد، وهكذا ظلّ القتل من بعد تلك الحادثة (قَتلُ ابن آدم لأخيه)، وكأنّ الأنبياء والرّسُل لم يبعثوا بعد.

وما يُلفت النّظر هنا، أنّ الذي قُتل من بني آدم هو من اتّقى ربّه هداية ومخافة، ممّا جعل البقاء لمن لم يتقيه بما عملت يداه، ومن هنا، أصبحت كفّة المغالبة راجحة تجاه (بنو من قتل أخاه ظلما)، ولهذا، {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[349]، ولكن لو كُتِبَ البقاء للذي اتّقى ربّه في نفسه وأخيه، لكان الأمر في دائرة المتوقّع غير ذلك، ومن ثمّ، اتسعت دائرة العصاة بقتل المسالم وبقاء الظالم، وظلت الفتنة على التكاثر مع تكاثر بني آدم إلى يومنا هذا، وحتى النّهاية. أي: لا يمكن أن يقف الاقتتال، والمفسدون والمخالفون والعصاة والمجرمون في الأرض هم الذين أهبط بهم والأرض أرضا.

ولهذا؛ فالفساد في الأرض كَثُر بما عملته أيدي النّاس، ومع ذلك لم يبق الفساد على حاله؛ فبعث الله نوحا نبيا لينذر قومه الذين أفسدوا في الأرض، {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}[350]، ومع أنّه لبث فيهم هذه السّنين، ولكنّ أكثرهم ظلوا ضالّين، إلى أن صدر حكم الله عليهم غرقا، وهو غرق من لم يتّعظ ولا يعتبر ولا يهتدي للتي هي أحسن؛ فغرقت تلك البقعة من الأرض بمن عليها خلافا، إلّا المؤمنين بما جاء به نوح من عند ربّه، كُتبت لهم النّجاة على ظهر سفينة النّجاة، التي حُمِلَ فيها من

---

[349] الأنعام 111.

[350] العنكبوت 14.

كلّ زوجين اثنين {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[351].

إنّها بداية حقبة جديدة لنشوء مجتمع إنساني جديد، كلّه على الهداية والإيمان؛ فكان البقاء للحقّ، ولا وجود للباطل، ولكن يظل للتخيير والاختلاف والإرادة والرّغبة والشهّوة أدور مؤثرة على الفعل والعمل والسّلوك البشري؛ ممّا يجعل بني آدم بين تطوّر وارتقاء، وبين سُفلية ودونية، ومن ثمّ؛ فإذا كان الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لم يستطع البقاء على حُسن تقويمه اختيارا، {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[352]؛ فكيف بمن خُلق من نطفة من زوجين مختلفين؟

ولذلك، حصلت الانتكاسة من بعد نوح والطّوفان؛ فأصبحت الكثرة على الضّلال والقلّة على الإيمان؛ فبعث الله إبراهيم ومن بعده الأنبياء تترى، من أجل الهداية والإصلاح وبلوغ الحلّ فيما هم فيه مختلفون، {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}[353].

ومن هنا، أصبحت الشرائع بين النّاس تنظّم العلاقات الإنسانية على الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، سواء أكان النّاس مؤمنين، أم غير ذلك، وذلك وفقا لقاعدة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[354]. أي: أصبحت الأديان هي المصدر الأوّل لتنظيم العلاقات بين الأمم والشّعوب، فهي قد لفتت النّاس إلى آيات الخالق في كونه وفي المعجزات التي

---

[351] هود 40.
[352] طه 121.
[353] المؤمنون 44.
[354] البقرة 256.

بعث بها رُسُله؛ فكان الجدل حجّة بحجّة، حتى وُلدت الفلسفة في عقول النّاس بحثا عن الحقيقة المجرّدة. ولا شيء في دائرة الممكن يعيق العقل عن البحث والتقصي بما أنّ العقل قادر على الإعمال فكرا.

محطات

تطوّر الفِكْر

مرّ الفكر الإنساني تطوّرا وارتقاء بمراحل الخَلق والنّشوء والفطرة والتقليد، ثمّ بلغ مراحل إنتاج الفكرة التي كانت الأديان مثيرها المعرفي، والتي منها الشّعوب صاغت فِكْر وفلسفة بغاية تنظيم العلاقات بين النّاس وممارسة الحريّة عن إرادة بلا إكراه ولا هيمنة ولا حرمان؛ فتأسّست النّظم والنّظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على قيم غير ثابتة إلى أن أصبحت قيم الاستيعاب، والاحترام، والتقدير، والاعتبار، والتقّبل، والاعتراف ثوابت لممارسة الحرّية، وأصبح العالم قرية لا تستقر ارتقاء إلّا على حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليات تُحمل.

وحتى لا يظن البعض أنّ التطوّر كان انسيابيا، وأنّ الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم لم يمرّ سلوكه بانتكاسات وسُفلية ودونية؛ فتلك العصور المظلمة حتى وإن بعدت عنّا زمانا لازالت شواهدها في محفظة التاريخ، وهي في أذهان البعض لازالت أساطير على قيد الحياة حتّى وإن لم تدخل سوق العمل.

الفِكْر الأسطوري:

الفِكْر في ذاته لم يكن جزءا من الأسطورة، ولا الأسطورة جزءا من الفِكَر، بل الفكر ملكة إعمال العقل، وشمعة نوره التي بها يهتدي إلى ما يشاء وفقا لما يريد، أمّا القصد بمفهوم الفكر الأسطوري؛ فهو ما يدلّ على مستوى التفكير في حقبة من أحقاب النّضج

المعرفي ارتقاء؛ فالأسطورة في معظم الأحيان لا تستند على واقع إلّا لتضخّمه وتزيّنه، ثمّ تسوّقه وكأنّه الحقيقة.

فالفِكْر الأسطوري مشهد من مشاهد الحياة، التي مرّت بها البشريّة، يسرد المعلومات ويفسّرها، ولكن لا يقدّم الحلّ، ولا علاقة له بالتحليل، ولا بالمحاجّة المنطقية، ولا التجربة (المشاهدة والملاحظة المصنّفة). بل المستوى الفكري الأسطوري مستوى خرافي، والشواهد فيه بين المتحاجّين خرافة بخرافة، وشعوذة سحرية بأخرى مثلها، والطبيعة هي المسيطرة، والخنوع إليها يحقّق الاستئناس. وحيث ما وجدت الأسطورة، غاب الشّك العقلي؛ وساد التسليم بالأمر الواقع خيالا، ودون حاجة للبرهان.

والتناقض مع أنّه السّائد حكاية، ولكنّ الاستغراب في زمنه لا يلاحقه، والدّليل لا يزيد عن كونه حكاية فاقدة للشواهد. وفي الأساطير من البطولات ما فيها، وفيها من المتناقضات ما يسفّه بعضها البعض، ومع ذلك لا تفقد الحكاية الأسطوريّة صوغها حكيا وسردا.

والأسطورة مع أنّها من إنتاج العقل، ولكنّها على غير علاقة بصناعة المستقبل؛ فهي مرتبطة بالحاضر وحاضناته في التاريخ، وكذلك الطبيعة التي لا إمكانية لمغالبتها إلّا بسحرٍ أو إله قادر على أخذ الثأر منها. ولذلك؛ فالمستوى الفكري الأسطوري تملؤه الخرافات والشعوذة وعبادة آلهة من الطبيعة وممّا تصنعه أيدي النّاس.

وتعدّ مرحلة التفكير الأسطوري مرحلة الأنا هو البطل، والخرافة مرتكز الغيبيات، والكون مصدر العقيدة، ويُعدّ السّحر هو الممهّد للأسطورة، والأسطورة هي الممهدة للفكر الفلسفي.

ولهذا، في زمن الأساطير تستمدّ المعلومات حكاية شفويّة، وتفسّر برؤية الأنا البطل، وتوظّف بوجهة نظر السّارد، وتتناقل عنعنة دون ضرورة لمعرفة المصدر. والمجتمعات في زمن الأساطير مفكّكة، حيث لا سياسة ولا اقتصاد ولا فلسفة، بل السّلوك وحده مقياس القيم، أمّا العمل؛ فالطبيعة وحدها المتحكّم فيه. ولكن هذا لا يعني لا وجود للأديان، بل الأديان بدأت مع بداية الخَلق (آدم)، ولذا؛ فمهما انحرف البعض وأخذ من دون الله أربابا، يظل البعض على كفّة الخير مؤمنا حتى وإن واجه أصحاب الشّر صِداما وخلافا واقتتالا.

ففي زمن الأساطير، تصطنع المواقف، ويبالغ فيها بطولة، وتسرد كلاما وكأنّها حقائق مع أنّها تفتقد للبرهنة والشّاهد، أمّا القدوة في زمن الأسطورة وكأنّه خُلق وحيدا، ولن يتكرر.

الأسطورة وإن كان لها سند من الطّبيعة، ولكن في بعض الأحيان تُنسج خيالا، وتقدّم حقيقة، وفي كثير من الأحيان تتولّد الأسطورة من الإشاعات والخرافات المتناقلة شفاهية، وهي كمن يكذب كذبة، ثمّ يصدّقها. وفيها من الحكي عن الآلهة وما يمتلكونه من قوّة وكأنّهم لم يكونوا آلهة بلا حول لهم ولا قوّة، وفيها من الحكي عن الأبطال الذين لا بطولات لهم ما فيها من تسويق وتضليل لعقل

المستمع، ومع ذلك يستمدّ الحاكي بطولته ممّا يحيكه من تخيّل وما يسوّقه عن غير معرفة ودليل.

ولذلك؛ فالأساطير تجعل القصّاص وكأنّهم في ساعة عمل وإنتاج، وفي المقابل تجعل المستمعين منبهرين في حالة استرخاء، وهم يأملون لو كانوا مثل أولئك الأبطال المحكي عنهم بطولات، ولهذا؛ فمقدّمات القضيّة الأسطوريّة دائما بدايتها صفرا ونتيجتها صفرا.

ومن هنا؛ فمرحلة الفكر الأسطوري مرحلة لكّ العلكة من فمٍ إلى فمٍ، ذلك لأنَّ الزّمن الذي يشغله الحُكاة حكيا، هو بحقّ زمن شغل الفراغ بالفراغ، أي: أنّ الأسطورة لا تكون إلّا نتيجة حالة من الرّكود الحياتي، مع أنّ الأسطوريين في زمنهم يظنّون أنّ حياتهم حياة مملوءة بحيويّة البطولات المتفاعلة بينهم وبين الآلهة والطّبيعة.

ومع أنَّ الفكر الأسطوري سردي، حيث لا جديد، ولكنّه بقدر ما يتبنّى رأيا يرفض الرّأي المخالف حتى وإن كان المُنقذ، وعندما يتمّ الأخذ بفكرة ما يتمّ التسليم بها حتى وإن لم تكن صادقة. ولهذا يتمّ الرّكون إلى الخيال، وكأنّه مصدر الحقائق، ولا شكّ يلاحقه.

ومع أنّ عصر الأساطير قد ولّى، ولكن في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع متى ما توفّرت معطياته عاد إلى المشهد من جديد؛ فالانتكاسات المؤلمة فكريا وسياسيا واقتصاديا ودينيا متى ما ألمّت بالنّاس وانحدروا دونية تحت العوز وضغط الحاجة؛ فلا استغراب أن تعيدهم الظّروف المؤلمة إلى الفوضى، ثمّ من بعدها إلى تلك الأساطير والخرافات التي كانت قيدا على الفكر البشري في زمن

سيطرة الطبيعة. وفي المقابل متى ما توفّرت معطيات النّهضة (فكرا وعلما ومعرفة وتجربة) نهض النّاس تحدّ لكلّ ما يؤلم.

ففي زمن الأسطورة كان الهنود يعتقدون أنّ توحّد الأرواح الخيّرة في روح واحدة تمثل النّور، وتوحّد الأرواح الشريرة في روح واحدة تمثل الظّلمة؛ وعندما يحدث الصّدام والمواجهة ينتصر النّور على الظّلمة، وينتهي الحدث التّاريخي، وكذلك كانت رؤية الرّومان الأسطوريّة، لا ترى إمكانية لتحقيق الارتقاء إلّا بالقوّة، ولذا؛ فعندما امتلكوها قالوا: (الأرض للرّومان). أمّا اليهود؛ فلا يرون نهوضا ولا نهاية لطي صفحات التخلّف إلّا بالتفوّق ارتقاء، ولهذا قالوا: (شعب الله المختار). أمّا الإسلام؛ فلا يرى ارتقاء وحلّا إلّا بالمشاورة والكلمة السّواء ولا إكراه في الدين. وهكذا اليوم يرى الفكر الغربي لا ارتقاء ولا حلّ للمشكلات الإنسانية إلّا بالبحث العلمي وممارسة الديمقراطية فكرا وسلوكا وعملا.

وعليه:

إذا أردنا القطيعة والفرقة مع عصر الأساطير حتى لا يعود ثانية؛ فينبغي أن نتجاوز عن تعميم الرؤى والأحكام الخاصّة على العموم، فالإنسان قيمة في ذاته؛ فينبغي أن يكون مقدّرا في كرامته، ومحترما برأيه، ومعترفا بإرادته، ومعتبرا باختلافه، ومستوعبا في شخصه (هو كما هو عليه) من أجل الانتقال معه إلى ما ينبغي أن يكون، مع وافر الثّقة في ممارسة الحرّية بأسلوب ديمقراطي يسمح بالتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون التمدّد على حساب الغير.

الفِكْر الفلسفي:

يعدّ الفِكْر في ذاته معطية عقلية تميّز الإنسان تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو الملكة الذهنيّة التي يثيرها المفهوم انتباها كما يثيرها المشاهد والملاحظ والمجرّد. أمّا الفِكْر الإنساني: فهو إنتاج العقل وهو المتولّد من مجموع الفِكَر المنتجة معرفة. وعلينا أن نميّز بين مفاهيم ثلاثة وإن كانت متداخلة معنى لكنّها دلالة ليست كذلك:

المفهوم الأوّل: الفِكَر، هي: حاصل مجموع الفِكَرة التي ينتجها العقل.

المفهوم الثاني: الفِكْر، وهو من إعمال العقل، ومحفظته الذّهنية التي تلفته إلى ما يجب، وهو المُنتِج للمعرفة.

المفهوم الثالث: الفِكْر، وهو: الصّفة المستمدّة من الفِكْر ذاته، باعتباره من إنتاجه؛ أي: أنَّ الفِكْر لا ينتج إلّا فِكْرا، أمّا العقل؛ فلا ينتج إلّا معقولا، سواء أكان سالبا أم موجبا.

ومن ثمّ؛ فالفِكْر الإنساني يتمركز على نضج الفِكَر، وصوغها في قضيّة تجيب على التساؤل الفلسفي (كيف؟). ولكن عندما تصاغ الفِكَر المتعدّدة وتنصهر في بوتقة الرّؤية أو النّظرية، تأخذ صفة الفِكْر الذي هو من معطيات العقل الإنساني. ومن هنا؛ فالفِكْر ملكة عقلية تثيرها مستفزّات المشاهد والملاحظ والمجرد على السواء؛ فتتعامل معها تفحّصا بلا إشارة قف، ولكن وفقا للمقدرة؛ ولهذا؛ فالفِكْر من إعمال العقل، أمّا ملكة توليد الفِكَر؛ فهي من مجموع الفكرة.

ولأنّ الفِكَر هو مجموع الفكرة، وفي المقابل الفِكْر هو صوغها في رؤى أو نظريات؛ إذا، الفِكْر لم يعدّ ملكا لشخص بعينه، بل هو نتاج بشري بغاية تنظيم العلاقات الإنسانية على فضائل وقيم تمكّن من النّهوض والارتقاء الممكّن من ممارسة الحرّية وتحقيق إشباع الحاجات المتطوّرة تنوّعا.

فالفِكْر الإنساني نتاج ما وصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ورؤى، وهو الفكر الذي أسّس ثقافات وحضارات سادت، ثمّ بادت، ثمّ نهضت حضارات غيرها، وهكذا ستظل الحضارات بين نهوض وارتقاء، وبين إبادة وسُفليةٍ، وفقا لقاعدة الصّراع بين ما يجب وما لا يجب، وهكذا ستظلّ الحياة البشريّة في دورة من التفاعل بين (ارتقاء ودونية) حضارات تسود، ثمّ تبيد، ثمّ تنهض حضارات أخرى.

ولذا، يعدّ الفِكْر من إعمال العقل، وهو المنتج لمجموع الفكرة، وصائغها فِكْرا، إنّه (المُنتِج) عقلا في مقابل مفهوم الفِكْر (المُنتَج) معرفة، وهو المستهدف تفسيرا.

لقد تطوّر الفِكْر الإنساني من الاستئناس للفطرة، إلى الأخذ بالتقليد تخييرا؛ فكان إرادة بين مفترق طرق العشوائية الفكرية؛ مرّة يأخذ بما يؤدّي إلى الارتقاء، ومرّة يأخذ بما يؤدّي إلى الانحدار، حيث عاش الإنسان الأوّل حياة الخلق في أحسن تقويم، ثمّ انحدر سُفليّة؛ فاتّسعت الهوة بينه وبين تلك المكانة ارتقاء؛ فكانت الدّونيّة بين يديه سلوكا على غير فضائل ولا قيم حميدة، وكانت الأساطير ترافقه وكأنّها الحلّ في الوقت الذي فيه الخرافة لا علاقة لها بواقع، ومع

ذلك جعلته الظروف يفكْر في نفسه ومن حوله وما حوله، فبدأت الفكرة تلد بعد الفكرة حتى استقام أمره فِكْرا؛ فانتبه إلى أهميّة الأديان حتى أثارته وعيا تجاه ما يجب، ولكنّ الانتكاسات ظلّت تحفّه حتى أصبح كلما بنى حضارة أو أسّس ثقافة، هدّها بيديه، وهنا تكمن العلّة التي تستوجب حلّا.

وهنا أقول:

إذا أردنا حلّا؛ فعلينا باحترام خصوصيات الغير، وعدم تهميشها أو إقصائها، بل ينبغي أن تقدّر؛ فتقديرها يلغي الاستثناء، ويجسّد الاختلاف الذي كلّما ساد بين النّاس اعترافا ساد الحلّ بينهم عدلا وارتقاء.

ولمتسائل أن يتساءل:

وماذا تعني سيادة الخصوصيّة ارتقاء؟

إنّها سيادة الاختلاف، وهو الذي خُلق الإنسان عليه خَلقا، ولذا؛ فكلّ من يحاول أن يلغي الاختلاف يجد نفسه في مواجهة مع طبيعة الخَلق التي لا يمكن أن تتبدّل، وكلّ من يحاول أن يلغي أو يطمس الخصوصيّة، وكأنّه يحاول أن يلغي الاختلاف، ومن هنا، تصبح المواجهة مع كلّ من له خصوصيّة. والخصوصية لم تكن العادة ولا العرف؛ فالعادة والعرف بالزّمن والتعلّم قابلان للتغيير، أمّا الخصوصية؛ فهي الاختلاف الذي لا يتغيّر. إنّها الهويّة المميّزة للجنس والنّوع، والمميّزة للجماعات والشّعوب والأمم (إنّها المستمدّة من فضائل الدّين، وقيم المجتمع، وطبيعة المكان، والظّرف السياسي، والاقتصادي، والنفسي، والذّوقي، والثقافي)، وهذه

ستظل، وسيظل النّاس مختلفين، {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[355].

ولذا؛ فالحلّ، هو اعتماد الاختلاف قيمة ضامنة للارتقاء، كما هو قيمة ضامنة لممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليات وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام.

ومع أنّ الفِكْر الإنساني واحد، ولكن يظلّ للخصوصيّة الموضوعيّة ما يميّزها فكرا؛ فهناك الفكر الفلسفي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وهناك التجربة، وهذه الخصوصيات الفكرية تتفرّع هي الأخرى إلى علوم نظرية وتطبيقية تمكّن من معرفة الحلّ اختلافا.

وبما أنَّ وراء الفكر الإنساني فلسفة، إذا؛ فهو المؤسّس على التساؤل: كيف؟

إنّه التساؤل الذي يسعى إلى معرفة الكيفية التي كانت عليها الأشياء، وكذلك الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها وفقا لما نشاء؛ فالفلسفة تتساءل عن كيف خلق الشيء شيئا؟ وكيف هو شيء؟ أي: كيف كان؟ وكيف يمكن أن يكون؟ ولهذا؛ فالتساؤل عن الكيفية تساؤل نوعي احتمالي، فيه من التعجّب ما فيه، إلى جانب الاستغراب بين الصّعب والمستحيل وكذلك الميسّر.

إنَّ التساؤل عن الكيفية يجعل الفكر الفلسفي على حالة من التنقّل بين المشاهد والملاحظ والمجرّد، والسؤال كيف؟ لا يرتبط بفلسفة أفراد ولا مجتمعات، بل يرتبط بالفكرة التي دفعتها الحيرة بحثا عن

---

[355] هود 118 ، 119.

بلوغ الحلّ؛ ولهذا، وراء كلّ فكر وعلم فلسفة (حكمة)؛ فللرياضيات فلسفة، ولعلم الكيمياء فلسفة، وللعلوم الاجتماعية والإنسانية فلسفات، ومن هنا، لا يمكن أن تكون الفلسفة غاية في ذاتها، بل الفلسفة هي الغاية وراء كلّ غاية.

ومن هنا، لا معنى للعلوم ما لم تكن من ورائها فلسفات، ولا يمكن أن يتذوّق المتعلّم حلاوة العلم ارتقاء ما لم يتمكّن من معرفة الفلسفة التي من ورائه.

ومن ثمّ؛ فالتساؤل (كيف؟) هو تساؤل الواعين من النّاس الذين يتفحّصون المشاهد، ولا يتوقّفون عنده نهاية، بل النّهاية بالنّسبة لهم لا وجود إلّا ومن ورائه سرّ (حكمة)، وهنا يكمن الحلّ، الذي ينبغي أن يتمّ التفكير فيه بحثا حتى يُكتشف ويُقدّم شاهدا بين أيدي النّاس حلّا يملؤه وجودا.

فالتساؤل عن الكيفيّة، تساؤل تدبّري بغاية معرفة العلّة والسّبب والنتيجة الممكّنة من المعرفة الواعية، ومن ثمّ بلوغ الحلّ. ولا شيء غير اليقظة إذا أرد النّاس أن يتجاوزوا المعضلات بحلول حاسمة، ولكن أيّة يقظة؟ إنّها معرفة الكيفيّة، أي: معرفة الكيفية التي خُلقت المخلوقات عليها، والكيفية التي ينبغي أن تكون عليها المتهيآت. {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[356].

إذا، معرفة الكيفية تتجاوز بأصحابها التوقّف عند حدود المشاهد والملموس إلى معرفة المجرّد ومعرفة القانون الذي وُجد المشاهد

[356] الغاشية 17 - 20.

عليه، ومن يتمكّن من معرفة المجرّد والقانون الذي نشأ عليه، يتمكّن من معرفة ماهيته كما يتمكّن من توليد المعرفة المضافة.

ومع أنّ القاعدة المنطقية ترى: أنّ الارتقاء أساس الخَلق البشري، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[357]، ولكن الاستثناء يرى: كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة، حيث قلّة الجهد المبذول من قبل من يأمل ارتقاء، في مقابل الجهد المبذول من قبل من تشدّه السُفلية. وهذا الأمر يشير إلى أنّ زمن الصراع سيطول بين من يأمل رتق الأرض بالسّموات، وبين من لا يرها إلّا مفتقة.

حيرة الفِكْر:

تُعدّ الحيرة انشغال ذهني بحلقة مفقودة متى ما تمّ التعرّف عليها فكريا، تجلّت الرّؤية، بين ما يشاهد ويلاحظ، وبين تلك العلاقة المجهولة.

والسؤال كيف؟ دائما هو السؤال المحيّر. والإجابة علية تُعدّ مرتكزا فكريا؛ والمعرفة تكسر حاجز الحيرة كما تكسر الجمود الفكري ساعة الإجابة على التساؤل: كيف؟ وأوّل محيّرٍ للفكر الإنساني كيف خُلق الكون؟

من الذي خلقه؟

أين الخالق؟

[357] التين 4.

ما هي قوانين الخَلق؟

ما هي صفات الخالق؟

إنَّ التساؤل عن الكيفية التي خُلق الكون عليها تقود إلى معرفة خالقه، ومعرفة الخالق لا يمكن أن تتأتى إلّا بمعرفة صفاته؛ فالذين قالوا: إنّ الكون خالق نفسه، فقولهم يقبل لو عدّدوا لنا صفات الكون الخالق نفسه، ولكن إن لم يجدوها (لم يجدوا له صفة)؛ فكيف لهم بالبقاء على ما يقولون؟

فالكون لا يمكن أن يكون كونا، لو لم تسبقه صفة بقائه وجودا، ومن يجيز غير ذلك، وكأنّه يودّ أن يقول: متى ما وجد المخلوق وجد الخالق، ولكنّهم إذا أجازوا ذلك عن وعي لأدركوا أنّهم قد فصلوا المخلوق عن الخالق، ومن هنا، لن يصبح الكون إلّا على حالة واحدة: إمّا خالق، وإمّا مخلوقٍ، وفي كلا الحالتين؛ فإن كان خالقا؛ فهو المسيِّر، وإن كان مخلوقا؛ فهو المسيَّر، ولأنّ المخالفين هم من علماء الفيزياء؛ فهم متى ما فكّروا في صفات خالق نفسه عرفوا أنّه على غير صفة، وفي المقابل إن قالوا: له من الصّفات ما له؛ فعليهم بعدّها؛ فإن عدّوها، أحصوها، وإن أحصوها؛ فلا يمكن أن تكون صفات خالق؛ ذلك لأنّ صفات الخالق لا تعدّ ولا تحصى، وإلّا هل هناك من يعدّ نعمه؟

النّعم لا تحصى، وما من نعمة إلّا من صفة، ولأنّه ما من نعمة إلّا من صفة، والنّعم لا تحصى، إذا؛ فكيف بإحصاء الصّفات التي لا تستمدّ النّعم إلّا منها؟

وعلينا أن نميّز بين أمرين: أن أكون على صفة، أو أن تكون لي صفة؛ فإن كنت على صفة؛ فأنا المجعول عليها جعلا، وهنا؛ فلا تطابق بين الصّفة والموصوف، ولكن إن تطابقت الصّفة مع الموصوف، كان الموصوف واحدا وإن تعدّدت صفاته.

ووفقا لهذه القاعدة المنطقيّة؛ فأين هي صفات الكون؟ وأين الكون من صفته؟

لا يمكن أن تكون الإجابة بلا لبس وغموض ما لم تحدّد صيغة السؤال: بأحد أمرين:

ما هو الكون؟ أم من هو الكون؟

فإذا قبلنا السّؤال الأوّل، قبلنا بأن الكون شيء غير مدبِّر، وإلّا لماذا استخدمنا الأداة الاستفسارية (ما) التي لا تستخدم إلّا لغير المدبّر (غير العاقل)؟

أمّا إذا قبلنا السّؤال الثاني (من يكون الكون)؟ فإنّنا كمن يقول: الكون مدبِّر أو عاقل، في الوقت الذي نعترف فيه بغير ذلك. ولأنّه لم يكن مدبّرا ولا عاقلا؛ فلا يمكن أن تستخدم الأداة الاستفسارية (من) التي لا تستخدم استفسارا إلّا عن المدبّر أو العاقل.

وبما أنَّ الكون مجعول على الصّفة الحركية (تمدّدا وانكماشا وسكونا) إذا؛ فليس له من صفة إلّا ما جُعل عليها جعلا، ولهذا؛ فلا يمكن أن يكون الكون مصدرا للصّفات. ولأنّه كذلك، إذا؛ فمن ورائه خالق تتعدّد صفاته، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

وعليه: فالفرق كبير بين دلالة السؤالين:

من هو؟

وما هو؟

فمن هو؟ هو الخالق.

أمّا ما هو؟ فهو المخلوق.

ولذا؛ فمصدر الصّفات المتعدّدة لا يتعدّد، ولهذا نقول: الصّفات سواء أكانت اسمية أم فعلية؛ هي المتطابقة مع اسم الذّات (الله) {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[358].

ولأنَّ الخالق يُدعى؛ فهل هناك من يدعو الكون؟ وإذا دُعي؛ فهل من مستمع يجيب؟

بدون شكّ، من لا يُسأل عنه بأداة الاستفهام (مَن) لا يمكن أن يكون مدبِّرا (خَالقا) ولا يمكن أن يُجيب. ولهذا؛ فلا صفة خَلقيّة للكون إلّا التي خُلق عليها تمدّدا وانكماشا وسكونا، أي: لا صفة له إلّا الحركة التي خُلق عليها تسييرا إلى النّهاية.

هكذا هي الحيرة ترتبط بالشيء من محطّة فكرية إلى محطّة أخرى؛ فهي قد ألمّت أوّل ما ألمّت بالإنسان الأوّل (آدم) عندما وجد نفسه في حيرة بين خيارات ثلاثة: أمر الله ونهيه، وإغواء إبليس، وما اشتهته نفسه؛ فظل على حيرته حتى عصى ربّه، وهنا، وُلدت من بعد الحيرة حيرة لم تلد حلّا؛ فألمّت به ثانية عندما اكشف أنّه أصبح

[358] الإسراء 110.

في دونية مخالفة لطبيعة خَلقه في أحسن تقويم؛ فظل في حيرته حتى استجاب الله لاستغفاره وتاب الله عليه.

وهكذا هي الحيرة من بعده ظلّت تلاحق بنيه؛ فألمّت بأحدهم ساعة قتله أخاة، ولم يعرف (كيف؟) يواري سوأته، حتى بعث الله غرابين؛ فتقاتلا، ثمّ دفن القاتل قتيله في حفرة قد حفرها لهذا الأمر، حينها عرف ابن آدم ما يخرجه من حيرته، مع أنّ حيرة القتل ظلّت تلاحقه حيث لا إمكانية لإدارة العجلة إلى الخلف.

ومن ثمّ، وجب التفكير فيما يُفكّر فيه بنو آدم قبل أن يقدِموا على الفعل والعمل والسّلوك، حتى يتجنّبوا الوقوع فيما يحيّر في لحظة المفاجأة، أو يؤلم، أو يؤزّم العلاقات؛ فتلك الأساطير في زمانها كانت والحيرة كانت فيها، وفي المقابل جاءت الأنباءات والرّسالات لتزيح الحيرة، وتجيب على المجهول، ومع ذلك ظلت الحيرة في كلّ المجالس والمجادلات والمحاجّات التي لا ينفكّ غموضها إلّا بمعرفة الإجابة على السؤال: (كيف؟) الذي سيظل محيّرا حتى بلوغ المعرفة عن بيّنة.

فظلت الحيرة الفكرية تراود عقول النّاس من أجل بلوغ ما يفكّ أزماتهم، وينهي آلامهم، ويمكّنهم من الاختيار المشبع للحاجات المتطوّرة تنوّعا، سواء أكانت حاجات فكرية، أم سياسية، أم اقتصادية، أم نفسية، أم اجتماعية، أم ذوقية. ومع ذلك سيظل السؤال (كيف؟) يلاحقنا وهو في حاجة للإجابة، أي: كيف تشبع الحاجات الفكرية؟ وكيف تشبع الحاجات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنفسية، والذوقية؟ وهنا، يكون أمر الإجابة بين

أيدي النّاس الذين يتعلّق الأمر بهم؛ حيث تقدير الخصوصيات، ووجوب الإرادة.

الفِكْر الفلسفي ارتقاء:

الفلسفة لم تكن علما مستقلا بذاته، بل هي ما يتولّد من الفكْر رؤى تمكّن من المعرفة، وترشد ارتقاء إلى تجاوز المشاهد والملاحظ إلى معرفة الكيفية التي هو عليها، ومعرفة القوانين التي تتحكّم فيه، ومن أين جاءت تلك القوانين؟ وكيف كانت للشيء هيئة قبل أن يكون له شكل أو صورة؟ ذلك لأنّ، الفِكْر الفلسفي جدلي، لا يأخذ الفكرة إلّا بعد تبيّن، وهو وإن قبل الفكرة تجريدا، لكنّه لا يعدّها نتاجا إلّا إذا أدت به إلى بلوغ المعرفة.

ولهذا؛ فالفلسفة نتاج التساؤل الفكري: ما هذا الكون؟ وكيف كان كونا؟ ما هذا الشيء؟ وكيف كان شيئا؟ وما ذلك الشيء؟ وكيف كان شيئا آخر؟ وما هو القانون الذي خُلق عليه الشيء؟ وكيف كان قانونا؟ وما هذه الصور؟ وكيف كانت هيئة قبل أن تصبح صورا؟ ومن الذي يسيّر الأشياء؟ أم أنّ الأشياء تسيّر ذاتها؟

تساؤلات تلفت العقل تفحّصا؛ فتزيده حيرة، يكون التفكير فيها بين صعوبة ويأس، ولكن عندما يكون الأمل ارتقاء؛ فلا قنوط، ومن هنا، تلد الحيرة يسرا يُمكّن من بلوغ المعرفة وعيا.

ولأنّ الفلسفة نتاج تساؤلات الحيرة المصنّفة علما؛ فهي نتاج العقل المتأمّل في الوجود وأسرار الكون بغاية المعرفة الواعية، ومع ذلك يمكن أن تكون النتائج المعرفية خاضعة للتفسير شذوذا عن القاعدة. فتكون نتائج المعرفة أحكاما مسبقة، أو استنتاجات غير صائبة؛

فيحدث التشوّيش على الحقيقة المعرفية، كما هو حال العالم الإنجليزي ستيفن هوكينغ الذي استنتج فيما كتبه في مؤلفه المشروع العظيم (The Grand Design) أنَّ الكون خالق نفسه ولا خالق له[359]. ولأنّه استنتاج تفسيري؛ فالاستنتاج التفسيري بلا أدلة قانونية تثبتها التّجربة يظل مرتبطا بوجهة نظر المفسّر أكثر من ارتباطه بالحقيقة، وهنا تكمن العلّة، وبخاصّة إذا أُخذ التفسير وكأنّه حُمكم قاطع، وهذا ما يتعارض مع الأحكام العلمية التي لا تكون إلّا عن حُجّة وبرهان أو عن بيّنة قابلة للتجربة والقياس.

إنّ مثل هذه التفاسير تُلفت العقل البشري تذكّرا لتلك الاستنتاجات، وتلك التفاسير الأسطورية التي سادت ثمّ بادت بلا حجّة، ولا استغراب أن تتكرر التفاسير الخاطئة بلا حُجّة، بل الاستغراب أن لا يستفاد من النتائج التي انتهت إليها تلك التفاسير الخاطئة، ولذا علينا أن نميّز بين تفسير الخيال والأسطورة، وبين تفسير خطاب العقل والمبدأ.

تفسير الخيال أسطوريّة:

في تلك الأزمنة الأسطوريّة كانت الثّقافة شفويّة، فيها من الخيال والخرافة ما فيها، وفيها من البطولات الكلامية بغير بطولات ما فيها، فيها الحقائق تزوّر، والأكاذيب تسوّق، والأنا شاهد على كلّ الشواهد، أمّا كفّة ميزان الغير؛ فهي على الدّونية، في الوقت الذي فيه الغير قد لا يكون كذلك.

[359] ستيفن هوكينغ، المشروع العظيم، الناشر، بنتام بوكس، الولايات المتحدة الأمريكية، 2010.

إنّه العصر الذي سادت فيه الحكاية والسّرد الخيالي، واللجوء إلى مظاهر الطبيعة الكونية، وكأنّها كما يراها اليوم العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ خالقة لا مخلوقة، وبالتوقّف عند هذه العلّة تفحُّصا نلاحظ وكأنّ زمن الأسطورة ليس ببعيد عن زمننا، حيث انعدام وجود الحجّة دليلا شاهدا بين أيدي النّاس.

ففي ذلك الزّمان كانت المبالغة الكلاميّة هي سيّدة المواقف، حيث وصل الحال بمن يجهل الحقيقة إذا حكى عنها وأُخذ بحكيه كان حكيه وكأنّه الدّليل والحجّة. ومن هنا، قد يأخذ البعض بتفسير العالم الفيزيائي ستيفن هوكنيغ مع أنّه بلا دليل، ولا شاهد علمي، سوى الاستنتاج تفسيرا.

تفسير العقل والمبدأ:

إنّه التفسير المستند على الحُجّة والدّليل والشّاهد والبرهان المتوافر بين أيدي المتحاورين أو المتجادلين، مع الأخذ بالمكتوب الموثّق كونه مصدرا من مصادر المعرفة الموثوقة. فتفسير العقل والمبدأ تصحبه الدقّة في التعبير مع الأخذ بالمفاهيم الفاصلة بين المتشابهات والمتقاربات في الصّفات والخصائص.

ولأنّ التفسير العقلي نقدي؛ فهو يعتمد على البرهان المنطقي (مقدمات ونتائج صادقة)؛ وهو لا يقبل بتفسير المعلومات المشكوك في أمرها، ومن يقدم على تفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها وتبلغ نتائجها؛ فهو كمن يفسّر الماء بالماء، ومن ثمّ؛ فلا يكون التفسير إلّا عاكسا لوجهة نظر المفسّر. ولهذا؛ فالمعلومات غير

قابلة للتفسير، أمّا النتائج فتفسّر. ولذا؛ فمن يفسّر المعلومات قبل أن تُخضع للتحليل فمهما بلغ من نتائج؛ فنتائجه غير موثوقة.

ولذلك؛ فتفسير المعلومات قبل أن تحلّل متغيراتها يكون أقرب إلى التفسير الأسطوري الذي يعتمد على القصّ (الحكي) الشفوي الإغرائي مع سيطرة الخيال على الموضوع قيد الحوار أو المحاجّة، وفي المقابل التفسير العلمي يعتمد على الدّقة الموضوعيّة مع تقديم الحجج وإجراء التجارب في الميادين الاجتماعية أو في المعامل والمختبرات، ولهذا؛ فالعلاقة بين التفكير الأسطوري والعلمي والفلسفي علاقة تضاد وتنافر وتعارض.

ومع أنّ التفكير الأسطوري قد طويت صفحاته ثقافة وحضارة، ولكنّ عقول البعض لازالت على مقربة منه، وهنا تكمن علّة الخيال غير الموضوعي، وبخاصّة عندما يحكي الإنسان عن نفسه وكأنّه البطل الوحيد، المتمكّن من خوض المغامرات والصّراعات متى ما حدثت، ومن ثمّ؛ فالأنا يتخيّل ما يتراءى له كيفما يشاء، ويقصص ما يشاء، في الوقت الذي لا تكون فيه قصصه على علاقة بالواقع.

إنّ هذا الأمر يتعارض مع الفِكْر الإنساني الذي يكشف العلل بما ينتجه من معارف متجاوزة لذلك المتخيل، من خلال حُسن التدبّر والتفكير في المستقبل، والعمل على صناعته بدلا من المحكي خيالا؛ وبخاصّة بعد أن عرف الإنسان الرّياضيات والعلوم الفلسفية والتجريبية ذات النتائج المقاسة حجّة وبرهانا، والتي من بعدها وبها تأسّست الدّولة المدنية؛ فحلّت العُملة محلّ تلك المقايضات العينيّة، وأصبحت البنوك مركزا استثماريا يدفع عجلة الإنتاج إلى المزيد،

وأحدث التّبادل التّجاري نُقلة واسعة بين قارات العالم وكأنّ العالم لا حدود بين قاراته ودوله. وتمكّن المواطن من إقرار دساتير وقوانين كفيلة باحترام سيادته وحريّته وحقّه في التنقّل والتملّك، وانكشف اللثام عن تلك المعلومات التي كان البعض يظنّها ثوابت الوجود، وهي: الماء الذي قال عنه طاليس: إنّه أصل الوجود. والنّار التي قال عنها إقليدس: إنّها أصل العالم، وغيرهما قال: إنّ أصل العالم (هواء وتراب) ثمّ أُكتشف أنّ العقل هو القوّة المحرّكة لعناصر الوجود الأربعة.

أمّا نحن فنقول:

إنّ وراء كلّ مخلوق خالق؛ فلا الماء، ولا النّار، ولا الهواء ولا التراب أصل الوجود، بل الوجود أساسه خالق. وهنا، ينبغي أن نميّز بين الوجود، وبين من أوجده (بين الكون ومن كوّنه)؛ فالوجود ظهور ما لم يسبق له وجود إلى حيّز المشاهدة والملاحظة، أمّا المُوجد (المكوِّن) فهو من بيده أمر الكينونة.

ولهذا؛ فالماء الذي قِيل عنه أصل الوجود، لا يزيد عن كونه جزءا من وجودٍ أعظم، وهكذا النّار والهواء والتراب؛ فهي جميعها لا تساوي إلّا جزءا بسيطا من المخلوق الكوني الذي تغلب عليه الظلمة والفراغ والمجرات والطّاقة.

ومن هنا؛ فالماء لا يكون إلّا لاحقا لسابق، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[360]، أي أنّ الماء لاحق لوجود السّماوات والأرض؛ فلو لم تكن السّماوات

[360] الأنبياء 30.

والأرض ما كان الماء، الذي جاء لاحقا بغاية إحياء الشيء المراد إحياؤه في (التراب)، ومع ذلك ليس كلّ التراب؛ فهناك من الكواكب والنّجوم الترابية ما لا ماء فيها، حيث لا قابلية للحياة، إلى أن يشاء الله.

ولأنّ الماء لا يكون إلّا لاحقا على الشيء، خلق الله آدم وزوجه خلقا من تراب، ثمّ بعد ذلك تزاوجا؛ فكانت النّطفة ماء الحياة المستمدّ من الشيء السّابق عليها (آدم وزوجه) {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا}[361]. أي: خلق من آدم وزوجة ماء (نطفة)؛ فخلق منها بشرا وهم السّلالة التي جاءت من النّطفة التي لو لم يكن الزّوجان ما كانت، وهكذا جعل الله الأحياء من الماء، {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[362]، قال: (وجعلنا)، ولم يقل: (وخلقنا)؛ فالجعل يتعلّق بما هو مخلوق، أمّ الخلق؛ فهو إيجاد ما لم يكن قد خُلق، ولهذا؛ فالأشياء المخلوقة هي في حاجة للماء لتكسب حياة وحيويّة ونشوء وارتقاء، وهذا يدلّ على وجود الأشياء أوّلا، ثمّ جعل الماء فيها مُبعثا للحياة والنّمو.

إذا؛ فعندما يقول طاليس: إنّ أساس الوجود الماء؛ فهو كمن يقول: لا عناصر للوجود سوى (الهيدروجين والأكسجين) وعندما يقول إقليدس: إنّ أصل الوجود النّار؛ فكأنه يقصر الوجود على (العناصر الغازية والكربونية)، وكذلك عندما يقول الفيلسوف اليوناني أنكسيمنس: إنَّ أصل الوجود الهواء وكأنّه يقول: قد اقتصر الوجود على عناصر الهواء التي هي (مجموعة من الغازات المختلفة)،

---

[361] الفرقان 54.

[362] الأنبياء 30.

وهكذا يرى الفيلسوف اليوناني أكزينوفانوس: أنّ أصل الكون هو تراب الأرض التي لا تكون إلّا جزيئا من الوجود العظيم. ومن هنا، يلاحظ أنّ المدرسة الطبيعية تُرجع الوجود الكوني إلى المادّة، في الوقت الذي فيه الوجود الكوني لا يقتصر عليها؛ فهو كما قدره بعض العلماء الفيزيائيين يحتوي على 5% مادة عادية كالنّجوم والكواكب والغازات والغبار الكوني، 25% مادّة مظلمة لم تكتشف بعد، 70% طاقة مظلمة[363].

ولهذا؛ فالوجود الكوني لم يكن مقتصرا على الوجود المادّي سواء أكانت المادّة (ماء، أم نار، أم هواء، أم تراب، أم أنّها مجتمعة) ، بل الكون مبنيّ على معطيات تتعدّد ويصعب عدّها، سواء أكانت طاقة، أم مجرّات، أم فراغا وظلمة، أم نجوما وكواكب، وهذه جميعها تتمدّد بين المستحيل بلوغا، والمعجز نشوءا ومعرفة، والممكن تيسيرا وصعوبة. وهذا التفسير لا يختلف عمّا قاله فيثاغورس، الذي ذهب إلى أنّ العالم عبارة عن أعداد رياضية[364].

أمّا أفلاطون؛ فيرى: العالم الحقيقي هو عالم المثل الذي يوجد فوقه الخير الأسمى، والذي يمكن إدراكه عن طريق التأمّل العقلي والتفلسف، ولذا، تعدّ فلسفة أفلاطون فلسفة مثالية مفارقة للمادّة والحسّ؛ فهي تعتبر عالم المثل العالم الأصل، بينما العالم المادي عالم زائف. ولكن الفيلسوف اليوناني أرسطو ذهب إلى غير ذلك؛

---

[363] كولين رونان ، الكون، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت، 1980 م.

[364] منتديات ستار تايمز، مدارس الفلسفة اليونانية ومناهجها، أرشيف الدراسة والمناهج التعليمية.

فهو يرى أنّ العالم الحقيقي هو العالم الواقعي المادّي، أمّا العالم المثالي؛ فهو غير موجود[365].

هكذا هو الفِكْر الفلسفي يتولّد فِكَرا (فكرة بعد فكرة)، ثمّ يعمل العقل على صوغها بما يمكّن من المعرفة المنظّمة للسّلوك، والممكّنة من العمل والارتقاء، ولذلك؛ فتلك الفلسفات والرّؤى المختلفة والمتناقضة والمتضادة والهابطة والصّاعدة لو لم تمرّ البشرية بها، ما وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من غزوٍ للفضاء وهي تأمل بلوغ المزيد ممّا يمكّن من رتق السّموات والأرض جنّة.

وعليه:

يستند الفكر الفلسفي ارتقاء على تلك الفضائل الخيّرة، والقيم الحميدة المستمدّة من الأديان والأعراف الاجتماعية والإنسانية، مع إضافة المنتج فِكَرا وبحثا علميا.

فالفكر الفلسفي يرسّخ قيمة الإنسان تعبيرا، وسلوكا، وعملا، مع التقدير للمختلف، والقبول بالحوار والتعايش مع الغير، دون إكراه ولا هيمنة ولا حرمان ولا إقصاء، وترسيخ قيم التسامح والاستيعاب والتقبّل والتفهّم، وتقدير الإرادة وممارسة الحريّة.

ولهذا؛ فالإنسان الطّموح يعرف أنّ المسافة واسعة بين نقطة الصّفر التي وضع قدميه عليها، وبين ما يأمله ارتقاء، ومع ذلك يسعى ولا يأس في قاموسه العقلي؛ فيرسم الخطط وفقا لمنهجٍ مفتوح على كلّ

---

[365] برتراند رسل، *حكمة الغرب: عرض تاريخي للفلسفة الغربية في إطارها الاجتماعي والسياسي*، ترجمة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983 م.

الاحتمالات، حتى يتمكّن من معرفة: كيف يتعلّم؟ وكيف يبحث؟ وكيف يصوغ تساؤلاته وفروضه لِما يود بلوغه؟ وكيف يفكّك ما يعوق سبيله؟ وكيف يركِّب ما تم تفكيكه من أجل تحقيق أهدافه بسلام؟ ثمّ كيف يحدث النُقلة إلى ما هو أفضل؟

ومن هنا، تلد الفلسفة منهجا به يتمّ توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحُجَّة من الحُجة، من أجل رؤية المستقبل والتطلّع إليه ارتقاء؛ فالمنهج لم يعدّ كما يظنّ البعض قالبا ثابتا لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح قواعد معيارية، بها تقاس الأقوال والأفعال والسلوكيات، وعلى ضوئها تُرسم الخطط المحدثة للنُقلة والارتقاء المأمول.

فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج لا تزيد عن كونها مناهج اجترارية عقيمة؛ فهي كمن يَلُكَّ العِلكة أكثر من مرة، وهي لا تُمكِّنَ من توليد الفكرة من الفكرة، ولا المعلومة من المعلومة، ولا الأحدث من الحديث، ولا أكثر جدّة من الجديد، ولا الأنفع من النّافع؛ فالمناهج التي تُمكن من الارتقاء هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجدّدة، وفي حالة تسابق ومنافسة وتطلّع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافية مع أخذ الحيطة والحذر من كلّ انتكاسة.

ومن ثمّ؛ فالفكر الإنساني ارتقاء لا يسوّق المناهج الجاهزة التي تخلق التُّبع، بل يسوّق المناهج التطلّعيّة السبّاقة لتحقيق الأماني الإنسانية وتطلعاتها المأمولة اتجاه كلّ ما من شأنه أن يحدث النُقلة المأمولة.

إنَّ الفكر الإنساني الطّموح لا يستهين بالزّمان، بل يعطه قيمة؛ ويثمّنه ساعة بساعة خوفا من أن تزداد الهوة اتساعا بينه وبين الأمل المرتقب؛ فهو يخاف الزّمن، وبخاصّة المستقبل منه، ذلك لأنّه يجهل ما يُخفيه، ومن ثمّ؛ فلا يثق فيه، كما أنّه لا يثق في الماضي والحاضر، لأنّ الماضي قد تركنا دون أن يتأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرّ على ذلك بتنازله عنا ثانية بثانية، ولا يودّ الاستمرار معنا، ولهذا؛ فالثّقة تنعدم في الزّمانين (الماضي والحاضر)، ممّا يجعلنا لا نقصُر تفكيرنا عليهما إلّا لأخذ العبر والمواعظ. ولذا؛ فينبغي أنْ نفكّر في غيرهما، ولا غير لهما إلّا المستقبل، الذي هو الآخر قد يغدر بنا إنْ لم نَحتَط من غدره، ولهذا؛ فلا ثقة في الزّمن، بل الثّقة في العمل.

إذا؛ فيجب العمل دون توقّف؛ ذلك لأنَّ التوقّف قليلا يؤخّر كثيرا؛ وعلينا الأخذ بالمناهج التي تُمكننا من الارتقاء بعد أن تعلّمنا كيف نتعلَّم؟ وكيف نفكّر فيما نفكّر فيه؟ وكيف نولّد الحُجّة من الحُجّة؟ وكيف نكتشف أخطاءنا؟ وكيف نصلحها أوّلا بأوّل؟ وكيف ننتقل من التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ؟ ومن ثمّ؛ فعلينا ترك تلك المناهج التي تُبلغنا أو تُعلِمُنا بما عَلِمت به، ولا تُحفِّزنا على الارتقاء.

وعليه:

ينبغي أنْ نفكّر بعمق حتى لا تضمر ذاكرتنا، وأن نقارن بين الدّقيق والأدق منه حتى تنشط عقولنا، وتستعيد عافيتها التي تمكّنها من التفكير المتوقّع وغير المتوقّع ارتقاء؛ فالعقول دائما في حاجة لأن

تُمرّن حتى تمتلك القوّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتُمكّنه من ملاحظة الآخرين وما يدور من حولها.

ومن ثمّ؛ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل الآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين، حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها، ومن ثمّ، يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة. ولهذا؛ فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا في غيره.

ولهذا؛ فالارتقاء لم يكن نتاج العاطفة، بل هو نتاج حسن تدبّر لصناعة المستقبل المُشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، والمُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة؛ فينبغي أن يرتقي الإنسان علما ومعرفة وخُلقا، وأسلوبا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويُشَدّونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، وبين الحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة ارتقاء.

ولهذا؛ فالجيوش والطّلبة مع أنّهم حيويّة المجتمع، لكنّهم في الغالب هم مستهلكون ممّا يجعلهم عبئا على جهود المتطلّعين لكلّ ما من شأنه أن يحدث النُقلة والارتقاء، ومن هنا، وجب أن تكون القاعدة: تحويل الجيوش إلى ميادين التدريب والتأهيل والإنتاج، أمّا الاستثناء: أن يعدّوا مقاتلين متى ما دعت الضّرورة من أجل المحافظة على درجات سلمّ الارتقاء، وهكذا الطّلبة ينبغي أن لا يقضوا جلّ وقتهم تعليما على أيدي المُلقِنين، بل يجب قضاؤه في تعلّم العلوم المُمكّنة من الحياة ارتقاء مع تعلّم الخبرة والتّجربة الممّكنة من ميادين العمل المنتج والمبدع على أيدي المتطلّعين إلى ما هو أفيد وأعظم.

أمّا الأطفال والمعاقين والعجزة؛ فحقّ الرّعاية والعناية مسؤولية وطنية أولى. أي: أنّ معرفة الحقيقة شيء مهم، ولكن الأهم أن تمكّن معرفة الحقيقة من معرفة الحلّ.

مراحل

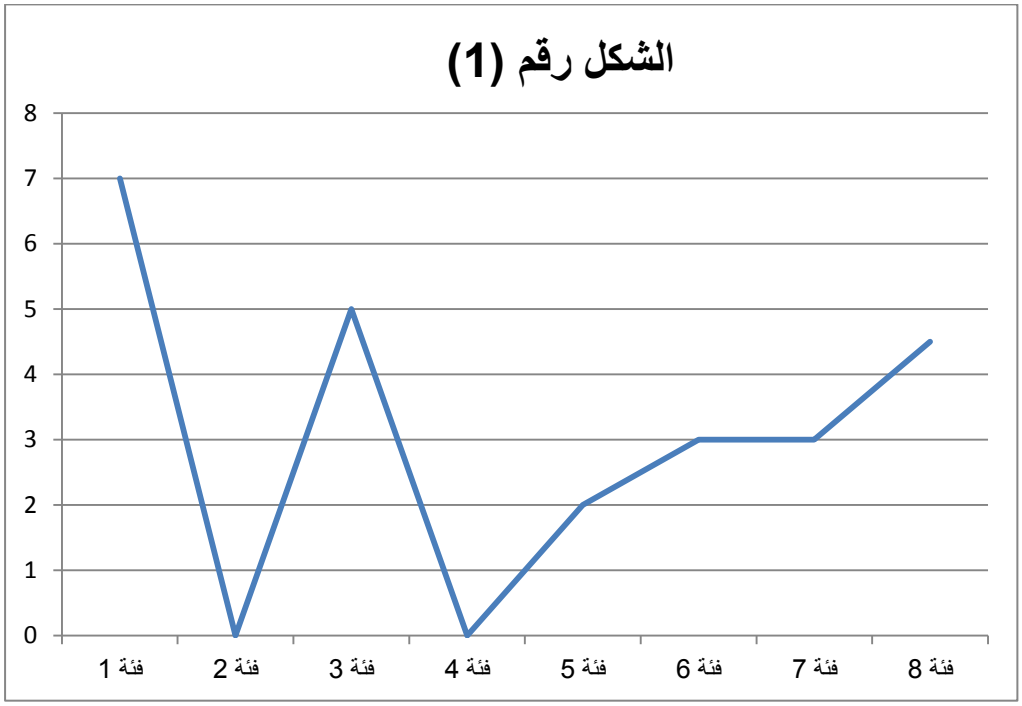
الارتقاء قاعدة واستثناء

عبر التّاريخ والمنحنى التكراري للسّلوك والفعل البشري بين هبوط وصعود؛ فمع أنّ الإنسان خُلق ارتقاء (سويّا) على صراط مستقيم، لكنّ سلوكه وفعله انحدر إرادة عمّا خُلق عليه من ارتقاء واستقامة؛ فالإنسان لم يُخلق على الانحراف والحيوانية، بل خُلق في أحسن تقويم، عقلا وصورة، ولا مثيل له، {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[366]، ومع ذلك، انحدر دونية عمّا خُلق عليه من حسن قوام وتقويم، عندما خالف أمر ربّه الذي نهاه عن الأكل من تلك الشّجرة، ومن هنا، نلاحظ أنّ النقطة الصّفرية التي بدأ منها رسم المنحنى التكراري لسلوك الإنسان وفعله، لم تكن من دونية إلى علوٍّ ورفعة، بل كانت من علوٍّ إلى دونية، وهذه أوّل مخالفة (أوّل استثناء) والتي أعقبتها استثناءات كما هو مبين في الشكل رقم (1) الذي فيه الخط الأفقي يمثل المستوى القيمي، والخط العمودي يمثل المستوى الخَلقي.

ومع أنّ السّلوك والفعل أخذا الاتجاه إلى الدّونية، ولكنّهما توقفا عند الخط الأفقي للقيم لحظة استغفار آدم عمّا ارتكبه من فعل وأقدم عليه من سلوك وعمل؛ فكان له الارتقاء حتى اصطفاه الله نبيا على الملائكة والجنّ والإنس (زوجه). ثمّ بقيت تعاليم آدم من بعده ارتقاء كما أنبأه الله وأعلمه بها بين أيدي بنيه رفعة وارتقاء، إلى أن انحدر احدهم قيما يوم أن قتل أخاه بغير ذنب (الاستثناء الثاني).

---

[366] الملك 22.



وظلت الحياة بين بني آدم بين من يرى الخير قيمة؛ فيتّبعه، وبين من لا يراه كذلك؛ فيخالفه؛ فوُلد الصّراع بينهم يوم أن ظهر الأنا على حساب الآخر، ثمّ تعاظم بتعاظم بني آدم عددا وشهوة وحاجة، بداية من حياة الفطرة التي عاشها أبوهم جنّة، ثمّ حياة الاختيارات المتنوّعة التي استوجبت إيجاد نُظم تنظم العلاقات بين المختلفين والمتخالفين على ظهر الدّنيا؛ فكانت الحياة بينهم فوارق، عبيد وسادة، فقراء وأغنياء، بدو وحضر، طبقة عليا وطبقات دونيا، إقطاعيون وخدم، ولهذا، ظل المنحى التكراري للقيم بين المختلفين والمتخالفين على غير استقرار (بين قاعدة واستثناء)، بالرّغم من بعث الأنبياء والرّسُل لأقوامهم وشعوبهم وأممّهم وللكافّة، وسيظل الخلاف بين النّاس ما ظلّت الحاجة والجهل والإقصاء والتهميش والهيمنة والظلم والعدوان.

وفي المقابل ستطوى الهوة بين النّاس إشباعا للحاجات المتطوّرة، مع عدالة تُمكّن من ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسؤوليات، وتحفّز على المزيد من البحث العلمي. وإلى جانب تلك المراحل الخَلقية (الفطرية) جاءت بوادر أخرى كان النّاس فيها بين ارتقاء ودونية (بين قاعدة واستثناء) فكانت مراحل تكوين الدّولة.

ـ مرحلة العبودية:

ظهرت هذه المرحلة بعد انتهاء مرحلة الصّيد، وظهور الملكية الخاصّة والعمل في الزّراعة؛ فتكوّن المجتمع المشاعي الذي قبل البعض فيه التكيّف ضرورة (استثناء) حيث تحكّم الحاجة وتسلّط الملّاك؛ فظهرت قيم جديدة على حساب كرامة الإنسان الذي قبِل العبودية، وارتضى أن يبيع نفسه للغير (جهدا ووجودا) حتى أصبحت أسواق العبيد منتشرة بيعا وشراء.

ومن ثمّ، تطوّرت مرحلة العبوديّة زيادة في الدّونيّة من بيع الجهد، إلى بيع الأبناء، ثمّ إلى بيع النّفس، وهنا يكمن الاستثناء، في مقابل القاعدة (إنّ الإنسان لم يُخلق عبدا) ولهذا، تظل العبودية استثناء في مواجهة الحرّية قاعدة.

وتنوّعت أسواق العبوديّة بين من قَبل بيع بنيه ونفسه، أو بيعهم جميعا من قِبل مالكهم دون أن يكون لهم رأي حتى في الثّمن الذي سيباعون به سوقا، وكذلك كان أسرى الحروب عبيدا يباع جهدهم ثمّ يباعون.

ومع أنّ القاعدة الخَلقيّة تستوجب صون كرامة الإنسان، ولكنَّ الاستثناءات تعدّدت في زمن العبودية، وقوّضت الحريّة؛ فبعث الله الرّسُل آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ومحرّضين على تحرير العبيد، {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}[367]، ولأنَّ الحرّية هي القاعدة، والعبوديّة هي الاستثناء جاءت الرّسالات تنزيلا مرسّخة للقاعدة ومقوّضة للاستثناء.

ـ مرحلة الإقطاع (feudalism):

بعد أن كانت الأرض وفقا للقاعدة الطبيعية فسحة للنّاس تنقلا ورعيا وصيدا، أصبحت إقطاعيات تحت سيطرة من يمتلك القوّة والنّفوذ استثناء، فيها جهد المنتجين على حساب ممارسة الحريّة يباع ببيعهم في أسواق المزاد عبيدا، وفيها حيازة الأرض تتّسع، وكذلك التمدّد على حساب الغير سلما وحربا، وفيها الولاء للأشخاص والتكيّف معهم علّة من عِلل الحاجة، ذلك هو الإقطاع الذي يمثّل مرحلة من مراحل تأسيس الدّولة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وحربيا؛ فالإقطاع أساسه امتلاك القوّة، ولا مجال فيه لأن يتمكّن أهل المنطق والقيم والفضائل الخيرة المستمدّة من الدّين من المنافسة والسيّادة؛ فكان حكم الاستثناء بدلا من حكم القاعدة الطبيعية (الناس خلقوا أحرارا فليبقوا أحرارا)، ولذلك يعدّ الإقطاع استثناء لكونه وجودا على حساب الغير (جهدا، وملكيّة، وحرية).

[367] النساء 92.

مرحلة رأس المال:

رأس المال امتلاك ثروة من بَلغها بلغ التمكّن من توظيف جهد وأفكار الغير استثمارا أو استغلالا (سلبا أو إيجابا)، ذلك لأنّ الغنى غاية النّاس، وهذه قاعدة، أمّا الفقر؛ فلا أحد يأمله وإن حدث؛ فهو الاستثناء (الشذوذ عن القاعدة)؛ ولذلك؛ فالنّاس ارتقاء يأملون الغنى، وفي المقابل انحدارا يعيشون الفقر والألم. ولا عيب في امتلاك رأس المال، بل العيب أن يتمّ استغلال النّاس به، ومن ثمّ؛ فالعيب لا يلحق رأس المال، بل قد يلحق الكيفيّة التي بها أصبح رأس مال؛ فإن كان شرعيّا غير منهوب بأيّ أسلوب من أساليب التحايل والنّهب؛ فهو من حقّ مالكه عملا أو إرثا، وهو لا يتعارض مع قاعدة التملّك، أمّا إذا كان نتيجة استغلال جهد الغير، أو على حساب وجودهم بأيّة علّة؛ فهو العِلّة في ذاتها.

ومن ثمّ؛ فالغنى ارتقاء غاية عظيمة، ينبغي السّعي إليها جهدا وعملا واستثمارا، على أن لا يكون على حساب جهد الآخرين، ولا على حساب حقوقهم.

ولأنّ الإنسان غايته الارتقاء حتى بلوغ الجنّة؛ فمهما بلغ من النّعيم؛ فهو لايزال في حاجة لنعيم أعظم؛ ومن هنا؛ فعليه أن يعمل كلّ ما من شأنه أن يمكّنه من بلوغ الجنّة نعيما وافرا، دون أن يغفل عن حقوق الآخرين فيما يمتلك من ثروة (زكاة وصدقة وضريبة)، إلى جانب عدم غفلته عن أهميّة الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة في تنظيم العلاقات، وبناء الدّولة الوطنيّة.

وعلينا أن نميّز بين الاستغلال والاستثمار؛ فالاستغلال لا يكون إلّا على حساب جهد الغير، أمّا الاستثمار؛ فلا يكون إلّا برأس مال مضاف إلى الجهد المشترك مع جهود الآخرين لكونهم جزءا من العملية الإنتاجية والاستثمارية، وهنا، يصبح العائد على ذوي العلاقات الاقتصادية وفقا للمستثمَر (ثروة وجهدا)، وهذه هي القاعدة، أمّا الشذوذ عنها؛ فلا يكون إلّا استثناء بلا مبررات، وبخاصّة عندما تستغل الجهود من قبل من يمتلك الثروة بلا عدالة.

ومع أنَّ جذور النّظام الرّأسمالي ضاربة في تلك الفلسفة الرّومانية القديمة، التي رغبت امتلاك القوة وبسط النفوذ والسّيطرة، ولكنّها تطوّرت مع التاريخ من الإقطاع إلى البرجوازيّة ثمّ من بعدها إلى الرأسمالية المعزّزة للملكيّة الفردية وممارسة الحرّيّة.

ولأنَّ الغنى ارتقاءً رغبة بشرية؛ فبلوغه لا يعدّ شذوذا عن القاعدة، بل الشذوذ أن لا يعمل الإنسان ليكون غنيا، وله من رأس المال ما له مشروع.

فالرّأسمالية تبحث عن الرّبح بشتى الطّرق والأساليب المشروعة، وهذه قاعدة، وفي المقابل لا أحد يعمل بأمل تحقيق الخسارة، ولهذا فالخسارة هي: الشّذوذ عن القاعدة، ومن ثمّ؛ فعلينا أن نميّز بين الخسارة، والرّبح، والرّبا؛ فالخسارة تسيء لرأس المال، وهي الاستثناء، وكذلك الرّبا استثناء لكونه نتاج الاستغلال وآلامه، أمّا الرّبح؛ فهو القاعدةّ كونه الزيادة المشروعة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً}[368]، أي: من حقّ الإنسان أن يحافظ

[368] آل عمران 130.

على رأس ماله، ومن حقّه أن لا يخسر، ولكن لا حقّ له أن يستغلّ جهد الغير بما يسيء لأحوال النّاس المعيشية والسياسية والاجتماعية، ومن هنا؛ فالقاعدة: (اعمل ما شئت من المشاريع المشروعة دون أن يترتّب على ما تُقدِم عليه من عمل ما يؤلم النّاس)، ومن حقّك أن تكسب وتنافس جودة دون استغلال الآخرين، أو أن تكون مكاسبك على حساب معيشتهم أو كرامتهم.

إذا؛ فالقاعدة: العمل المشروع أساس المكاسب والغناء، والعمل غير المشروع شذوذ عن القاعدة، وإن كانت من ورائه مكاسب وغنى.

المرحلة الشيوعيّة:

لقد عَبَرت الإنسانيّة التّاريخ بمراحل التغيير بين ارتقاء ودونية، وكأنّها لم تستفد من تجاربها، ذلك لأنَّها لم تستطع طي صفحات الاستثناء ولن، ولهذا ظل مُنحنى الارتقاء التكراري معرّضا للانتكاسات، وسيظل.

ومع أنَّ مرحلة الشّيوعية جاءت لاحقة على مرحلة الرّأسمالية، ولكنّها لم تلغها، ولم تحلّ محلّها، بل جاءت تنظيرات لمجموعة من المفكّرين على رأسهم أنجل وماركس المرسّخان لمبادئ تأسيس الدّولة على قاعدة الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، وحكم الحزب الواحد، المحاط بطبقة البروليتارية، مع تفسيرهما المادّي للتاريخ، وتقييدهما للمنافسة الحرّة، واعتبارهما أنَّ الدّين قيد ينبغي أن يفكّ، كما أن تنظيراتهم ترى أنّ لكلّ فرد عمله وحسب حاجته، وليس حسب جهده، وأنّ الشيوعية تترسّخ بالقوّة وتعمّم اقتصادا وسياسية

واجتماعا. ولكن بطرحهم هذا، كمن يقول: اقلبوا القاعدة استثناء، والاستثناء قاعدة.

ولأنّ المبادئ الشّيوعية تأسّست على مواجهة الإرادة (القاعدة)؛ فهي قد تأسّست على الإكراه (الاستثناء)، ولذلك سيظل حكم الحزب الواحد وإدارته للدّولة حكما استثنائيا لكونه مخالفا لطبيعة المواطنة التي فيها الحقوق يجب تمارس عن إرادة، والواجبات تؤدّى عن رغبة، والمسؤوليات تحمل وإن كانت أعباء.

ومن ثمّ، يعدّ الحكم الشّيوعي حكما استثنائيا، من حيث مواجهته للقاعدة التي لا ترى ارتقاء للدّولة إلّا بمشاركة مواطنيها سياسة واقتصادا واجتماعا، مع مراعاة الخصوصيّة للأفراد والجماعات والمجتمعات، ولا إكراه.

الفوضويّة في كلّ المراحل:

مع أنَّ الاستثناء خروج عن القاعدة، ولكنّ البعض لا يره إلّا حلّا كما هو حال الفوضويّة التي تعدّ من وجهة نظر برودون حلّا للمشكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبخاصّة عندما تنكسر هيبة الدّولة وتحلّ محلّها الجماعات الحرّة التي لا قيود عليها سوى إرادتها ومشيئتها الخاصّة.

ولأنَّ الفوضويّة استثناء، والبعض يطالب بها حلّا؛ فهي عبر التّاريخ تهدّد الأنظمة والسّلطات، وتعدّ أسلوبا ضاغطا على مؤسّسات الدّولة، وهي دائما بمثابة المعارضة غير الديمقراطية، لكونها خروجا عن الفضائل والقيم (خروج عن القاعدة).

وتتمركز فكرة الفوضوية على إلغاء الدّولة، بهدف تحرير الفرد من قيودها، وقيود المجتمع بأسره، ثمّ يرى برودون أنّ ما يفسد الحياة الاقتصادية هو: نظام النقد والفائدة اللذان يؤدّيان ببعض الأفراد إلى استغلال الآخرين؛ فهو يدعو إلى استبدال هذه الأنظمة بعقود حرّة بين الأفراد والجماعات يتعهد الجميع على التمسك بها، ومن ثمّ، يحلّ مكان الدّولة نظاما اتحاديا يقسّم السّكان بموجبه إلى جماعات سياسية صغيرة تنظم علاقاتها على أساس التعاقد الحرّ.

ويرى برودون أنّ الإنسان من طبعه يميل إلى التمسّك بالنّظام وقواعد العدل، وأن ميله هذا كفيل بتحقيق التفاهم والانسجام بين البشر، ولا مُفسد لذلك إلّا قيام الدّولة. ومن ثمّ، يعدّ كل مواطن مشروعا لنفسه، ولا داعي للمؤسّسات، ولهذا، قال الفيلسوف الألماني كاسبر شميدت: "لا يوجد شيء أعلى أو أسمى مني، إنّني أعلنها حربًا ضدّ كلّ دولة حتى ضدّ أكثرها ديمقراطية"[369].

ومع أنّ البعض يعتبر الفوضويّة نوعا من النّظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولكنّه نظام خارج عن النّظام، (شذوذ عن القاعدة).

ولأنّه شذوذ عن القاعدة؛ فسيظل شذّ عنها، وملازما لها، وأينما حلّت حلّ معها جنبا إلى جنب، ومع إنّه الشذوذ عن القاعدة؛ ولكنّه المتكوّن من مجموع السّالب والموجب، ولذا؛ فلا شذوذ إلّا في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع (سلبا وإيجابا).

---

[369] رءوف عباس ، أوراق هنري كوبيل والحركة الشيوعية المصرية، ترجمة عزة كامل، الطبعة الأولى، سينا للنشر القاهرة، 1988 م.

ولأنّ لكلّ قاعدة شذّ؛ فلا استغراب أن يتمدّد الشذوذ استثناء كلّما شاخت القاعدة. ومن هنا، يعد الشذوذ موقظل للعقل انتباها بغاية إعادة الاستقراء وإضافة الجديد ارتقاء.

ولأنّه الشذوذ عن القاعدة؛ فلا يمكن أن يكون حلّا، حتّى وإن كان على شيء من الإيجابية.

وعليه:

لم تكن مراحل تنظيم العلاقات البشرية منفصلة مرحلة عن أخرى؛ فهي مراحل تتداخل بلا قطيعة؛ فحيثما كانت القاعدة كان الشذوذ استثناء؛ فلو أخذنا الدّين على سبيل المثال: لوجدناه منذ أن خُلق الإنسان الأوّل وهو لم ينقطع تنزيلا في كلّ المراحل التي مرّت البشرية بها ارتقاء وانحدارا، وكذلك لو أخذنا حياة الفطرة أو التقليد أو حتى زمن الأساطير؛ لوجدناها لا زالت في الأنّفس على قيد الحياة في أقوال البعض وفي أفعالهم وسلوكياتهم وأعملهم، وفي كلّ المراحل، ولهذا، تستمدّ الخصوصية أعرافها وأديانها، وتُكتسب هويّتها جيلا بعد جيل، والاعتزاز يملؤها ثقافة.

وبمراجعة مراحل التطوّر والارتقاء البشري، نلاحظ أنَّ الانحدار قد التصق أوّل ما التصق بأوّل الخَلق الآدمي (آدم)، ثمّ التصق بأوّل أبنائه نطفة، ثمّ اتّسعت دائرة الانحدار فوضى مع تكاثر بني آدم، ولكن المواجهة مع الانحدار كانت جادّة باصطفاء الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام؛ فكان الارتقاء إيمانا بالحقّ ووجوب اتباعه، ومع ذلك، ظلت المواجهة بين ما هو فطري وأسطوري، وبين ما هو مُعجز؛ ممّا حفّز العقل الإنساني إلى توليد الفكرة من الفِكرة،

فكان الارتقاء وعيا في مقابل الانحدار جهلا، ومع ذلك ظلّت الفوضى هي المتغيّر المتربّص بكلّ تقدّم وارتقاء؛ فحيثما تُبنى حضارة تُهدّ بأيدي بُناتِها، وحيثما تؤسّس دولة تسقط بأيدي بنيها، {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}[370]. ولكن اليأس والقنوط لم يجد مكانا له في عقول وإرادة المؤمنين بأهميّة الارتقاء وضرورته وجودا؛ فكان التعلّم والتعليم من متغيرات الحياة ارتقاء؛ فجاءت النّهضة علما وإعمارا وإنتاجا وتنظيما؛ فكان غزو الفضاء فُسحة الاستكشاف العلمي لمن شاء أن يرتقي إلى ذلك المأمول الذي فقده آدم (العيش النّعيم)، وفي المقابل ظلّت الفوضى بألوانها المختلفة (الثُّلث المعطّل للإرادة)؛ فمرّة تأخذ صفة العبودية، ومرّة تأخذ صفة استعمارية (احتلال الدّول)، ومرّة تأخذ صفة الجوع، وأخرى تأخذ صفة المظلومين، وهكذا تتولّد الفوضى من رحم الأنظمة، ومع ذلك؛ فهي مرّة تؤدّي بأصحابها إلى الانحدار، وأخرى تؤدّي بهم إلى النّهوض.

فذلك الإنسان الأوّل (آدم) الذي خَلقه الله في أحسن تقويم، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فكرّمه، وفضّله على كثير ممّن خلق، واصطفاه نبيا للملائكة والجنّ والإنس، كان وزوجه أساس التكاثر، والتناقض؛ فهو أساس الارتقاء والانحدار، والفوضى والنّظام، والقوّة والضّعف، والاختلاف والاتفاق، والخطأ والصّواب، ومع ذلك؛ فهو مصدر المعرفة الواعية بعد أن أنبأه الله وعلّمه، ولأنّه كذلك؛ فهل يصدق عليه القول: كان يأكل اللحم نيّا، ولم يكن يعرف النّار؟

---

[370] الرّوم 41.

هكذا كُتب تاريخ الإنسان الأوّل، وكأنّه لم يكن آدم (أوّل الخّلق البشري)، تاريخ كُتب بلا وثائق، ولا شواهد دالة على ما كُتب، ومع ذلك أُخذ حكما، وكأنّه مسلّمات، وفيه صورة الإنسان الأوّل رُسمت بعقل من ظنّ أنّ أصل الإنسان الأوّل قرد، ثمّ تطوّر، وهذا ما يخالف قوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}[371].

ولذا؛ فالإنسان الذي خُلق على هذه الصّورة، وعلّمه الله الأسماء (الأسرار) التي منها النّار؛ فكيف يُقبل ما قيل عنه: لقد عرف النّار مصادفة، ومن يصدّق هذا القول، كمن يصدّق أنَّ النّار لم تكن اسما، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[372]، ولأنّ الله علّمه الأسماء كلّها؛ فهو يعلم الأسماء والأسرار التي من ورائها بلا استثناء.

ومن ثمّ؛ فمع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء، ولكنّه انحدر رغبة وغفلة، ثمّ انتبه لأمره ارتقاء؛ فاستغفر لذنبه؛ فتاب الله عليه، وجعله من المكرّمين، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[373]. ومع إنّهم المفضّلين، ولكنّ البعض غير مقدّرٍ لهذا التفضيل؛ فمنهم من ضلّ، ومنهم من اهتدى، وهم لا يزالون مختلفين وسيظلون كذلك.

ولأنّهم مختلفون وسيظلون كذلك؛ فهم في حاجة للالتقاء والحوار والجدل من أجل الاتفاق، ولهذا؛ فالمختلفون هم الذين في حاجة

---

371 التغابن 3.
372 البقرة 31.
373 الإسراء 70.

للالتقاء، وليس أولئك المتفقين؛ فالمتفقون كلّما التقوا كرّروا أنفسهم، حيث لا جديد يضاف.

ولذا؛ فمن أراد أن يجد لنفسه مكانة وارتقاء؛ فعليه بالالتقاء مع المختلفين بهدف الاتفاق، حتى لا يكون الالتقاء وكأنّه غاية في ذاته. ثمّ عليه بالتذكّر ارتقاء، كي يتجاوز المتذكّر ما يعيق أو يسيء ويؤلم؛ فيأخذ بما يفيد من عبر ومواعظ وتجارب إنسانية تفاديا لما يؤزّم العلاقات أو يؤخّر التقدّم تجاه ما يفيد؛ ولذلك؛ فالتذكّر يمدّ المفكّرين والمخطّطين بما يحفّزهم على بلوغ ما يجب الإقدام عليه ارتقاء.

ومع أنّ التذكّر يرتبط بالموروث المعرفي والتّاريخي، ولكنّه بالنّسبة لمن خُلق أوّلا (آدم) لا وجود له، لكونه لم يمرّ بمرحلة الحمل والطفولة والمراهقة؛ فهو قد خُلق على الرّجولة خلقا، وبالتّالي ليس له ما يتذكّر، ولكن بعد أن علّمه الله وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، ليذكّر به الغير، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[374]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حجة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجعة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن

[374] البقرة 33.

يساهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضياً، لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرا فيها، لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوة؛ فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائماً على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفلية ومؤدّيا إلى ارتقاء مأمول.

وعليه:

وجب التدبّر باعتباره دراية عقلية يرتقي بحاضر أصحابه إلى ما يمكنّهم من الأخذ بما ينبغي في سبيل إحداث النُقلة سياسة واقتصادا وعلما وحداثة، نُقلة تطوي صفحات الحاجات المتطوّرة بمشبعات مُرضية وفقا للفرضيات التي تأسّست عليها؛ ممّا يجعل المعالجة منطوية على إيجاد حلول سريعة يمكن من خلالها تفادي المشكلّة، أو حلّها من جذورها؛ فالتدبُّر ارتقاء يمكّن من مواجهة المفاجآت التي يمكن أن تحصل دون أن تترك أثرا سلبيا.

ويتّسع التدبّر ارتقاء ليكون حضوره ملبّياً أو محتوياً للأحداث الحاصلة، إلاّ أنّه لا يكون حلاّ نهائياً؛ فكلّ الحلول الآنية قد لا تصلح لأن تكون حلولاً دائمة، لكنّها في وقتها إن كانت ارتقاء؛ فهي لا

شكّ تمثّل الحلّ الأمثل في دائرة الممكن الذي تكون نتائجه باهرة وغير متوقّعة، كما أنَّ التدبُّر وإن كان آنيا إلّا أنَّه يفتح مدارك الإنسان رُقيّا في البحث عن حلول تكمن فيها النّهاية المرجوة، التي تتّسع لكلّ المفاجآت، التي يمكن أن تحدث.

أمّا التفكّر ارتقاء؛ فهو الذي لم يكن منزوياً عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثلان له قاعدة التأسيس لكلّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاء.

ولأجل النّهوض ارتقاء، وجب المزيد من البحث العلمي المُمكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل، وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبا مرنا، وطريقة تستوعب التاريخ تجربة ومنهجا ووسيلة.

ولأنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة؛ فليس له إلّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضا.

ولأنَّ الانحدار بين قاعدتين (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق ما دمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارا، ولهذا؛ فلا داعي للقلق بما أنّنا نرث الثلثين (خلقا وارتقاء)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرا.

ولأنَّ لكلّ قاعدة شذوذ؛ إذا؛ فلا إمكانية لبلوغ الحلّ كمالا؛ فتلك الجهود عبر التّاريخ، وهذه الجهود، ستتلاقح ارتقاء بغاية إنتاج الفِكْر المُمكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنّ الارتقاء رغبة وأمل، إذا؛ فسيظل أملا، ولا يُمكن أن يلاحق إلّا بالعمل إنتاجا وإعمارا وبناء وبحثا علميا، مع الاهتمام بالقيم التي تنال التقدير من النّاس.

الارتقاء عملا:

الكلمةُ مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوك يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناء وإصلاحا وإعمارا)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيءٍ، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعا.

وهكذا جميع الأنبياء عليهم السّلام أرسلوا للنّاس من أجل الهداية والعمل ارتقاء؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبا إلى جنب مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ؛ فالإنسان الأوّل الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأ فأخرج به هبوطا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة، التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه إرادة، حتى وإن كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد

الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرّسل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق؛ فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا؛ فالإنسان لم يقف عند ما يأمله، بل تجاوزه بالعمل حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنّه الجنّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم السّلام؛ فمن أخذ بها ارتقاء، أخذ بما يجب الأخذ به، ومن لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة، وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، لكنّه لم يحافظ على ارتقائه؛ فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

إنَّ الإنسان لو لم يكن مؤهلا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء وهو يأمل في المزيد.

إنَّ ما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي المُمكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى.

وستظلّ الفكرة فكرة مجرّدة إلى أن تتجسّد في سلوك أو فعل ينجز عملا، يشبع حاجة، والعمل المشبع للحاجة المتطوّرة هو العمل المؤسّس على الفكرة ارتقاء، التي تتجاوز التوقّف عند حدود الإصلاح إلى بلوغ الحلّ حيث لا تأزّم من بعده.

ولأنّ الفكرة الرّائدة تقود إلى العمل المبدع؛ فالعمل المبدع بداية قد يصفه البعض بالمستحيل بالرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة؛ فالهبوط على القمر، البعض كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه، لكونه أصبح حقيقة لا تُخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعدّ عملا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقا لدائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب أن لا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة المُمكّنة من الارتقاء الأعظم.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم؛ فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها؛ فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل أن لا تعملوا ارتقاء من أجل بلوغها.

إنّني لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاء؟ ومن يرى غير ذلك؛ فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاء؛ فمن يغفل عن ذلك؛ فكأنّه قد غفل عمّا بنته

الحواس وما ستبنيه من حضارات؛ فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النّاس، وبما غفلت عنه، ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط المُمكّنة من الخوارق في دائرة المُمكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاء عقلا وحسّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن ثمّ؛ فمن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائلا، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائلا؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاء.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيما وفضائلا؛ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد، شهد حقّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلّمَ علّمَ، وإذا اكتال أوفى، وإذا رأى فتنة بين النّاس أصلح، وإذا غضب تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفو.

ولذلك؛ فالتمسّك بالقيم كونها قيم، لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولا وسلوكا، ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربية وتعلّما وتعليما حتّى يجسدوها سلوكا كما جسدها أهل القدوة الحسنة.

فالارتقاء حركة دؤوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب

النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يلد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء ثانية؛ فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطموح، ويمكّن من بناء حضارات أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علما وفكرا وقيما وفنّا وثّقافة وإعمارا وبناء.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت وحلّت محلّها حضارات أخرى؛ ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة؛ فهي بالرّغم من تنوّعها، ولكن، وكأنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علما ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك؛ فالإنسان دائما في حاجة للارتقاء؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رقيّا؛ فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظم تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّية.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا (السُفلية)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير.

ولذلك؛ فالاختلاف والخلاف لن ينقطعا بين النّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، وبين من يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة. ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطوفان، وهنا تكمن العلّة.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف؛ فينبغي بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء سويّا إلى مستقبل مأمول؛ فالفرد وإن خُلق فردا؛ فهو لم يُخلق وحيدا، ولهذا، لا ينبغي أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاء بغاية ما يجب.

إنَّ العمل والسّلوك لا يكونان إلّا نتاج قرار في دائرة الممكن، والقرار سيظل مجّرد تصميم وفقا للرّغبة إلى أن ينفّذ بمسؤولية، ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي؛ فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه؛ فقوّة القرار تكمن في ما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاء مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاء يُمكِّن من إحداث النقلة.

قاعدة النّظرية

تأسّست النّظرية على دعائمٍ ثلاثة:

ـ المستحيلُ خَلقا.

ـ المُعجز نشوء.

ـ المُمكنُ ارتقاء.

وكلّ منها مؤسّس على اللحظة الصّفرية؛ حيث لا شيء يُخلق أو ينشأ وينمو أو يرتقي إلّا في لحظة الصّفر وجودا، والتي من بعدها يصبح الزّمن مستوعبا له بداية ونهاية.

ولأنّ الصّفر نقطة البداية؛ فكذلك هو نقطة النّهاية؛ فالكون قبل أن يكون كان الصّفر دلالة على عدم وجوده، ثمّ بدأ تمّددا إلى النّهاية التي لم يصلها بعد، وهي التي سيقف عندها صفرا؛ فالصّفر لا يدلّ إلّا على وجود ما هو أعظم. ولذلك؛ فهو يشير إلى وجود الأهم والأعظم بداية ونهاية، حيث لا شيء يخلق نفسه؛ فلو كان للشيء إمكانية خلق نفسه، لكان الصّفر أوّل الخالقين لنفسه. ولهذا؛ فالصّفر نقطة البداية لكلّ وجود وهو نقطة نهايته، ومن ينطلق من الصّفر بداية لا بدّ وأن يقف عنده نهاية.

ومن يقول: كيف يكون الصّفر نقطة البداية والنّهاية، ولا يوصف بوجود؟

أقول:

لا يعدّ الصّفر وجودا كونه لا يزيد عن متفق عليه تسمية، حيث لا شيء وجودا.

المستحيلُ خلقا

وهو: ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنّه كائن؛ فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنّه لا وجود. أنّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) وبين الممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس بالصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة المُمكن غير المتوقّع، أمّا المستحيل؛ فلا إمكانية حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِدَ نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنّه القوّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره. ومع ذلك؛ فالمستحيل أمر في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدّ لا يدرك من بعده شيء سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي جعله وجودا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلا.

فالكون لو لم يكن عملا مستحيلا ما كان انفجاره أو فتقه عظيما، ومع أنَّ المستحيل شيئا يتحقّق، لكنّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم

يكن المستحيل شيئا ما تحدّثنا عنه، ولأنّه شيء ونتحدث عنه؛ فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن ورائه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره؛ فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ؛ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمّا الأعظم من النّاس؛ فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوّة؛ فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملا قابل للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين؛ فَلِمَ لا نقف أكثر عجز أمام الفعّال له؟

فعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها، ومع ذلك يرى البعض أنّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعا، أي: لا إله من ورائه، وكأنّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق

وأن فُتقت لتعود إلى حالتها الطبيعية التي خُلقت عليها عوضا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقا.

وبما أنّ الفزيائيين واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصية؛ ليس بحكم علميا، بل مجرّد أراء لا تتعدّي نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنوا أنّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة، كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن، وفقا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء شيئا كما هو حال بنو آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيلا لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع إنّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملا؛ فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمّا المستحيل كذات؛ فلا يتجسّد في شيء يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازا حيث لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النّاس في كلّ جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع

إيقافها أو الحدّ منها. ولذا؛ فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلا.

فالكون الذي قالوا عنه خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق وليس للشيء المشار إليه بأنّه قد خُلق من لا شيء.

ولأنّ وجود الكون شيئا مستحيلا؛ فلا شكّ أن من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا، يكمن القصور بين ادراك المستحيل الأوّل (الخالق) وبين ما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلا؛ فالإنسان مع إنّه خُلق مستحيلا، لكنّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا؛ فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يخَلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلقا مستحيلا؛ إذن؛ فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق، ولهذا، كان خلق الكون مستحيلا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوّة اختراق لكلّ قوّة وإن اجتمعت، فقوّة الكون تمدّدا وتسارعا ستقف وتنتهي انكماشا أو انفجارا عظيما، أو رتقا أعظم، وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقفا له، أو مفجّرا، أو راتقا له، حيث لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي، يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها. ولذلك؛ فالقاعد الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانية لرؤية المصوِّر المطلق كونه لا يُصوَّر، ولهذا؛ فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئا، إذن، فكيف للكون كونه شيئا أن يكون مشيئا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتأه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنّهم يقولون: نحن خُلقنا شيء من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنّهم قد خُلقوا من ترابٍ. وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون أنّ أباهم آدم لم يّخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنّ آدم من تراب، ولم يكن ترابا؛ فمن الذي خلقه آدما؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه إنّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونا عظيما كما يدّعون بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى

ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[375].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم أن نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[376]. فكيف بمن لم يكن سابق على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول؛ فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها. وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه لا إمكانية أن يخلق الشيء نفسه. أي: كيف لمن يعرف أنّه خُلق من نطفة أن يقول شيء غيرها؟

ولأنّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذا؛ فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء (تراب أو نطفة) ليستقرا بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. أنّها المسلّمة لمن يدرك أنّه لم يَخلق نفسه، لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنّ أبويه (آدم وزوجه) لم يوكونا من نطفة، وهنا تكمن

---

[375] الأنبياء 30.
[376] الزّمر 62.

العلّة التي قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنّهم يؤمنون بخلق الأشياء، ولكنّهم عند ما وقفوا عند أكبرها (الكون)، قالوا: إنّه شيء، ولكنّه خالق. وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

ـ هيئة الشيء تسبق الشيء وجودا.

ـ وراء كلّ شيء مشيئة.

ـ وراء كلّ مخلوق خالق.

ـ الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا؛ فالكون لو لم يكن له مكوِّن ما كان كونا، والخَلقَ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[377].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك؛ فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده؛ ومن ثمّ؛ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارع في تمدّده، ثمّ خُلق منه وفيه ما خلق مستحيلا، وكلّ ما خُلق استحالة، لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

[377] البقرة 31.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلا؛ إذن؛ فلا إمكانية لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلا، ومن هنا، استقراء علماء الفيزياء والفلك، وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع إنّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، ولكنّ ما هو أعظم: إنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطّلعوا على الكتاب لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علما ومعرفة. {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[378]؛ فقوله: (فكيف خلق) هنا يكمن المستحيل حيث لا إمكانية لمعرفة الكيفية التي بها خلقت الأكوان طِباقا، ولأنّ معرفة (كيف؟) أمرا مستحيلا؛ فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[379]. أي: بعد أن كان الكون ملتحما سموات وأرضين، فُتق مستحيلا إلى سبعة سماوات وسبعة أرضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان؛ فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلا بعد مستحيل.

ولذلك؛ فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى أن خلق الشبيه؛ فسيظل شبيها، ولذلك؛ فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئا مفعولا، إذا؛ فالمستحيل عندما يتجسّد في عملا يصبح مفعولا شكلا أو صورة أو شيء مشاهدا وملاحظا، ولأنّه المفعول؛ فلا يكون إلّا

---

[378] نوح 15.
[379] الأنبياء 30.

بفعل الفاعل، ولأنّه بفعل فاعل المستحيل؛ فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين فعله الإعجازي؛ فعقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُقلة.

ولذلك؛ فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنّها تتدرّج من الأصعب إلى الصّعب؛ فخَلق الكون وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل، ولذلك؛ فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنّ الخلق من لاشيء (خلق الكون) يبدو وكأنّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقان منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلق منه.

ومع أنّنا ندرك أنّه لا صعوبة بالنّسبة للخالق، كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالة استمددنا مثالنا توضيحا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقا ومفعولا من خالق يَخلقه ويفعله، ولذلك؛ فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من

يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، بل الصّعوبة تواجه المُمكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المُطلق الذي لا يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدا وتسارعا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونا مرتقا.

ولذا؛ فعندما تُرتق الأرضين والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوّل مرّة، {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[380]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعملِ، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعلِ، ذلك لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمّا الفعل؛ فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال، حيث لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات عيني فقط، أقول لأبنائي اصمتوا، أو أجلسوا، أو أخرجوا؛ فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيلا، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلِّ ما لم يكن مستحيلاً هو ممكن، والفرق بينهما، هو: أنّ الممكن، قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على

[380] الرّوم 11.

معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون.

ولهذا، لو لم يكن ممكناً ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

أمّا المستحيل: فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث، ولكنّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته، ولذلك؛ فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا احد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء. وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى؛ ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر؛ فهو متحقّق، في زمن المفاجئة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لابدّ وأن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنها، والمرض أتٍ ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنّه آتي وإن أطلنا في أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنينا؛ فكلّ ذلك ممكنا علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وأن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانية، وهنا يكمن المستحيل، أي: إنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمرا نافذا؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم السّبت فإنّ يوم الأحد سيأتي غداً وفقاً لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن

مستحيلا يمكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو سينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجئة، ولن يأتي الأحد غدا كما هو متوقّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغثة (في زمن المفاجئة)، وهو الذي يحتوي دائرة المُمكن، والمُمكن لا يحتويه؛ فالمُمكن لا يكون إلّا وفقا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل؛ فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدنا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك؛ فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل؛ فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا، ينبغي على البحاث أن أرادوا معرفة المجهول، أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ؛ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلمية؛ فلن يتمكّنون من معرفة المجهول، بل يتمكّنوا فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وأن عظمت نتائجها؛ فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك، وجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل؛ فالشّطحات عندما تكون موضوعية؛ فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفية التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية؛ فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعا بين ما هو مستحيل، وبين من ينبغي أن يتمكّن من معرفته وإدراكه.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرا ولا تقتصر عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع؛ فهو البحث عمّا يُحدث النُقلّة إلى ما هو افضل وأكثر ارتقاء.

ولذلك؛ فالتّطلّع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ، إذا اردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة؛ فلا ينبغي أن توضع إشارة قفّ، أمام التفكير العلمي لبني آدم. بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملا متحقّقا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة، والذي بوجوده بعيدا عنّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية مقدّرة، حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ؛ فوجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب، ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك؛ فينبغي أن نعمل، والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك إنّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقّعا.

ولأنّه المستحيل؛ فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي

والاقتصادي والاجتماعي والإنساني، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[381].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيار، ولذلك، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُقلة المُمكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقا، ولأنّه كذلك؛ فلا يكون إلّا إعجازا، حيث لا إمكانية لخلق الشيء شيئا إلّا بمشيء، وحتى أن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على انفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنّنا نقول الخالق، إذن؛ فلا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول الخالق، ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ؛ فكلّ شيء يُخلق؛ فهو ليس بالخالق، ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه؛ فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودا قبل أن يخلق الخلائق، ولذلك؛ فالسؤول ليس في محلّه، لأنّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن

[381] الكهف 88.

العلّة، حيث لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة، يجعله وكأنّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة؛ فتفكيره لا يزيد عن كونه تفكير كتكوت داخل البيضة، والذي لا إمكانية له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة؛ ولذلك؛ فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن): كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان؛ فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان؛ كما هو حال الكون الذي كما يقولن عنه كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال: من هو الله؟ وما هي صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنا، حتى يسأل عنه كيف كان، ولذلك؛ فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها؛ فيكون. وبالتالي فأيّ كانا لا يكون إلّا على هيئته ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا؛ فنحن ندرك الكون علما، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من

الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون باعتبارنا جزيء فيه أو حتى إنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق؛ فهو على غير هيئة كونه على غير صورة، وبالتالي لا أمكانية لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السؤال: كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه. بل له علاقة بالسّائل، الذي لا يعرف من كينونته إلّا أنّه من نطفة ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنّه يعلم أنّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف، لعلّك تعرف كيف خُلق، وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق، ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك لعلك تعرف كيف خُلقت، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق، ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل؛ فإن فعلت ذلك عن وعي، لا شكّ إنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

المُعجز نشوءاً

النّشوء خَلقُ من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، ومُعجز قابل للنمو؛ فالخَلقَ كونه غير مسبوق، هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرا، ولذلك فالخَلقَ فعل يسبق المخلوق تحقّقا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء؛ فهو الخلق ممّا خُلق إعجازا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[382].

أمّا النّمو في ذاته؛ لا يكون نموّا إلّا في ذات غيره نشوء، حيث لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عملية ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّد وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

ولذا؛ فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازا (نضجا وعمرا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه كي ينمو قولا وعملا وإرادة وسلوكا، أي: يجب أن ينمو تذكّرا حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلا وإعجازا، بهدف استجماع القوّة من التّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات والتجارب والقصص والمواعظ والعبر، التي تمكّنه عن تدبّر من إنشاء شيء جديدا يفوق ذلك الماضي ارتقاء، ومع ذلك؛ فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة لمن تدبّر أمره في حاضره ارتقاء، هي: بلوغ ما هو أعظم منه

[382] يس 36.

ارتقاء، ولهذا؛ فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكنا؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان؛ فهو يعلم إنّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها، ولهذا؛ فلا ينبغي أن يتوقّف نموّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف إنّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه وبين الحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازا؛ فهو غير المتوقّف نموّا وازديادا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعا؛ ولذلك؛ فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوء معجز، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نمو، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنّ فعل المستحيل بيد الخالق؛ فالخالق لو لم يفعل مستحيلا، ما نشاء الخلق وجودا مُعجزا، وما امكن للإنسان ارتقاء. إنّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى؛ فحيثما كان الخلق كان النّشوء، وحيثما كانا (الخلق والنّشوء) كان الارتقاء، أي، لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا خالق، ومن هنا، نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وبين ما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وبين ما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلقٌ من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة

آدم وزوجه من تراب، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[383]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورا مشاهدا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضربا لهما في الأرض إلّا سلالة، ولهذا؛ فخطاهما، تمشي عليها استقام قامة.

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهمية الأرض كونها الأم الأولى، والوطن الأوّل، الذي فيه بني آدم إخوة مختلفين، ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه، وليس عيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتلا ابني آدم حيث سيطرة الشّهوة والرّغبة الشخصانية على احدهما؛ فأقصى أخاه ثمّ قتله.

ولأنّها العلل المفرّقة بين الأخوة ألما؛ فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم، من أجل البناء نموّا يطوى الهوة بين الأرض والسّماء عملا لا اتكالية فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنّ النّشوء منبت الحياة نموّا معجزا؛ فهو لا يتوقّف خَلقا، ولأنّه كذلك؛ فَلِمَ لا يكون كذلك لا يتوقّف ولا يتخلّف على أيدي بني آدم، تعليما، وصحّة، وزراعة، وصناعة، وبناء وإعمارا، وإصلاحا، وغزوا للفضاء حتى بلوغ الحلّ الممكّن من بلوغ الجنّة نعيما وفردوسا.

---

[383] نوح 17.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق، والنّشوء، والارتقاء علاقة ارتباطية؛ فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلقَ والنّشوء والارتقاء، علاقة بين مستحيل ومعجز وممكن؛ فهي علاقة اعتمادية بين السّابق (الخَلق)، والتابع (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)، ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق، لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه، ما هو المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة (ذلك الماضي الّذي نشاء فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا؛ فإنّ التفكير في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع إنّ الزّمن في أذهاننا مقسّما بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، ولكن التفكير تدبّرا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا. ولذلك؛ فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء؛ فهو يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي، أم أنّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، ولكن آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا إنّ العلّة قد المّت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطا دونيّا، ندما واستغفرا لذنبهما؛ فتاب الله عليهما، ومن هنا، نشأ لديهما أمل العودة

إلى تلك القمّة الماضية وهي بالنّسبة لهما هي الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن؛ فما يأمله آدم وبنوه المصلحين هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودا في الكون المرتق حيث لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه، حيث لا مجال للشّروق والغروب، ولأنّه كذلك؛ فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر، ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي، ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيّا لن يجد شيء مسجّلا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها، ويتمّ استدعائه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرا في الزّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجله الحياة في صفحاتها حاضرا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة، التي عندما يوضع الأصبع على أيّ منها تعدّ هي مركز منتصفها، وفي ذات الوقت تعدّ نقطة نهايتها، وهنا، يعدّ الزّمن كلّه حاضرا،

أمّا الأعمال في الزّمن؛ فهي الشّاهدة على من يقوم بها، ولهذا؛ يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة حيث لا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرا.

ولذلك؛ فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ، يعملون على إنجازها أو تحقيقها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع إنّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في ذات الوقت بالنّسبة لإنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضي، ولكن إن سلّمنا بذلك، ألا يعني أنّ الماضي سيظل ماضٍ ولن يعود؟ وإذا كان كذلك؛ فلا أمل فيه، ممّا يجعل التسليم به، وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا؛ فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا، نقول:

إنّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه؛ فمن شاء بلوغه؛ فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء؛ ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الورى، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوء وإبداعا منتج لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج، والتي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل، لا تزيد عن كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها تُعدّ السّنين، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملا وارتقاء، وبين من خفّت موازنه انحدارا؛ حيث لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطا، لا يلغي في دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة. {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[384].

يُفهم من هذه الآية، إنّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونا أوّلا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنّه فرصة؛ فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا؛ فأوّل المغتنمين لها استغفارا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن؛ فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة، ولأنّها قمّة كائنة وجودا؛ فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا، ومن هنا؛ فالزّمن ليس هو ما

[384] العنكبوت 20.

نأمله، بل الذي نأمله، ما يحتويه الزّمن وجودا؛ ولذلك؛ فالزّمن هو الزّمن؛ فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثية في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورا يوم تحديدها وصياغتها.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة، هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ. وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن؛ فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية، (ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها، لأنّ أمر معرفة الكيفية الأخِرة مستحيلا، ولأنّه أمرا مستحيلا؛ فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنّه خارج دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع؛ فلا إمكانية لتصوّره؛ ولا إمكانية لمعرفة كيفيّته، ولذلك؛ فسيظل المستحيل مستحيلا وإن علمناه مستحيلا، {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[385].

أي: إنَّ نَشأة أخرى قد حُدّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا، هي التي لا تكون إلّا ممكنا بين يدي الله، حيث لا استحالة أمامه.

ومن ثمّ؛ فبنو آدم يعرفوا أنّ أساس النّشوء الآدمي، هو من الأرض، وكذلك، هم يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرا باليا،

[385] الواقعة 61.

ويدركون أنّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ أنّ للموت نهاية (موت الموت)، ولهذا؛ فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفية أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلا (وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولذلك؛ فلا نشوء خَلقي مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقي إلّا ونمو الخُلق منشأه، ومن هنا؛ فلا يلد الشيء المُعجز إلّا من الشيء المُعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانا.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع إنّه وجود آخر، لكنّه لولا الوجود الأوّل ما كان شيء آخر، ولذا؛ وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[386]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل (الطّين) المعجز ثمّ (النّطفة) المعجزة، وبين النّشوء الآخر جنين متكامل معجزا؛ فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

[386] المؤمنون 12 - 14.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولول النّطفة ما كان المولود شيء آخر، وهنا، يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجز واستحالة.

ومع أنّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، ولكن نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات، ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعيهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوء وارتقاء؛ فالإنسان الذي يعلم أنّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل؛ فلا ييأس من بلوغ غير المتوقّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن لا تقتصر على المتوقّع فقط؛ فلِمَ لا ينتبه الجميع ويعملون على تحقيق غير المتوقّع تعليما، وإنتاجا، وعدلا، ورفاهيّة، وغزوا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، تمّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة، حيث كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة،

اكتشف شيء جديد يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة، تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوء وارتقاء معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوء حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة؛ فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونية التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية، لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه. ولكنّ الغفلة قد أخذته؛ فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ، حاول النّهوض، ولكنّه لازال يحاول وهو بين أمل ويأس. أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من بعدها شيء؛ تعدّ هذه النقطة صفرية حيث لا شيء من بعدها إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية.

المُمكنُ ارتقاء

الارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل هناك من يره تطوّرا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقية لم تكن نتاج تكيف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هيّ عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيّا، ولكن تحسين وتجويد أنواعها أصبح في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك؛ فالأمل لا يفارقه، ولهذا؛ فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم، ولذلك؛ فالكائنات قابلة لأن تتغيّر، وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاءه؛ فالإنسان خُلق متميّزا

بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص وصفات بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، لكنّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ أدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع إنّه الأمل في الزّمن الحاضر، لكنّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيا، وجهدا ينجز وفقا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعا للملاحظة مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم،

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاءه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدا من الاحترام والتقدير والاعتبار، وذلك بما

يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدا على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودا لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه المُمكِن ارتقاء؛ فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه، لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقّع؛ فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن، ولهذا، إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع، يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتاً. ومن هنا، ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبّباته لاحقاً ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع.

فالمتوقّع وغير المتوقّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%) والمتوقّع يمكن أن يكون سالباً، ويمكن أن يكون موجباً؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم

يرسمون خططهم وسياساتهم وفقاً لِما هو موجب متوقّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط، ولذلك؛ فهم دائماً يفاجئون كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقّع موضعا.

وعليه:

ينبغي أن تُرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات وفقاً لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجباً وما هو متوقّع سالباً، وما هو غير متوقّع موجباً، وما وهو غير متوقّع سالباً.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلاً؛ فعلى الإنسان أنْ:

- يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

- أنْ يخطّط لما هو غير متوقّع مثلما يخطط للمتوقّع.

- أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

- أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب أن لا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وبين ارتقاءه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيات ويعدّ البرامج وفقاً لِما هو متوقّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد

تحدث، ولذلك؛ فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي ذات الوقت يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرا. أي: إنّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يره وكأنّه الآن يواجهه تحدٍّ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا، ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة، حتى لا يحدث وتحدث المفاجئات المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالمُمكن احتمالا يسبق ما يمكن أن يكون محتملا أو غير محتملٍ، ولهذا؛ فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلا؛ فالممكن المتوقّع وغير المتوقّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل، ومن ثمّ، يضل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا، يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذا؛ فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع إنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنا، ولكنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدودية إمكاناته، وبالرّغم من ذلك؛ فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكنا؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وأن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء. ولذلك؛ فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقّع مع غير متوقّع، ولكن تظل دائرة الممكن واسعة؛ فمهما فكّرنا؛ فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكناً، ما كان البحث عنه، ولهذا؛ فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكنا، وعدم الحصول عليه ممكنا أيضاً. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل

كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس؛ الذي كان الأمر بالنّسبة له غير متوقّع، وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقّعٍا من قبل الذين قدّموا له الإهانات، ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقّعين فعل ثالث غير متوقّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن على من قمّة السُلّم السّلطاني.

ولذا؛ فلعلاقة بين المتوقّع وغير المتوقّع هي علاقة قاعدة واستثناء؛ فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازما معها، ومن هنا، يجب التفكير وفقا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها؛ فليس له إلّا المزيد من المفاجئات.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنا؛ فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تدليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، ولكن لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب) أمّا لاستثناء: (الاستسلام إليها).

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب، وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل؛ فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات، ولذلك؛ فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته؛ فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيدهم على الزّناد مرتعشة ، وهنا تكمن العلّة.

إذا؛ فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيؤ استعدادا؛ فلا إمكانية، حيث لا إرادة، ولذلك؛ فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّ من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّد ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذا؛ فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّت فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجئات في كلّ مرّة؛ فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاح مساندان.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع إنّها غايات، ولكنّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية.

ولأنّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات؛ فالمزيد من التّأهب إليه يُسرِع بحركة إحداث النُقلة مع تسارع امتداد الكون إلى النّهاية؛ ولهذا، لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النقلة المأمولة، بل كلّ الأنظمة التي رَكِب أصحابها المصاعد إلى الأسطح، ولم يضعوا في حسبانهم أنّه لا نزول إلّا من خلالها؛ فهم صَعدوها بلا سلالم، وبقوا هناك إلى أن أُسقِطَ بهم أرضاً.

ومن هنا، كان الفأر أكثر فطنة وذكاء من تلك القمم التي صعدت وبقيت هناك؛ فالفأر ذات مرّة سُئل:

لماذا أيّها الفأر عندما تشعر بخطر تبدأ اللعب بذيلك؟

فقال:

ألا يكون من الأفضل لي أن العب بذيلي بدلاً من أنْ العب برأسي؛ فأنا عندما العب بذيلي أفكر، ولكن عندما ألعب برأسي يُلعب بي.

وعليه:

فمن أجل أن لا يتكرر اللعب بالرّؤوس، ينبغي أن يحيوا النّاس، ويموت الموت، الذي كتب عليهم بعلل الفقر، والمرض، والألم، ثمّ

يُقضى عدالة على الهيمنة، والحرمان، والإقصاء، ويفسح المجال للحقوق أن تمارس، والواجبات أن تؤدّى، والمسؤوليات تُحمل، دون أن تكون الحاجات في حاجة للإشباع. ودون أن يكون من بعد العلم جهلا بذلك الصفر الذي من بعده أصبح الكون وجودا متمدّدا ومتسارع.

وختاما:

أقدّم هذا الجهد لأهل الفكر والقرّاء الكرام، وأطرحه للنّقاش والنّقد البنّاء، وأنا بكلّ ودّ سأكون متفاعلا مع ردودكم وانتقاداتكم التي تحفّز على بذل المزيد من الجهد البحثي في ساحة الفكر، وسأخذ بكلّ الملاحظات العلمية التي تنير العقل البشري، وتثري المكتبات، وتفتح آفاق الحوار بين المفكّرين وأهل العلم والثقافة.

لا شكّ أنّ البحث في هذا الميدان لم يكن بالأمر الهيّن؛ فقد تمكّنت من قراءة النّظريات الفيزيائية الرّئيسة، ونظريات أخرى، وقراءات آلاف الردود عليها سواء أكانت من منظورٍ مسيحي أم إسلامي، وارتأيت أنّها اعتمدت في ردودها على الدليل الذي لم يعترف به أهل تلك النّظريات الفيزيائية، التي ترى أنّ الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق من ورائه.

أمّا نحن فكانت التساؤلات والفروض والقوانين والبراهين بيننا حُجّة بحجّة. ومع ذلك؛ فنحن بشر، نخطأ ونصيب، ولهذا؛ فأنا في انتظار ردودكم ومقترحاتكم وانتقاداتكم مع وافر التقدير.

وإليكم موقعي الإلكتروني: www.Dr-Aqeel.com

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 68 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له 83 مؤلّفاً منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 ـ الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسياسة.

4 ـ الإسلاميات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

****

عناوين المؤلّفات

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18ـ الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمةً وسطاً، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ نحو النّظرية (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء).

المؤلّف في سطور

أ.د/ عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 - 1990).

شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 1907 - 1909م.

صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له 83 مؤلّفاً منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 ـ الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسياسة.

4 ـ الإسلاميات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

من معجزات الكون

الخلق ـ النشوء ـ الإرتقاء



أ. د/ عقيل حسين عقيل

2016